الدكتور محمد البهي

من مفاهيم القرآن
في العقيدة، والسلوك

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د /مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

من

مفاهيم القرآن

في العقيدة، والسلوك

الدكتور محمد البهي

مِنْ مَفَاهِيمِ الْقُرْآنِ

فِى الْعَقِيدَةِ ، وَالسُّلُوكِ

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن هذا الكتاب — من : مفاهيم القرآن ، فى العقيدة والسلوك — يرد تصورات المفاهيم الإسلامية لدى الشباب المسلم اليوم على الأقل . . إلى ما يرجح ، أو يقرب ، أن يكون مراداً لكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام . . إذ قد طرأ على هذه المفاهيم تغييرات : بمرور القرون ، وباختلاف العهود من : قوة . . إلى ضعف ، ومن تقرب إلى كتاب الله . . إلى هروب منه ومحاولة إبعاده عن مجالات الحياة . وأصبح الوضع منها الآن : كما يهزأ برجل الدين فى : المسرحيات ، والتمثيليات ، والأفلام ويقدم فيها ، على أنه : أضحوكة ومصدر فكاهة ، أو أنه غريب عن المجتمع الذى يعيش فيه . . كذلك آل أمر هذه المفاهيم — أو كثير منها — فى تصور الجيل المعاصر : إلى أنها لا تستحق الاكتراث بمضمونها ، فهى تنتسب إلى الماضى الذى لا يعود ، وتتحدث عن أمور لا تعيش فى واقع الحياة اليوم .

مثلا : آل أمر : « الإحسان » إلى أنه العطاء التافه الذى يعبر عن مذلة الآخذ له ، واليوم عصر العلم ، وعصر الاشتراكية ! ! . مع أن الإحسان مبدأ إسلامى رئيسى جاء مفهومه فى القرآن ليعطى حقيقة ضرورية يترابط على أساسها المجتمع ، ويتماسك بعضه إلى بعض فى : مودة ، وإخاء . وهى حقيقة تسمو فوق العدل . لأنها تمثل الإنسانية . . بقدر ما تبعد الأنانية فى المواقف والسلوك .

. . وآل أمر : « الوسيلة » إلى أنها الوساطة بين الإنسان والله ، على نمط

ما تأخذ به الكنيسة الكاثوليكية فى حياة الانسان ، وعلى نحو ما يعتقده أو يتصوره : غلاة الشيعة . . فى الإمام ، والبهائية . . فى الباب . مع أن الوسيلة — كما يرد مفهومها فى القرآن — لا تختلف عن العمل الصالح الذى يتقرب به الإنسان إلى ربه .

.. وآل أمر : «قوامة» الرجل على المرأة فى الأسرة وفى العلاقة الزوجية . . إلى أنها استبداد يباشره الرجل بعضلاته ، ويحطم به كل محبة ومودة فى العلاقة الأسرية . مع أنها مسئولية ألقيت على عاتقه بفضل تكوينه الخاص فى طبيعته ، وبفضل قدرته وجلده على مشاق الحياة : فى سبيل السعى ، لتحصيل الرزق على هذه الأرض .

.. كما آلت : « درجة » الرجل على المرأة فى دائرة : الحقوق ، والواجبات المماثلة .. إلى نوع من التمييز والأفضلية له على المرأة . مع أن الدرجة التى أسندت إليه فى القرآن هى نوع من التفوق فى حسن المعاملة ، طلب منه أن يباشره فى علاقته بالمرأة ، دون أن يطالب مقابلا له . . منها . فهى درجة فى التهذيب ، والتسامح ، ولطف المعاملة الكريمة ، وليست أمراً ينطوى إطلاقاً على أى نوع من أنواع السيادة والتميز . أى أن هذا المفهوم القرآنى « للدرجة » يطلب من الرجل : الإنسانية والتهذيب ، فى موقفه من المرأة ، وليس على العكس ، من إقراره : السيادة والتسلط عليها .

.. وآل أمر : « الجن » — أو أمر العفاريت — فى حياة المسلمين إلى خطورة : فى تأثيرها عليهم ، وفى طلب الاستعانة بها منهم . . حتى أصبح لها شأن فى تحديد المصير لديهم ، وأصبحت لها فاعلية فى إعتقادهم ، بجانب فاعلية الله . وانصبت هذه الفاعلية على علم الغيب وإستطلاعه ، وما يأتى به الغد القريب أو

البعيد . مع أن هذا الدور الذى ينسب إلى الجن والذى آل إليه المفهوم . . ينفيه القرآن . . ويرجعه إلى : إدعاء الكهان بمكة . . رغبة فى إستغلال عامة أتباعهم.

وهكذا : لأن عهود الضعف التى أتت على المسلمين، وعهود التشكك والتشكيك فى القيم الإسلامية ، وعهود التلبيس والخداع عند التلويح بقيم أخرى : علمانية .. وإلحادية مادية ماركسية، من شأنها أن تفصل عن «المفاهيم الإسلامية».. مضمونها الواقعى والإيجابى فى حياة الأمة الاسلامية وأفرادها ، وأن تشد هذه المفاهيم وتميل بها . . إلى ما يجعلها غير جديرة بالاعتبار ، أو يضعها موضع السخرية والتندر .

* وما فى هذا الكتاب من محاولة لرد المفاهيم الإسلامية إلى مصدرها الرئيسى وهو القرآن — مبعداً عنها : الضعف والهوان ، أو الميل والتحريف — هو جزء من تجلية الإسلام ، وإبعاد ما التبس ودخل عليه : بفعل الزمن . . أو بفعل المتربصين به سوءاً .

ولم تلتزم هذه المحاولة : العرض على نمط الأحرف الهجائية ، كما يصنع القاموس، أو تصنع دائرة المعارف . بل آثرت الأخذ : بنظام يلتئم مع هدف القرآن مما جاء فيه من : عقيدة ، ومنهج للسلوك . ولذا : عرضت المفاهيم فى فصلين رئيسيين : أحدهما لمفاهيم العقيدة ، والآخر لمفاهيم السلوك الانسانى .

وهى محاولة أرجو أن تتبعها محاولات من آخرين ، تزيد فى تجلية الإسلام وتخليصه مما طرأ عليه . . كما أرجو أن تتبع منا ببقية لها .

وأسأل المولى جل شأنه التوفيق، والثواب .

محمد البهى

مصر الجديدة : ربيع الآخرة سنة ١٣٩٣ هـ

مايــــو سنة ١٩٧٣ م

الفصل الأول

فى العقيـــدة

(أ) فى دائرة الالوهية .
(ب) فى دائرة الرسالة والرسول .
(ج) فى دائرة المخلوقات .
(د) فى دائرة الانسان .
(هـ) فى دائرة الحياة .

فى دائرة الألوهية

● وجــود الله

● فى حوار بين أجنبى يتشبث بإنكار الله .. وآخر مسلم يؤمن بالله : سأل الأجنبى المسلم : إن كان الله موجوداً ، فاسأله أن يقدم لنا سيارة ؟. فأجاب المسلم: حتى إذا سألته ، فقدم إلى سيارة ، فإنى لا أستطيع تموينها بالبنزين . فرد عليه الأجنبى المنكر لوجود الله بقوله : اسأله كذلك : أن يقدم لك البنزين ؟ .

وهنا قدم هذا الأجنبى المسلم ، النصح بترك الاعتقاد فى الخرافة . وهكذا : كان الحوار من جانب ذلك الأجنبى ، على أساس: أن الله شخص موجود ، على نمط الإنسان فى وجوده .

هل الله موجود كشخص ؟ أم وجود الله يتجلى فى صفاته التى يوصف بها من : الخلق ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والعلم ، والغنى ، والرحمة ، والجبروت والعدل .. وغير ذلك من الصفات ، التى هى فى واقع الأمر تعبر عن القيم الرفيعة ، والمثل العليا، التى يجب أن يتقرب منها الإنسان بالاحترام ، والعبادة ، ثم بالمحاكاة حتى يكون على شبه وقرب من الله ؟ . . وحتى يتخلق بخلق القرآن ؟ .

● هناك منطق يتعامل به كثير من الناس . وهو منطق الطفولة البشرية . وهذا المنطق يقضى : بأن الوجود لا يكون إلا لمحسوس : يشاهد بالعين ، أو يسمع بالأذن ، أو يلمس باليد . وأن ماعدا المحسوس هو غير موجود . كما يقضى هذا المنطق الطفولى: بأن الإله على غرار الإنسان . فما للإنسان من صفات : كالأكل والشرب ، والزواج ، والنسل ، والموت ، والحياة ، والضعف ، والقوة . . هو كذلك ، من صفات الإله . ولذا ، يجب : أن يكون بين الآلهة ذكوراً ، وإناثاً ، وأقوياء ، وضعفاء ، ومن يتناسلون ، ويأكلون ، ويشربون . . الخ . ومنطق

الطفولة البشرية يمكن : أن يسترسل به ، كما استرسل ذلك الأجنبي الذى يتشبث بإنكار الله . فسأل زميله المسلم معه فى العمل : اسأل الله : أن يهديك سيارة ، وبنزينها ؟ .

ومنطق الطفولة البشرية هـذا ، يعتبر — فى الأصل — ظاهرة للطفل فى مرحلته الأولى . لأن الطفل ، يتصرف بباعث الأنانية وحدها . فهو يرى : أن كل ما فى عالمه ، مما يحيط به : هو لذاته وحدها . وكذلك : يرى أن تفكيره لايفارق الأمر المادى المحسوس . فعند غضبه لايسكته وعد ، أو وعيد . وإنمايسكته — بدل الوعد — تقديم لعبة له بالفعل أو أى أمر آخر مادى ينجذب إليه ، أوقطعة من الحلوى كما يسكته — بدل الوعيد والتهديد — إيقاع نوع من العقوبة والجزاء عليه بالفعل .

ويلازم منطق الطفل الكبار ، الذين لم يتخلصوا بعد ، من طغيان الأنانية عليهم . وبالتالى يلتزمون الاتجاه المادى فى تفكيرهم ، ومن ثم ينكرون الله ، لأنه : لا يُرى بالإبصار . ولايُعرف بإحدى الحواس الأخرى فى الإنسان . وإذا أقروا بإله ، فيقرون به على نمط الإنسان . ومن هنا كانت الوثنية فى الاعتقاد .

• والله موجود. ولكنه ليس شخصاً، وليس على نمط الإنسان فى صفاته وتحديده . إنه ذات ، تجليها صفاتها العديدة . وبما أنه أكمل موجود ، فصفاته التى له تعبر عن المثل الرفيعة التى يجب أن يقترب منها الإنسان المؤمن به . وعبادة الإنسان لله بالصلاة، والصوم ، والزكاة ، والحج ، والجهاد فى سبيل الله ، هى حمل له على أن يتقرب من صفات الله جل شأنه ويتشبه بها . وتقربه هو بمحاكاة هذه الصفات فى ذاته . وهنا المؤمن العابد على سبيل الحقيقة ، هو الذى يسعى إلى العلم والقوة ، والإبداع ، والإتقان فى العمل . فيحاكى صفات العلم ، والقدرة ، والخلق فى ذات الله سبحانه وتعالى . ويسعى كذلك إلى تحقيق العدل ، وتحصيل الغنى

بالقناعة ، والرأفة بالنسبة للمؤمنين .. والشدة بالنسبة للكافرين المعاندين . فيحاكى صفات العدل ، والغنى ، والرحمة والجبروت فى ذاته جل شأنه . وهكذا . . ولذا : يروى فى الحديث الشريف: « المؤمن القوى ، خير من المؤمن الضعيف » . وقوة المؤمن ، وضعفه فى مدى محاكاته فى ذاته : ما للمولى سبحانه من صفات الكمال .

ومن هنا كان الإيمان بالله هو الطريق لرفع مستوى الإنسان فى إنسانيته ، وللحيلولة دون التزامه بمنطق الطفولة البشرية ، القائم على حب الذات ، وعدم الاعتراف بالغير ، والمخاصمة فى سبيل تحصيل المتع للذات وحدها . ولو على حساب شقاء الآخرين وحرمانهم .

وعبادة الصوم تساعد فى الواقع على تحصيل الغنى بالقناعة والاكتفاء الذاتى .

والدين ، والإيمان بالله: لا يستهدفان تقييم متع الحياة المادية . وإنما يستهدفان أن يعيش الإنسان إنساناً : فى تعاونه ومودته ، وإخائه، وإقراره بالمساواة فى الاعتبار البشرى وبالمشاركة فى خيرات الدنيا ؛ وليس أن يعيش الإنسان حيواناً فى صورة إنسان ، أو طفلا فى جسم إنسان كبير .

وآيات القرآن الكونية والإنسانية التى جاءت فى محيط الألوهية . . تشير فقط إلى وحدانية الله سبحانه ، التى يحملها شعار الإيمان بالله وهو : « لا إله إلا الله » . لأن الألوهية فى ذاتها قائمة فى فطرة الإنسان وطبيعته . إذ الإنسان يحس فى وجوده موجوداً: كبيراً وآخر صغيراً من الموجودات، ويتأثر فى حياته بالخضوع لمن هو أكبر منه فى صورته، وأكثر اعتباراً وأعظم شأناً منه . فهناك فى تصور كل إنسان: موجود هو أكبر منه فى حياته ، وهو إلهه، ويطيعه عن طريق مباشر أو غير مباشر ولذا كان الشرك فى الألوهية أمراً عادياً فى حياة الناس الذين لم يبلغوا رسالة الله ، أو بلغوا إياها ولكنهم لم يؤمنوا بما جاء فيها ، عناداً واستكباراً . ووظيفة الرسالة الإلهية — وهى وظيفة القرآن — هداية الناس إلى وحدة الألوهية

— وليس إلى وجود الألوهية فى ذاتها — فى الله وحده . وهو ذلك الموجود المتصف بصفات الكمال كلها . وليس هناك كامل لا يعتريه النقص بحال سوى الله جل جلاله . ومن ينكر الله فهو مشرك ، أى يتصور آلهة غير الله ، أو كافر أى لم يؤمن بوحدة الألوهية فى الله ، وبما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

وجاء القرآن يستنكر أن يكون هناك فريق من الناس لا يؤمنون باستحقاق الله وحده للألوهية ، فى قول الله تعالى « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إلـه إلا هو ، فأنى تؤفكون »[١] . ويعد هذا الفريق من الجهال . كما جاء فى قوله : « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السموات والأرض ، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد ، أيها الجاهلون »[٢] .

ولذا يطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام فى مواجهته للمشركين أن يعلن : أن القرآن جاء لتبليغ الوحدة فى الألوهيه ، وأنه — عليه السلام — باق فى إيمانه بهذه الوحدة ، وعلى الدعوة إليها: «قل: أى شىء أكبر شهادة؟ قل: الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ ، قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إلـه واحد ، وإننى برىء مما تشركون»[٣] . ثم يقول القرآن — مؤكداً — «ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إلـه إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون »[٤] .

والدعوة إلى الوحدة فى الألوهية — وليس إلى وجود الألوهية فى ذاتها — هى دعوة الرسالة الإلهية منذ أن نزلت ، وهى دعوة كل رسول كلف بها . فقد جاء

---

(١) فاطر : ٣
(٢) الزمر : ٦٢ — ٦٤
(٣) الأنعام : ١٩
(٤) القصص : ٨٨

مثلاً فى دعوة هود إلى قوم عاد ، قول الله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هوداً قال : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون »(١). وهذا يدل على أن وجود الألوهية — فى أية صورة — أمر مفروغ منه .

● اسماء الله الحسنى :

● إن أسماء الله الحسنى هى صفات كمال فيه . إذا ذكرت صفة منها عبرت عن كمال مطلق فى ذاته: « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم .

« هو الله الذى لا إله إلا هو : الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون .

« هو الله : الخالق ، البارىء ، المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »(٢) ..

فهذه الأسماء أو الصفات جميعها — وغيرها مما ورد بها القرآن الكريم — هى قيم عليا رفيعة لذات المولى جل جلاله . وكما تدل على سمو الذات العلية ورفعتها وكمالها غير المحدود ، تجذب الداعى للمولى كى يتقرب منها فى عبادته ودعواته : « ولله الأسماء الحسنى ، فادعوه بها (أى تقربوا إليه بها : بذكرها وترديدها ، وبمحاكاتها فى السلوك والتصرفات) وذروا الذين يلحدون فى أسمائه (أى واتركوا أولئكم وشأنهم ، الذين يظلمون أنفسهم بانتهاك حرمة هذه الأسماء والحط من قدرها ، وهم الوثنيون الماديون الذين يشركون مع الله جلت قدرته : آلهة أخرى لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضرا) سيجزون ما كانوا يعملون »(٣) .

وبأية صفة أو بأى اسم من أسمائه الحسنى يناجى بها العابد ربه ، فإنه يتقرب

(١) هود : ٥٠ . (٢) الحشر : ٢٢ — ٢٤ (٣) الأعراف : ١٨٠.

بها ، وبمحاكاة أية صفة من صفاته فى سلوكه وتصرفاته يتقرب بها إليه سبحانه : « قل : ادعوا الله ، أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا ، فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا ، وقل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا » (١) .

● والعبادة الحقيقية التى يذكر فيها المؤمن صفات ربه وأسماءه الحسنى ليست ترديد هذه الصفات والأسماء على اللسان فى صوت بين الجهر والسرية . وإنما تأمل هذه الصفات والأسماء ومحاولة التأثر بها ، ثم محاكاتها فى مجال التطبيق والسلوك الإنسانى ، بعد مجال التأمل والتذكر . وما أحوج الإنسان إلى أن يتذكر كمالات الله التى تعبر عنها أسماؤه الحسنى ، ويحاول أن يتقرب بها إليه فى تصرفاته ، وبالأخص مع ذاته الإنسانية أولا :

١ — إن الانسان فى حاجة إلى أن يعلم ، ويعلم على وجه أخص : الدلائل فى الوجود على وحدة الله المطلقة فى كماله المطلق فيخشاه ويعبده . والعلم صفة أو اسم من أسماء الله الحسنى .

٢ — والانسان فى حاجة ليعلم : أنه عقل وشهوة ، ومنطق وهوى ، وهو بحاجة ليسود عقله على شهوته ، ومنطقه على هواه : فيترفع عن المهانة والمذلة لشهوته وهواه ، إن أراد لنفسه أن يكون إنسانا . والمهيمن ، والعزيز : من صفات الله ، وأسمائه الحسنى .

٣ — والانسان فى حاجة ليعلم : أن فى اطمئنانه مع نفسه ، وفى علاقته بالآخرين معه . . سعادته ومتعته الحقيقية ، فيسعى إلى السلام بينه وبين نفسه فلا يترك

(١) الاسراء : ١١٠ ، ١١١

هواه فى صراع مع نفسه أو مع غيره ، بجنوحه وحدته . والسلام من صفات الله ، وأسمائه الحسنى .

٤ — والانسان فى حاجة ليعلم : أن القناعة عن مقدرة هى طريق الكرامة البشرية . والغنى من صفات الله ، وأسمائه الحسنى .

٥ — والانسان فى حاجة ليعلم : أن تميز انسان عن انسان هو فى عمله ، وفى اتقانه لهذا العمل ، وأمانته فى أدائه ، وبذلك يجىء عمله نموذجا ومثالا . والخلق ، والإبداع : والتصوير : من صفات الله ، وأسمائه الحسنى .

٦ — والانسان فى حاجة ليعلم : أن ممالأة الشر : فيها القضاء على انسانية الانسان وحضارته ، وأن الطريق لصيانة الإنسانية هو الوقوف فى وجه الشر وتحدى مصادره . والجبار من صفات الله ، وأسمائه الحسنى .

٧ — والانسان فى حاجة ليعلم : أن الانسان الذى لا يؤمن ، هو : ضعيف يسلم نفسه لكل دافع ، ونحو أى اتجاه . وسبيل نجاته من الضعف هو الإيمان . والمؤمن صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى .. وهكذا : أسماء الله الحسنى فيها سر قوة الانسان : فى انسانيته ، وعلى هواه وشهوته ، وفى طمأنينته ، وعدم اذلاله ومهانته ، وفى جده فى سعيه ، وفى اتقانه لعمله .. فيها سر الانسان المؤمن ، العادل المتخلق بخلق الله جل شأنه .

● **الاسلام دين الله :**

● لكى نعرف : ما هو دين الله ؟ . . نرجع إلى الرسالة الالهية الأولى على عهد ابراهيم عليه السلام .

والقرآن الكريم يقص علينا دين ابراهيم الذى أمر باتباعه ، وتبليغه للناس ، فيما تذكره هذه الآيات الثلاث .

- ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ،
- ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .
- إذ قال له ربه أسلم قال : أسلمت لرب العالمين .
- ووصى بها (أى بملته) ابراهيمُ . . بنيه — ويعقوب — يابنى :
- إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .
- أم كنتم شهداء ، إذ حضر يعقوب الميت ، إذ قال لبنيه :
- ما تعبدون من بعدى ؟
- قالوا : نعبد إلهك ، وإله آبائك ، ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، إلها
- واحداً ، ونحن له مسلمون » (١) .

. . . فقد ذكرت هذه الآيات :

أولا : أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان رسولا مصطفى ومختارا من الله . « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » .

وثانياً : أن الدين الذى جاء به كان رسالة من الله سبحانه وتعالى : « إن الله اصطفى لكم الدين . . » وأن هذه الرسالة لا يميل عنها إلا من انحرف عن جادة الحكمة : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه » .

وثالثاً : أنه طلب من أبنائه أن يسلموا ، وأن لا يدركهم الموت إلا وهم مسلمون : « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

ورابعاً : أن يعقوب — بعده — سأل أبناءه بدورد عن نوع عبادتهم فأجابوه : بأنهم مسلمون . يعبدون إلها واحدا ، وهو ما كان يعبده ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق من قبل : « قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك : ابراهيم ، واسماعيل واسحاق ، إلها واحدا ، ونحن له مسلمون » .

---

(١) البقرة : ١٣٠ — ١٣٣

فالاسلام كان رسالة ابراهيم ، ورسالة من بعده من الرسل من أبنائه ، وأتباع اسماعيل، واسحاق ويعقوب .. كانوا أيضا على دين الاسلام .

• وكذلك لكى نعرف : ما هو دين الله ، نرجع إلى القرآن ذاته فى التعرف على دين الله على عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فنتلوا هاتين الآيتين فى سورة آل عمران . والخطاب فيهما موجه إليه صلى الله عليه وسلم ، وإلى المؤمنين به :

• قل : آمنا بالله .
• وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم ، واسمعيل ، واسحاق ، ويعقوب ،
• والأسباط (وهم من نسل يعقوب) ،
• وما أوتى موسى ، وعيسى ، والنبيون من ربهم .
• لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون .
• ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين»(١).

. . . فالقرآن هنا يأمر :

أولا : بالإيمان بالله ،

وثانيا . بالايمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .. وبما كان من رسالة نزلت على ابراهيم — حتى عيسى عليهم السلام ، دون التفرقة بين أحد منهم .

وثالثاً : بأن هـذه الرسالة هى : الاسلام ، وأن من يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ،

وأخيراً : أن المؤمنين بهذه الرسالة هم مسلمون .

• فالإسلام هو دين الله على أى عهد من عهود الرسل .

---

(١) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥

والمؤمنون بدين الله هم المسلمون ، فى أى وقت من أوقات الرسالة الإلهية .

والآن : ما هو مضمون الدعوة لدين الله ؟

أو : ما هو مضمون دعوة الاسلام ؟ .

ويتحدث القرآن عن مضمون هذه الدعوة فيما تقوله الآيات الكريمة ، والخطاب فيها كذلك للرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام :

« قل :

« يا أيها الناس ! :

« إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ،

« ولكن أعبد الذى يتوفاكم ،

« وأمرت أن أكون من المؤمنين .

« وأن أقم وجهك للدين حنيفا ، ولا تكونن من المشركين .

« ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك (أى فى واقع الأمر ، وعلى طول المدى) .

« فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ،

« يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم .

« قل : يا أيها الناس ! :

« قد جاءكم الحق من ربكم ،

« فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ،

« ومن ضل فإنما يضل عليها ،

« وما أنا عليكم بوكيل (أى لا ألزمكم وأكرهكم على الإيمان) »[١].

---

(١) يونس ١٠٤ — ١٠٨

... ففي هذه الآيات يتحدث القرآن عن مضمون الدعوة إلى دين الله ، وهو الإسلام في كل عهد من عهود الرسالة الإلهية ومضمونها هو :

- الإيمان بالله وحده ،

والله صاحب القدرة على إنهاء الآجال: «ولكن أعبد الذي يتوفاكم » ،

وهو صاحب إنهاء الأزمات والشدائد : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » ،

وهو الذي لايستطيع موجود آخر أن يرد فضله وخيره لإنسان ما : « وإن يردك بخير فلا راد لفضله » ،

وأنه صاحب المغفرة والرحمة : « وهو الغفور الرحيم » ،

- والنهى عن الشرك ، وعن الوثنية المادية : « وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » .

والنهى عن توجيه العبادة — وهى منتهى الاحترام والإجلال — إلى مالايملك في واقع الأمر ضراً ولا نفعاً لأحد .. أى لما هو عاجز عن المحافظة على ذاته ، فضلا عن عجزه عن قدرة الإعطاء للآخرين: ولا تدع من دون الله مالاينفعك ولا يضرك » .

- وعدم الاكراه والإلزام في شأن الإيمان بالله . إذ الإيمان والكفر تعود نتائجهما على المؤمن ، أو على الكافر وحدهما : «فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » .

وبهذا يكون : الإسلام :

- دين الله في كل وقت ،

- ودين الله هو الوقوف بالعبادة والاحترام عند المولى سبحانه ، وصفاته هى التى تمثل القيم العليا في حياة الانسان ،

- ودين الله أيضاً عدم التجاوز بالعبادة والاحترام إلى الموجودين الآخرين مع الإنسان أيا كان نوعهم . فهم أشباح تستمد ظل وجودها من غيرها .
- وأن دين الله لا إكراه فيه ، ولا ارهاب فى حمل الناس على طاعته .
- ودين الله — الذى هو الاسلام فى كل وقت — إذا كان يدعو فى جوهره إلى قصر العبادة على الله وحده ، فإنه يريد أن يحتفظ للإنسان بكرامته ،
- وإذا كان لا إكراه فيه فإنه يريد أن يحفظ عليه حريته ومشيئته .
- وهنا كان الاسلام : دين الله ودين الانسانية معا .

- **الذكر :**

- يقول الله تعالى فى سورة : صۤ : « صۤ . والقرآن ذى الذكر (أى والقرآن صاحب الشرف والنباهة) » ويقسم الله جل شأنه بحرف : « الصاد » من حروف الهجاء العربى — وكذلك إذ يقسم بأى حرف أو حروف أخرى منه فى أى موضع آخر — إنما ليوضح : أن مدخول القسم وهو هنا : « والقرآن ذى الذكر » : فى ظهوره وعدم إنكاره — إلا من متعنت — يشبه حرف « الصاد » فى وضوح كونه من أحرف الهجاء العربى . إذ ليس هناك عربى ينكر : أن حرف الصاد من هجاء الكلمات العربية ، بل ومما تتميز به هذه اللغة عن غيرها من اللغات ، إلا إذا كان هذا العربى متعنتا فى انكاره .

فوصف القرآن الكريم : بالذكر — أى بالشرف والنباهة — كأنه أمر مفروغ منه ، لا يحتاج إلى مزيد من البيان . وأخذ القرآن هذا الوصف ، لأنه الكتاب السماوى الوحيد ، والأخير — بعد التوراة — الذى يجمع بين منهج الحياة كشريعة ، ومنهج السلوك العملى كهداية : « وما قدروا الله حق قدره إذ

قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ؟ تجعلونه قراطيس : تبدونها ، وتخفون كثيراً (أى تجعلونه أوراقاً مفرقة وأجزاء ينفصل بعضها عن بعض ، فيمكن إظهار البعض وإخفاء البعض الآخر منها : للاحتراف والتكسب ، بدل الابقاء عليه كوحدة واحدة : إما أن تظهر فتعرف كلها أو تختفى فتنكر جميعها) وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم(والخطاب موجه لبنى إسرائيل)قل : الله،ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . وهذا كتاب (أى القرآن) أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه (وهو كتاب موسى . وكتاب عيسى) ولتنذر أم القرى ومن حولها (يقصد مكة وضواحيها) والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به (وهم غير المشركين الوثنيين الماديين) وهم على صلاتهم يحافظون » (١) ..

ففى خطاب الله لبنى اسرائيل بالرد عليهم فى شأن انكارهم نزول القرآن على الرسول عليه السلام لأنه بشر : يذكر القرآن أن التوراة — وهم يعتقدون أنها كتاب الله — أنزلت على موسى وهو بشر ، كما يبين أن القرآن وهو على غرار التوراة فى التفصيل ، وفى الجمع بين العقيدة والشريعة ، أنزل على محمد وهو بشر كذلك ، صلوات الله وسلامه عليه .

● ولوضوح وصف القرآن بالذكر ، جاء : «الذكر» — بهذا التعريف وبدون إضافة إلى كلمة أخرى — تعبيراً عن القرآن نفسه فى مواضع عديدة من كتاب الله ، بحيث لا يراد منه إلا ما يراد من القرآن ذاته . يقول الله تعالى :

١ — « وأنزلنا إليك الذكر (أى القرآن ككتاب لله) لتبين للناس ما نزل

---

(١) الأنعام ٩١ ، ٩٢

إليهم ، ولعلهم يتفكرون »[١] .. ويقول :

٢ — « إنا نحن نزلنا الذكر (أى القرآن) وإنا له لحافظون »[٢] .. ويقول :

٣ — « وقالوا (أى مشركوا مكة من الوثنيين الماديين) : يا أيها الذى نزل عليه الذكر (أى القرآن) : إنك لمجنون »[٣] .. واتهموه عليه الصلاة والسلام بالجنون لأن ما جاء به فى القرآن يقضى على أساطيرهم ، وعلى استغلالهم واحترافهم بالدين، وعلى الأرستقراطية الدينية، والطبقية فى الدين :

بين عامة الأتباع ،

والكهان ،

والقوى الخفية التى يدعى لها : استراق السمع من غيب السماء .

وعلى هذا النحو قول الله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا (وهم المشركون الماديون أنفسهم) ليزلقونك بأبصارهم (أى ليمحونك من الوجود غيظاً) لما سمعوا الذكر (أى القرآن) ويقولون : إنه لمجنون »[٤] .. ويقول :

٤ — « إنما تنذر من اتبع الذكر (أى القرآن) وخشى الرحمن بالغيب (أى إنما تثمر بشارتك وانذارك بالقرآن وبهدايته : ممن يؤمن بالقرآن ويخشى ربه ، وهو لا يدركه بالبصر) »[٥]... ويقول

٥ — «ولقد كتبنا فى الزبور (وهو كتاب داود الذى أرسل به) من بعد الذكر (وهو القرآن — كتاب محمد عليه الصلاة والسلام —) : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[٦] .. أى أن تمكين عباد الله الصالحين من الأرض ، وخلافتهم عليها .. أمر مقضى به من عند الله ، منذ أن أرسل برسالته إلى الناس عليها .. حتى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . فهو مكتوب فى القرآن

---

(١) النحل : ٤٤ (٢) الحجر : ٩ (٤) الحجر : ٦ (٤) القلم : ٥١
(٥) يس : ١١ (٦) الأنبياء : ١٠٥

فيما يقول الله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات: ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدوننى، لا يشركون بى شيئاً، ومن كفر بعد ذلك: فأولئك هم الفاسقون»(١) وكان مكتوبا كذلك في رسالة داود.

• ... وهكذا: ترد كلمة: « الذكر» بهذا التعريف فى القرآن الكريم: لكتاب الله، الذى هو هذا القرآن، فى أغلب ماترد فيه.
فإذا أطلق: الذكر — بعد ذلك — على تلاوة « الأوراد » أو على « الحضرة » التي فيها هذه الأوراد ويباشرها فريق الزهاد ... فلأن الأصل فى الأوراد أن تكون من القرآن، وآياته.

• **الحكمــة:**

• يقول الله تعالى فى سورة الإسراء (٢): « وقضى ربك: أن لا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحســـانا .. إلى أن يقول: .. ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة، ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ».. ويشير بقوله: « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة » .. إلى الوصايا العديدة التى ذكرت قبل هذه الآية: ابتداء من عبادة الله وحده .. إلى عدم الخيلاء فى حركة السير. وهذه الوصايا:

١ — عبادة الله وحده.

٢ — والإحسان فى معاملة الوالدين.

٣ — وإعطاء حقوق ذى القربى، واليتامى، والمساكين.

---

(١) النور: ٥٥ (٢) ٢٣ — ٣٩.

٤ — والاعتدال فى إنفاق المال على النفس .

٥ — وتجنب قتل الأولاد ، خشية الفقر .

٦ — وعدم الاعتداء على الأعراض بالزنا .

٧ — وعدم الاعتداء على النفوس بالقتل .

٨ — وعدم المساس بأموال اليتامى والضعفاء .

٩ — والوفاء بالعهد .

١٠ — والعدل فى التعامل ،والوفاء بالحقوق والواجبات .

١١ — وعدم التجسس ، وعدم تتبع ما لا يعنى الانسان .

١٢ — وعدم الخيلاء فى حركة السير .

. . . وهى وصايا عملية فى سلوك الانسان ، حتى عبادة الله وحده ، تحدد منهج السلوك التطبيقى فى الحياة ، وتكون قواعد الأخلاق التى يجب أن يسير عليها الانسان .

وعقب أن يذكرها القرآن الكريم فى وصاياه — التى هى أوامر، أو نواهى هنا — يشير إليها بأنها وحى من « الحكمة » لله : « ذلك .. مما أوحى إليك ربك من الحكمة » . . والحكمة إذن هى المنهاج العملى للسلوك ، فى مقابل الاعتقاد . فاذا قرنت الحكمة بالكتاب — أى جاءت مقترنة معه — فى آية من آيات القرآن ، كما فى قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته .. لهمت طائفة منهم (أى من المشركين الماديين الملحدين) أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء ، وأنزل الله عليك : الكتاب .. والحكمة » (١) فالمقصود بالحكمة كذلك :

(١) النساء : ١١٣

المنهج العملى أو ما يسمى بالشريعة . إذ الشريعة هى الطريق ، والسبيل .. والمقصود بالكتاب ما تضمن العقيدة . وإذن قول الله : «وأنزل عليك الكتاب، والحكمة » معناه : أنزل عليك العقيدة .. والشريعة معا .. أى أنزل عليك دينا متكاملا ، يمثل الاعتقاد الصحيح ، كما يمثل المنهج العملى السليم. ولذا كان التعقيب فى هذه الآية بقوله : « ... وكان فضل الله عليك عظيما » . لأن الجمع فى الوحى إلى رسول من الرسل : بين العقيدة ، والشريعة .. يعبر عن ميزة الرسول وفضله بين الرسل .

وكذا قوله تعالى فى سورة البقرة: «يؤتى الحكمة من يشاء ،ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » (١) .. بعد تلك الآيات التى أوصت بالإنفاق فى سبيل الله : ابتداء من قوله : «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة .. إلى قوله .. الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » (٢) .. فان الحكمة هنا أقرب إلى المنهج العملى فى السلوك . لأن الإنفاق سبيل وطريق عملى فى الحياة.

وعلى هذا النحو ماجاء فى قصة داود فى قوله : « وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك ، والحكمة ، وعلمه مما يشاء » (٣) . . فالحكمة التى أعطيها داود من قبل الله هى: الأخلاق والسلوك المستقيم . فقد عرف عنه أنه كان ذا خلق كريم ، وذا شجاعة فى سبيل الإيمان بالله . ولذا انتصر فى القتال ضد الأشوريين لتخليص أسرى بنى إسرائيل لديهم . وقد كان أسرهم الأشوريون فى حرب معهم : أذلوهم ، واقتحموا عليهم ديارهم ، وهدموا ما كان لهم من حضارة مادية ومعابد ، وبينها هيكل سليمان ، وإلى هذه الهزيمة يشير القرآن الكريم فى سورة الإسراء :

---

(١) البقرة : ٢٥١ (٢) البقرة : ٢٦٩

(٣) البقرة : ٢٦١ — ٢٦٨

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً (أى لتطغون طغياناً ظاهراً) . فإذا جاء وعد أولهما (أى وعد عقاب الأولى) بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد (وربما يقصد القرآن الأشوريين هنا) فجاسوا خلال الديار (أى اقتحموها وهلكوا ما وجدوا فيها) وكان وعداً مفعولا »(١) (أى ناجزا ونافذا) .

وعلى هذا المعنى يحمل مفهوم : « الحكمة » — وهو معنى الشريعة أو المنهج العملى والأخلاق للسلوك — إذا جاءت كلمة الحكمة فى آية وحدها ، أو مقترنة مع كلمة : « الكتاب » . . على أن يقصد بالكتاب عندئذ : ما يحدد مضمون العقيدة . كما فى قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم : يتلو عليهم آياته (أى آيات الله التى يوحى بها إليه مما يشمل الشريعة ، والعقيدة معاً) ويعلمهم الكتاب (أى العقيدة) والحكمة (أى الشريعة وآداب السلوك) وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »(٢) .

وفيما يقوله جبريل — مبشرا مريم بعيسى المسيح عليه السلام — رداً على سؤالها : « قالت ربى : أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك ، الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . ويعلمه الكتاب (أى العقيدة) والحكمة (أى الشريعة) والتوراة والانجيل (أى ما يجمع الأمرين من عقيدة وشريعة) ورسولا إلى بنى إسرائيل »(٣) . . . وفيما يقوله جبريل هنا فى هذا الحوار : من : كتاب ، وحكمة . . لا يخرج معناها عما ذكر من قبل . وذكر التوراة والإنجيل بعد ذلك هو ذكر لما عرف عند بنى اسرائيل مما يعم العقيدة ، والشريعة .. تأكيداً بأن رسالة عيسى هى فى نطاق ما جاء به موسى من قبل . وبذلك تكون حجته فى بنى إسرائيل حجة واضحة .

---

(١) الاسراء : ٤ ، ٥ (٢) الجمعة : ٢ (٣) آل عمران : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

• **الكتاب المصدق :**

• يقول الله تعالى فى سورة الأحقاف :

« ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ،

« وهـذا كتاب مصدق ، لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا ، وبشرى للمحسنين »(١) :

• يذكر القرآن فى بيان حجتيه ، وأنه من عند الله ، بأن سبقه كتاب موسى عليه السلام — وهو التوراة — كشريعة ورحمة للمؤمنين ، أرسل به من قبل ربه . وما جاء فى القرآن هو على نحو ما فى كتاب موسى . فهو شريعة كذلك ، ورحمة للمؤمنين به . ولذا فهو مصدق له ، ولـكنه بلسان عربى .

وكتاب موسى كان معروفا وسبق الإيمان به . فاذا كان القرآن مساويا لما نزل فيه فليست هناك موانع تقف فى طريق الايمان به كذلك ، إلا إذا كانت موانع من : حرص على جاه أو زعامة ، أو من تأثر بتقاليد . وهذه موانع خارجة عن موضوعه .

وتوافق القرآن مع التوراة فى تفصيل رسالة الله ، كنظام لحياة الانسان ومنهج يسير عليه الإنسان فى سلوكه وفى علاقته بالآخرين ، إن كان حجة لصحة نزول القرآن والوحى به ، كما تهدف الآية ، فلا ينبغى أن يتخذ سبيلا — كما يروجه كثير من المستشرقين — لإدعاء : أنه لهذا التوافق : من تأليف الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، تأثر فيه بما لليهود من كتاب . إذ أن القرآن فى الوقت الذى يؤيد فيه ما نزل فى التوراة ، رسالة موسى ، يـكشف أيضاً عما اختلف اليهود فيه عن هذه الرسالة بما أضافوه ، أو حرفوه ، أو أولوه من أقوالها : « إن هذا القرآن يقص على

---

(١) الأحقاف : ١٢

بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون »[1] . وهو لهـــــذا معيار لرسالة الله فى ذاتها .

ولو أنه كان مؤلفا خاصا للرسول عليه الصلاة والسلام — كما يروجه هؤلاء المستشرقون — متأثرا فيه بما لليهود من دين ، لما كان فاصلا بين الحق فى ذاته ، وهو ما فى التوراة كرسالة لله على عهدى موسى .. وباطل بنى إسرائيل ، وهو ما أضافوه ، أو حرفوه ، أو أولوه واختلفوا فيه عن هذه الرسالة .

وكون القرآن مصدقا لكتاب موسى ، ثم حاكما لما اختلف فيه بنو اسرائيل . دليل صدقه هو فيما جاء به من عند الله . إذ كيف يتسنى للرسول عليه الصلاة والسلام — كمؤلف للقرآن ، حسب إدعاء هؤلاء المستشرقين ، وإدعاء السابقين من أهل الكتاب — أن يفصل فى تراث اليهود الدينى بين ما هو من قبل الله جاء به موسى ، وما صنعوه هم : إمالة برسالة الله إلى تمييز عنصرى لهم ، أو إلى تبرير مواقفهم من الأنبياء بعد موسى ، أو مواقف كبرائهم من ضعفائهم : فى إخراج بعضهم بعضا من ديارهم ، وحل سفك الدماء فى سبيل الإبقاء على زعامات خاصة ؟ .

• ومهمة القرآن — بعد كونه مصدقا لما سبقه من كتاب — هى مهمة الرسالة الإلهية فى كل عهد : أن ينذر به الرسول صلى الله عليه وسلم : الظالمين لأنفسهم برفضهم قبوله ، ويبشر به المحسنين لأنفسهم وفى سلوكهم الإنسانى على العموم الذى آمنوا به . . ينذر الظالمين بسوء جزائهم فى الدنيا والآخرة . ويبشر المحسنين المؤمنين بحسن جزائهم فى الدارين معاً ، كذلك .

فالظالمون الذين يعارضون قبول الإيمان بالقرآن هم أولئك الذين وقعوا — أو يقعون — تحت طغيان « المادية » فى حياتهم . ويخشون بالإيمان به فوات جاه

---

(١) النمل : ٧٦

مادى ، هو جاه الزعامة والرياسة ، أو فوات متعة مادية ، هى متعة ترفهم على حساب حرمان الضعفاء فيهم وشقائهم . فالقرآن : كل دعوته تتمثل فى العدل فى المبادلة والمعاملة ، وفى الإحسان فى الإعطاء أكثر من الأخذ . والعدل يشكل موازنة لا غبن فيها . والإحسان يعطى الدليل على إنسانية المحسن فى سلوكه مع الآخرين. وفى قبول دعوة القرآن تنازل عن الرياسات والزعامات التى تحصل لأصحاب الرياسة والزعامة : متعاً مادية ، وترفا ماديا ، على حساب الآخرين .

وقد جاء فى العهد الذى أخذه الله على بنى إسرائيل ، أن طلب إليهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة ، فيما تذكره الآية :

« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون »(١) .. طلب إليهم أن يستعينوا بالصبر فى عودتهم إلى الإيمان . لأن انتقالهم من وضعهم المادى فى الرياسة والمبالغة فى الاستمتاع بالمتع المادية .. إلى الإيمان بالاعتدال فى الاستمتاع بالدنيا وزينتها وعدم الإسراف فى طيباتها — وهو نتيجة الإيمان بالله — ليس من السهل أن تتحمله النفس البشرية العادية . ولذا لابد لها من فضيلة الصبر على ذلك . . كما طلب إليهم — فى هذه الآية كذلك — أن يستعينوا بالصلاة فى هذا الانتقال . لما فى الصلاة من اتصال مباشر بالله ، وبعد عن طغيان المادية .

وفى الوقت الذى يطلب القرآن إليهم الاستعانة بالصلاة .. يحكم على : أنها لكبيرة ، وعظيمة شاقة بالنسبة لأصحاب الرياسات ، لأنها دليل التحول بالفعل من المادية إلى الروحية . وهذا أمر يشق عليهم . أما الخاشعون الضعفاء فيهم ، الذين لا تسيطر المادية عليهم فلا ينكرون اليوم الآخر ، ويظنون أنهم مع ذلك ملاقوا ربهم ، فلا تكبر عليهم الصلاة ولا تشق عليهم . إذ تحولهم من وضعهم السابق .

---

(١) البقرة : ٤٥

إلى الوضع الجديد فى الإيمان بالله ، أيسر من تحول المستكبرين فيهم . لأنهم قد لا يخسرون ماديًا شيئا ، وإن هم خسروا شيئًا ، فقليل مايخسرون .

فهؤلاء الظالمون يكون القرآن إنذارا لهم بسقوط مجتمعاتهم ، أو بالانتقام منهم عن طريق الحاقدين عليهم فيها ، ثم بعقاب الله لهم فى آخرتهم . ومن أجل هذا الجزاء الأليم فى دنياهم ، وفى آخرتهم .. يتضح ظلمهم لأنفسهم .

أما المحسنون فالقرآن بشرى لهم ، بأنه لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فى دنياهم ، وفى آخرتهم على السواء . لأنهم لم يصنعوا سوءاً ، يضمر لهم غيرهم العداء بسببه فى دنياهم . ثم يجازيهم الله عليه فى لقائهم معه فى الآخرة جلت قدرته ، لأنهم أحسنوا أى أعطوا أكثر مما أخذوا . وبذلك كانوا يؤثرون غيرهم على أنفسهم . فلهم حسن السمعة فى الدنيا ، ورضاء الله فى الآخرة .

• الحق :

• مفهوم : « الحق » — حسبما ورد استعماله فى كثير من آيات القرآن الكريم — يراد به : ماينبغى ، ويجب أن يتحقق ، ويجب أن يكون فى واقع الأمر . لأنه فى وقوعه ترتبط به مصلحة عامة .

فإذا أطلق المولى على نفسه : الحق ، فى قول الله تعالى : « فذلكم الله ، ربكم الحق »[1] : فإنه يقصد بالحق فى وصفه سبحانه : ماينبغى ويجب ، أن يتحقق من ربوبيته وحده . وإذا استطردت الآية فذكرت : « فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ » فإنها تعنى : ليس هناك : بعد ما ينبغى أن يتحقق من ربوبية الله وحده .. إلا الضلال ، وهو مالا ينبغى أن يكون ويتحقق من ربوبية موجود آخر عداه .

وكذلك — فى مجال إقامة الحجة على المشركين الماديين — إذا قال القرآن

---

(١) يونس : ٣٢

مستفهما على سبيل الإنكار : «هل من شركائكم من يهدى إلى الحق»[1] .. فالمعنى : من يهدى إلى ما ينبغى أن يتحقق ، من صراط سوى فى السلوك ، ودليل صدق على الاعتقاد . ثم إذا جاء على أثر هذا الاستفهام الانكارى الذى يتضمن نفى : أن يكون أحد من الشركاء لله على استطاعة : من هداية من يعبده .. قوله تعالى : «قل الله يهدى إلى الحق» .. فالمقصود أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن يعلن : أن الله وحده — دون الشركاء له والأنداد التى يعتقد فيها المعارضون — هو الذى يملك الهداية لعباده . والنتيجة الآن بعد إعلان : أن الشركاء الذين يتوجه إليهم بالعبادة أولئكم المعارضون الماديون . . لايستطيعون هداية من يعبدونهم ، وبعد الإعلان كذلك : أن الله وحده هو الذى يملك الهداية لمن يعبده .. النتيجة هى : أن الذى يملك الهداية ينبغى أن تتحقق العبادة له ، دون ماسواه ممن لايقدر عليها ، وهو أولى بأن يتبع من غيره . وقد عبرت آية أخرى عن هذه النتيجة بقوله تعالى : «أفمن يهدى إلى الحق (أى إلى ماينبغى أن يتحقق من الهداية) أحق أن يتبع ، أم من لا يهدى (أى لا يملك بذاته الهداية) إلا أن يهدى (أى يهدى من غيره) ؟ وهذا استفهام أريد به إثبات التبعية لمن يملك الهداية ، ونفيها عمن ليست باستطاعته وفى مقدوره .

فكلمة : «الحق» فى هذه الآيات — وأمثالها كثير — تعطى أن المعنى منها : هو ماينبغى أن يقع ويتحقق ، وتترتب على وقوعه وتحققه مصلحة عامة . والمصلحة العامة التى تترتب هنا على وصف الله لنفسه بالحق ، فى قوله : «فذلكم الله ربكم الحق» .. هى أن قصر العبادة على الله وحده الذى ينبغى أن تتحقق ربوبيته ، دون غيره ممن يدعى : أنهم أنداداً له .. يحفظ على الناس كراماتهم ، فلا يذلون لمخلوق . كائن من كان — فضلا عن أن يذلوا لما هو دون الإنسان — فى العبادة

(٢) يونس : ٣٥

والطاعة. والإنسان بإنسانيته لا يوجد على هذه الأرض ليأكل، ويشرب، وينسل، كما هو شأن الحيوان: وإنما وجد ليؤمن بكرامته التي تتمثل في الإيمان بالله وحده، وليدافع عن هذه الكرامة في مواجهة محاولة غيره.. استعباده، وجعله تابعاً طيعاً لقاله.

وهذه هي عينها: المصلحة العامة التي تتوخى من التعبير بالحق — بمعنى ماينبغي أن يتحقق — في الآيات الأخرى هنا التي تقصر إمكان الهداية للبشر على الله وحده، دون مايدعى له من أنداد، وهي قوله تعالى: « قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق؟ قل: الله يهدى إلى الحق. أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى؟ » — هذه المصلحة العامة التي تترتب على وقوع مايجب هنا أن يقع، وعلى تحقق ماينبغي أن يتحقق: من التبعية والعبادة لله وحده، دون الشركاء والأنداد.. تكمن في محافظة الناس على مستواهم الإنساني، وعلى تميزهم في الخلق عما سواهم. ذلك التميز الذى يتمثل في عقل: الإنسان، وقلبه: وعبادة الأصنام، وعبادة ما دون الله في أية صورة تعبر عن سخرية بالعقل، والقلب في الإنسان العابد لما سواه جل جلاله.

• ومع بقاء مفهوم « الحق » في القرآن على معنى: ماينبغي ويجب أن يتحقق، فقد يقصد به، وبما ينبغي أن يتحقق.. القرآن نفسه خاصة. كما جاء في قوله تعالى: « ولما جاءهم الحق (أى ماينبغي أن يتحقق كسبيل للهداية وهو القرآن) قالوا: هذا سحر، وإنا به كافرون. وقالوا: لولا (أى هلا) أنزل هذا القرآن (وهو الحق في قوله: ولما جاءهم الحق) على رجل من القريتين (مكة — والطائف) عظيم؟ »[1]. وكما ذكر أيضاً في قول الله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا

---

(١) الزخرف: ٣٠/٣١

عدوى وعدوكم .. أولياء ، تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق (وهو القرآن)[1]. فما جاء فى الموضعين هنا ، من : إنكار المنكرين لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولما نزل عليه من وحى . . يوجه : أن المعنى .. بالحق هو القرآن ، ولكن مع استصحاب المعنى الأصيل للحق ، وهو : ماينبغى أن يتحقق ويجب أن يقع ، لا ما سواه .

● **الهداية للحق :**

يقول الله تعالى فى سورة الأحقاف :

«قالوا : ياقومنا !.. إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم »[2].

إن هذا القول جاء على لسان نفر من الجن . أى على لسان مجموعة غير معهودة من الناس ، أو مجموعة من الغرباء عن أهل مكة .

والجن معناه فى الأصل : القوة الخفية التى لا ترى ، أو القوة المستترة . ولكن أريد به هنا : المجهول غير المعهود ، أو الغريب . لأنه كذلك مستتر ، وبذا : كأنه لا يحس .

وهذا النفر من الجن الذى يوجه نداءه إلى قومه ، بعد أن عاد إليه ، هو ذلك النفر الذى طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام فى سورة : « الجن » أن يتحدث عنه ، فيما يقوله القرآن الكريم : « قل : أوحى إلى : أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا »[3]

---

(١) الممتحنة
(٢) الأحقاف : ٣٠ .
(٣) الجن : ١ ، ٢ .

وقد كان هـذا النفر على علم بكتاب موسى عليه السلام ، وهو التوراة . فعندما استمع إلى تلاوة القرآن الكريم ووجده متفقا مع التوراة كرسالة لله ، آمن به ، وآمن كذلك بأنه يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وأخذ على نفسه — من أجل إيمانه — مسئولية الدعوة إليه فى قومه . فكان نداء هذا النفر إياهم : « يا قومنا ! : أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » (١) .

ودعوة الداعى إلى الله هى الدعوة إلى عدم الشرك به ، وإلى قصر العبادة على الله وحده . كما جاءت فى تلك الآية فى سورة الجن : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » .

● وإيمان هذا النفر من الجن بالقرآن وبهدايته للناس ، وبرسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، دليل على ؛ أن الانسان لو تجرد من الهوى ، ومن حزبية الزعامة والرياسة ، ومن الحرص على المصلحة الشخصية ، فإنه لا بد أن يؤمن بهداية الحق ، ممثلة فى القرآن : كتاب الله .

وإذ يلفت القرآن الكريم نظر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى حادثة هـذا النفر الغريب ، فيما تقوله آية سابقة : « وإذ صرفنا إليك (أى وجهنا وأملنا إليك) نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا ؛ انصتوا ، فلما قضى (أى فلما انتهت تلاوته) ولوا إلى قومهم منذرين . (أى اتجهوا مسرعين نحو قومهم ، ومحذرين ، إياهم) .. إذ يلفت القرآن نظر الرسول عليه السلام إلى هذا الحادث ، فانه يريد أن يؤكد له ؛ أن معارضة المشركين من العرب فى مكة للقرآن ، ولرسالته ، ليست بسبب موضوعية الرسالة ، وما فيها من هداية للحق ،

---

(١) الاحقاف : ٣١ ، ٣٢

ومن توجيه انسانى كريم فى السلوك إلى الطريق المستقيم . بل لأسباب خارجة عن ذلك تماما . وهى أسباب تتصل بوضعهم الاجتماعى ، والأسرى ...

فمنزلتهم الاجتماعية هى منزلة الأشراف والأسياد ، هم أصحاب الزعامة فى قريش . ومنزلتهم كذلك : هى منزلة الذين يأمرون فيطاعون ، أن كرها أو طوعا . . منزلة الذين يفيدون أدبيا ، واقتصاديا من وضعهم الاجتماعى القائم .

ثم من الجانب الأسرى هم أقرباء للرسول عليه الصلاة والسلام . وهو لم يكن فيهم صاحب سطوة ، ولا ثراء ، ولا جاه . فكيف — إذا هم أطاعوه الآن — يوافقون باختيارهم على التنازل عن وضعهم الاجتماعى فى قريش ، ويخسرون بهذا التنازل منافع أدبية واقتصادية ؟ . وكيف هم — إذا أطاعوه الآن أيضاً — يسلمون له الريادة ، وينقلون إليه الجاه ، وربما الثراء كذلك (فى زعمهم) ؟ ، وهو من هو فيهم : عديم الجاه والسطوة ؟ .

إذ لو كانت « موضوعية » القرآن هى السبب فى معارضة مشركى مكة لرسالة الله ، لما أسرع هـذا النفر الغريب عن البيئة المكية ، والبعيد عن الجو القبلى فى الجزيرة إلى الإيمان به ، معتقدا : أن القرآن : مصدر هداية ورشد ، ثم لما تحمل مسئولية الدعوة إليه فى قومه ، والحرص على أن يجنبوهم الشرك ، ويعودوا بهم إلى الوحـــدة فى الألوهية والعبادة ، كى ينجوا بأنفسهم فى دنياهم وآخرتهم .

• أما كون القرآن هداية للحق ، فإن دعوته إلى « التوحيد » هى دعوة إلى الرشد الإنسانى ، والكرامة الانسانية . . هى دعوة إلى احتفاظ الانسان بمستواه الانسانى ، لا يسقط عن هذا المستوى إلى مستوى الطبائع الأخرى التى لم يهبها الله نعمة : السمع ، والبصر ، والفؤاد . إذ الدعوة إلى عبادة الله وحده ، من غير أن يشرك به ، تنطوى على طلب الحد من الأنانية ، وعلى عدم المبالغة فى

الاستمتاع بمتع الحياة المادية والاسراف فيها ، وعلى عدم النفاق ، والانتهازية ، والنفعية الرخيصة .

فالاتجاه بالعبادة إلى الله وحده معناه : عدم الخضوع للهوى .. عدم الخضوع لإغراء الاتجاه المادى . معناه : تمثل القيم العليا فى صفات الله ، والتقرب إليه بمحاكاتها فى تنمية الذات ، وفى التصرف ، والسلوك الإنسانى . فهو العليم ، والحكيم ، والخالق ، والقادر القوى ، والحى .. الخ . وعبادته عن طريق الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد فى سبيل الله ، هى : السعى نحو العلم ، والحكمة ، والإبداع والإتقان فى العمل ، والقدرة البدنية والذهنية ، والحياة ذات الفاعلية فى الوجود الإنسانى ، نحو التماسك ، والأخوة ، والمودة .

أن الدعوة إلى التوحيد وعدم الشرك دعوة إلى الروحية الإنسانية ، وتحذير من طغيان المادية . فالمادية فى طغيانها تحول الانسان من صاحب سمع ، وبصر ، وفؤاد ، إلى أصم ، أعمى ، ثم إلى ضال يجحد بالله وبآياته : « ولقد مكناهم فيما أن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا ، وأبصارا ، وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »(١).

• البينــة :

• يعبر القرآن الكريم باسم : البينة .. فى آياته عن : الحجة ، والدليل ، والأمارة التى يحملها الرسول — أى رسول — عليه الصلاة والسلام ، إلى الناس ، ويضعها موضع الاختبار فى الإيمان والكفر بالله .

فهو يقص قصة صالح إلى ثمود ، وما يحمله من أمارة الرسالة ، ويكون

---

(١) الأحقاف : ٢٦

تقبل هذه الأمارة علامة على الإيمان بالله ، بينما رفضها يكون دليلا على الكفر به ، فى قول الله تعالى : « وإلى ثمود آخاهم صالحا ، قال : ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم (أى حملت لكم حجةوأمارة على الرسالة من عند الله) : هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » [1] .. فالحجة التى أرسل بها صالح إلى ثمود من عند الله ، وتعتبر آية صدقه على الرسالة — وفى الوقت نفسه تعتبر مجالا لاختبار الإيمان والكفر فى قومه — هى : الناقة التى صحبها معه ، وطلب من قومه أن تأخذ قسطها فى الرعى فى المراعى والشرب من الآبار ، أسوة بأنعام الأغنياء وأرباب السطوة فى ثمود ، الذين احتجزوا الرعى فى الكلاء ، والشرب فى الآبار العامة لإبلهم وحدهم ، دون الفقراء والضعفاء . فإن تركوا ناقة صالح تفعل كما تفعل إبلهم كانوا عندئذ مؤمنين برسالة الله ، وهى رسالة : العدل والمساواة فى الحقوق بين الناس جميعاً : لا فرق بين كبير وصغير ، وبين قوى وضعيف . وإن هم منعوها من قسطها فى الرعى والشرب كانوا كافرين بالرسالة الإلهية ، وبقوا على عتوهم واستكبارهم فى الأرض ، واستحقوا من أجل ذلك .. عقاب الله . فناقة صالح هى بينة وحجة .. وهى دليل الإيمان والكفر .. وبها يعرف المؤمن بالله من الكافر به فى ثمود .

.. ويقص أيضاً قصة شعيب إلى أهل مدين على الجانب الشرقى من خليج العقبة ، وما أتى به أمارة الرسالة ودليل الإيمان والكفر بالله ، فيقول . « وإلى مدين أخاهم ، شعيبا ، قال يا قوم : أعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم (أى حجة ، وأمارة ، وشاهد على الايمان والكفر) : فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا الأرض بعد

(١) الاعراف : ٧٣

إصلاحها ، ذلكم خير لكم أن كنتم مؤمنين » (١) .. فبينة شعيب وحجته إلى قومه فى أهل مدين : كانت طلب الوفاء فى المعاملات التجارية .. طلب العدل وعدم بخس الناس أشياءهم فى الكيل والميزان في يتقوتون به .. كانت طلب الكف عن العبث والفساد فى استغلالها المال وانتهاز حاجة المحتاجين من الناس . فإن قبلت هذه الحجة وهذا الدليل على رسالة شعيب من أهل مدين كانوا مؤمنين به وبرسالته . وهذه البينة أو هذه الحجة مجال الاختبار فى الإيمان والكفر بالله . لأن الاستغلال السيء والضار للمال كان ظاهرة تسود مجتمع مدين ، وهو مجتمع تجارى كان يتعامل بالخصوص فى الحبوب المستوردة من مصر . ويختلف بذلك عن مجتمع ثمود الذى كان مجتمعا زراعيا يعيش على تربية الحيوان . والضرر الذى كان شائعا فى مجتمع ثمود هو الضرر الناشيء عن احتكار الزعماء والأقوياء فيه للمراعى العامة والآبار العامة للمياه لما يملكون وحدهم من أنعام ، دون بقية الناس . وهم سوادهم وكثرتهم من الفقراء والضعفاء .

.. ويقص كذلك قصة موسى مع فرعون وزملائه عندما جاءه ببينة من ربه ، ويشير القرآن إليها على سبيل الإجمال فى قول الله تعالى : « وقال موسى يافرعون : إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم (أى بحجة ودليل ومخبر على الإيمان والكفر بالله) ، فأرسل معى بنى إسرائيل » (١) .. وهنا أيضاً تختلف بينة موسى عن بينة صالح فى ثمود ، وبينة شعيب فى أهل مدين . لأن الظلم الشائع فى مجتمع فرعون وكبرائه وأعوانه لم يكن ظلما ناشئا عن إقطاع فى المراعى وآبار المياه ، ولا ناشئا عن استغلال سيء لرأس المال . بل كان ناشئا عن استعباد وإذلال لقوم هاجروا إلى مصر ودخلوا على

---

(١) الاعراف : ٨٥

(١) الاعراف : ١٠٥

أهلها ، وشاركوهم فى مجال الزراعة والتجارة ، واستقروا معهم عدة قرون على هذا النحو ، وهم قوم بنى إسرائيل . أى أولاد يعقوب من اليهود . أى كان قائما على التفرقة العنصرية وكانت من أجل ذلك بينة موسى إلى فرعون هى : طلب فك الحصار عنهم ، والإذن لهم بمغادرة مصر والعودة إلى مكانهم الذى هاجروا منه من قبل .. أى كانت بينة العمل على تحقيق الحرية السياسية .

وعن بينة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام يقول سبحانه : وهذا كتاب — أنزلناه — مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا (أيها المشركون) : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا (ويقصد بهما : اليهود والنصارى) وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب (أى بدلا من اليهود والنصارى من قبل) لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم (أى حجة وأمارة على الرسالة ، ومجال اختبار للإيمان والكفر بالله — ويقصد بها القرآن) وهدى ورحمة (أى ومع كون القرآن بينة على الرسالة فهو فى الوقت نفسه . كتاب هداية لسلوك المستقيم والعقيدة الصحيحة ، ورحمة فى الدنيا والآخرة لمن يؤمن به) » (٢) . . وكانت بينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحجته فى الرسالة ، ودليله على الإيمان والكفر . . تختلف عن سنة الرسل الآخرين قبله . ولأن الظاهرة التى كانت تسيطر على مجتمع مكة ومجتمع العرب بصفة عامة كانت ظاهرة الأسلوب والقول فى فصاحته وبيانه . ولذا كان أسلوب القرآن هو مجال الاختبار فى الإيمان والكفر لدى العرب عند بعثته عليه السلام .

والبينة إذا كانت حجة الرسول — أى رسول — فى رسالته .. فهى المدخل فى الوقت نفسه للإيمان بمضمون الرسالة كلها : وبالأخص إذا كانت رسالة عقيدة ،

---

(٢) الأنعام : ١٥٥ — ١٥٧

وشريعة معا ، كما : فى القرآن ، والتوراة قبله « قد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ، ورحمة » .. يعبر القرآن عن رسالته .

* **المثل :**

المثل فى القرآن : هو وصف فى مضمونه ، يقصد به التوضيح : « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »[1] .. أى لله جل شأنه الوصف الكامل فى الوجود كله : فى السموات والأرض .

• وقد يكون التوضيح عن طريق المثل — كوصف فى المعنى — ناشئا عن « شاهد » مما يجرى ويقع فى الحياة الإنسانية على هذه الأرض . نقرأ قول الله تعالى « مثلهم (أى مثل المنافقين) كمثل الذى استوقد نارا (أى أوقد وأشعل نارا) فلما أضاءت ما حوله .. ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون »[2] . فإذ يجعل القرآن المنافقين : فى إيمانهم أولا ، ثم فى عدولهم عن الإيمان بعد ذلك : نظراء من أشعل النار فأضاء ما حوله ، ثم لم يلبث أن أطفأها وعاد بنفسه إلى الظلام لا يبصر شيئا .. إنما يصفهم فى حقيقة الأمر : بالحيرة بعد الهداية ، وبالضلال بعد الرشد .

ونقرأ كذلك قول الله تعالى فى وصف من أعرض عن الإيمان بعد أن بلغته رسالته ، واتبع ماديات الحياة وحدها : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها (أى فلم يتبع هدايتها) فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها (أى ولو أراد الله هدايته عن طريق آياته — وهى قرآنه — ورفعه بهذه الهداية إلى المستوى الخالص فى الإنسانية .. لوفقه إلى اتباعها) ولكنه أخلد إلى الارض (أى ولكن بدلا من أن يتبع هداية الله فى كتابه وآياته .. مال وانجذب إلى الأرض . والميل إلى الأرض والانجذاب إليها كناية عن الرضاء بماديات الحياة

---

(١) الروم : ٢٧ (٢) البقرة : ١٧

وعن الاستغراق فيها وحدها) واتبع هواه (وبميله إلى الاستغراق فى ماديات الحياة وحدها . . اتبع هواه ولم يستطع السيطرة عليه) فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه (أى تضطهده) يلهث (أى يظهر القلق وعدم الرضاء) أو تتركه (أى بدون اضطهاد وتتبع) يلهث (أى يظهر القلق وعدم الرضاء كذلك) »[1] . . فتنظير من اتبع هواه من الناس وانجذب إلى ماديات الحياة وحدها : بالكلب فى قلقه وعدم رضاه على أية حال . . هو وصف للمتبع هواه فى واقع أمره بالقلق الدائم فى حياته : إن فى حال حصوله على ماديات الحياة فهو قلق عليها خشية ضياعها ، وإن فى حال عدم حصوله عليها فهو قلق بسبب تلهفه ورغبته فيها .

وكذلك إذا وقفنا عند قول القرآن الكريم : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا : كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض (أى فتشابك بسبب الماء . . النبات ، واختلط بعضه ببعض لفرط نموه) فأصبح هشيما تذروه الرياح (أى ثم بعد نموه وازدهاره وكثافته فى اتصال عيدانه بعضها ببعض . . أصبح هشيما بعد أن جفت عيدانه وخف وزنها ، تطير به الرياح من مكانه إلى أى مكان آخر) »[2] . . إذا وقفنا عند هذا القول نرى أن هذا المثل فى الآية يعمل فى وصف الحياة الدنيا : بأن ازدهارها هو ازدهار مؤقت ، يعقبه حتما : فناء لها . . وإلى أن المتعة بها كذلك هى متعة موقوتة وخادعة ، لا تلبث أن تزول كأن لم تغن بالأمس .

● وقد يكون الوصف الذى يقصد من المثل هو لتوضيح ادعاء ، لا يقوم عليه دليل فى نفس الأمر . كادعاءات المعارضين لرسالة القرآن من المشركين الماديين . فإذ نقرأ قوله تعالى فى كشف كذب المعارضين من هؤلاء : « وجعلوا له من عباده جزءا (أى نسبوا إلى الله فريقا مما خلق — وهم الملائكة — على أنها بنت له ، سبحانه) إن الانسان لكفور (أى إن شأن الطبيعة البشرية هو

---

(١) الأعراف : ٧٢ ، ٧٣ (٢) الكهف : ٥٤

الكفر ، لو تركت من غير إيمان وتوجيه) أم اتخذ مما يخلق بنات ، وأصفاكم بالبنين ؟ . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم (أى أنه سبحانه وتعالى لم يتخذ بنات مما خلقه ، وخصكم أنتم أيها المشركين الذين بالذكور من هذا الخلق . وكيف تنسبون إلى الله البنات وأنتم إذا أخبر أحدكم بمولود هو أنثى كره الحياة ونفر منها إلى أن يتخلص نهائيا مما ولد له ؟ إنه تناقض : أن ترضوا لله مالا ترضونه لأنفسكم ، فكيف يكون ربا وخالقا لكم ، وهو فى اعتباركم عندئذ أقل شأنا منكم ؟) »[1] . . إذ نقرأ هذه الآيات الثلاث نرى : أن الوصف عن طريق المثل الذى يرد على لسان المعارضين للقرآن — وهو تنظير الله جل شأنه بالإنسان فى نسبة الولد إليه وعلى الخصوص : الأنثى — يستهدف توضيح ادعاء من جانب هؤلاء المعارضين ، لا يثبت صدقه فى واقع الأمر . لأن مقتضى كون الله ربا فى نظرهم — إذ أنهم لا ينكرون ربوبيته ، وإنما فقط يشركون غيره معه فيها — : أن لا يكون أقل شأنا من أى واحد منهم . فإن هم لم يرضوا أن يبشروا بأنثى لهم ، فكيف ينسبون الملائكة له على أنها بناته ؟ .

وعلى هذا النحو قوله تعالى فى شأن القرآن : « وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (أى هلا نزل عليه دفعة واحدة ، ولم ينزل تباعا ومنجما) كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . (أى ولكن هكذا : نزلناه منجما وعلى مهل . . لتطمئن به نفسك) ، ولا يأتونك بمثل (أى لا يأتون بوصف يستهدفون به توضيحا لادعاء كاذب) إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً (أى إلا أوضحنا كذبه ووضعنا ما ينبغى أن يكون ويتحقق : موضعه) »[2] . ومن أجل استهداف المعارضين للقرآن من : « المثل » توضيح : ادعاء كاذب فى حقيقته .

---

(١) الزخرف : ١٥–١٧ (٢) الفرقان : ٣٢، ٣٣

قطع القرآن عليهم السبيل إلى ذلك ، بأن كشف فى جملة واحدة . . غايتهم من هذه الأمثال . ولذلك واجههم بالنهى عنها فى صورة عامة ، فقال : « فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٣) . . وكأنه قيل لهم : كفوا عن ضربكم الأمثال فقد بان كذبكم وتهافتكم فيها .

الآية — والنسخ :

الآية بمعنى الأمارة والدليل :

● تأتى « الآية » فى القرآن الكريم بمعنى : الأمارة ، والدليل ، أو البينة ، أو المثل . . فى صورة المفرد عادة . وهى إما آية نعمة ، أو نقمة . إذ بالنعمة والنقمة معا يكون اختبار الله سبحانه للانسان فى مواجهة رسالة أى رسول يأتى لقومه : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء (أى أخذناهم بالشدة والفقر) لعلهم يتضرعون (أى لعلهم يستسلمون فيؤمنون) . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟) أى فهلا خضعوا لله سبحانه وآمنوا به عندما ألمت بهم الفاقة والمذلة) ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (فلم يخضعوا ولم يؤمنوا تحت تأثير العادات والتقاليد والعنجهية فى الزعامة والاستكبار فى الأرض) فلما نسوا ما ذكروا به (أى فلما لم يعتبروا بأزمة الفاقة والمذلة لهم وأصبحت غير ذى تأثير عليهم) فتحنا عليهم أبواب كل شىء (أى غيرنا الوضع الذى كانوا فيه وأتينا لهم بنعم عديدة) حتى إذا فرحوا بما أوتوا انتقلوا بالفعل من وضع البأساء إلى وضع الرخاء ، والاستمتاع بهذه النعم ، وكانت مصدر فرح ومسرة لهم) أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (أى فاجأناهم بالعذاب وأصبحوا بذلك فى حزن ومذلة) . فقطع دابر القوم الذين ظلموا (وهكذا : انتهى أمرهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وغيرهم) والحمد لله رب العالمين (والثناء كل الثناء

---

(٣) النحل : ١٧٤.

رب الخلق أجمعين على أن أزال مصدر الفساد ، والعبث والمباشرة له ، افساحا لجيل آخر يؤمن بربه ويعمل من خلال انسانيته فيسعد نفسه بأن يطيع الله جل شأنه فيما يأمر به وفيما ينهى عنه) .

١ — فجاءت كلمة : الآية — فى صورة المفرد — بمعنى الأمارة والدلالة ، فى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له (أى بالإيمان بوحدته فى ألوهيته) بلدة طيبة ، ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم (فيضانا من المطار)، وبدلناهم بجنتيهم : جنتين ذواتى أكل خمط (أى من غير شهى) وائل (وهو نوع من الطرفاء) وشىء من سدر قليل (وهو شجر النبق) . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ؟ » (١) . وتوضيح قصة سبأ مذكور بكثير من التفصيل فى سورة النمل (٢) . وكانت سبأ قبيلة تسكن فيما يعرف الآن بحدود حضرموت ، على بعد خمسين ميلا من مدينة صنعاء . وكان على رأس هذه القبيلة ملكة تعرف باسم : بلقيس ، فيما قبل الميلاد بقرون عديدة . وكان للسد المشهور فيها المعروف باسم : «سد مأرب» .. أثر فى ازدهار شعب سبأ ، وفى حضارته ورفاهيته المادية . ومن هنا كانت الجنات ذات الثمار الحلوة المتنوعة . وكان هذا الشعب يعبد الشمس : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم (وهو شيطان الترف والقوة ، نتيجة الازدهار المادى) فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون» (٣) . وظل هذا الشعب يعبد الشمس بعد أن رفض دعوة سليمان إلى الإسلام فى رسالته التى قرأتها ملكته على وجهاء

---

(١) سبأ : ١٥ — ١٧ (٢) الآيات : ٢٠ — ٤٤

(٣) على لسان الهدهد فى سورة النمل : ٢٤

القوم فيهم وجاء فيها : « قالت : يا أيها الملأ : إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على ، وأتونى مسلمين » . . وبعد أن كان جواب هؤلاء الوجهاء متضمنا قولهم : « قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى :ماذا تأمرين »(١) . . فالآية ، أو الأمارة التى اختبر بها الله سبحانه وتعالى هنا : أهل سبأ فى أيمانهم . . كانت نعما مادية تمثلت فى تجميع أسباب الحياة الرغدة ، والبأس الشديد . فلما دعوا إلى الإسلام على لسان سليمان ورفضوا ، معتزين بما هم فيه من نعم ومخدوعين بها ، وتصوروا أنها لا تزول عنهم يوماً ما . . جاء عقاب الله لهم بزوالها وتحويل ما هم فيه من ترف ، إلى : هم ، ونكد ، وحزن .

٢ — وجاءت كلمة : آية — بمعنى الأمارة والدلالة أيضاً — فى قوله تعالى : « يا زكريا : إنا نبشرك بغلام اسمه : يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا . قال : رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ . قال : كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال : رب اجعل لى آية (دليلا وأمارة) ؟ قال : آيتك : أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا »(٢) . . ولا شك أن الآية هنا بمعنى الدلالة والشاهد ، وليست بمعنى الوحدة القرآنية .

٣ — وجاءت — كذلك — كلمة : آية ، بمعنى الدلالة والأمارة فى قوله تعالى : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ، وجعلناهم للناس آية ، واعتدنا للظالمين عذاباً أليما »(٣) . . فإغراق قوم نوح مع ولده فى فيضان إلتقى

---

(١) النمل : ٣٣ (٢) مريم : ٧ — ١٠
(٣) الفرقان : ٣٧

فيه ما. الأمطار بالماء المتفجر من الأرض ، كان آية نقمة من الله عليهم ، ودليلا على غضبه ، بعد أن رفضوا الإيمان واستعجلوا العذاب : « قالوا : يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا (أى من العذاب) إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين » [١].

٤ — كما جاءت — بهذا المعنى أيضاً — فى قوله جل شأنه : « وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آيه، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب أليم » [٢] . . فكانت الناقة فى تركها تأكل من كلأ الله وتشرب من مياه الآبار التى هى للجميع ، كما تأكل وتشرب أنعام المستكبرين ودوابهم ، دليلا وآية على الإيمان برسالة صالح من قومه . وهى : الإيمان بالله وتحقيق العدل والمساواة بين الناس جميعا فيما أحله الله لهم ، بحيث تزول آثار الطبقية بين من يعرفون : بالمستكبرين ، والآخرين الذين يلقبون : بالمستضعفين . ولكن الملأ من قوم صالح استكبروا وتعالوا على رسالته ، فعوقبوا من الله بزلزال هدم عليهم بيوتهم وأصبحوا جثثاً هامدة « قال الملأ الذين استكبروا من قومه (أى من قوم صالح) للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا . إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة (وفى عقرها منتهى العصيان) ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا (أى بالعذاب وعقاب الله) إن كنت من المرسلين . فأخذتهم

---

(٢) هود : ٣٢ ، ٣٣ (٣) الأعراف : ٧٣

الرجفة (أى الزلزال الشديد) فأصبحوا فى دارهم جاثمين »(١) .

٥ — وعلى هـذا النحو جاء قول الله تعالى : « وقال موسى : يا فرعون : إنى رسول من رب العالمين . حقيق على : أن لا أقول على الله إلا الحق (أى جدير بى أن لا أنقل عن الله إلا نقلا صادقا لا شبهة فيه) قد جئتكم ببينة (أى بشاهد ودلالة) من ربكم : فأرسل معى بنى إسرائيل (أى خلصهم من الأمر عندك ، واتركهم يعودوا معى إلى الأرض المباركة) . قال : إن كنت جئت بآية فأت بها أن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين »(٢) . فـآية موسى التى تدل على صحة رسالته ما ناقش به أهل مصر وتفوقه عليهم فى أمر ، هم عرفوا به ، وهو صنعة السحر .

٦ — وكذلك : جاءت الآية بمعنى الشاهد والدلالة والبينة فى قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم ، إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك ، إن كنت تقيا ؟ . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً (أى طاهراً) قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغياً ؟ . قال : كذلك ، قال ربك : هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا »(٣) . . فولادة عيسى عليه السلام من غير أب كان آية وأمارة للناس على أنه هداية لهم : بقدوته الحسنة ، ومثله الأعلى ، كما كان رحمة من ربه لهم ، إن هم اتبعوه وآمنوا بما أتى به من : النهى عن المنكرات والجرائم الاجتماعية ، وكذلك عن الغلو فى الاتجاه المادى والوقوع تحت طغيان المادية .

---

(١) الأعراف : ٧٥ — ٧٨
(٢) الأعراف : ١٠٤—١٠٨ (٣) مريم : ١٦—٢١

وفيما ذكر هنا من كل هذا : كانت « آية » — أى دلالة وأمارة — لسليمان مع سبأ ، ولزكريا ، ولنوح مع قومه ، ولصالح مع ثمود ، ولموسى مع فرعون ، ولعيسى مع بنى اسرائيل . وكانت آية كل منهم تختلف عن آية الآخر . وهى جميعها دلائل وشواهد مادية محسوسة . وعندما لم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم — عدا القرآن — بآية محسة للماديين والقرشين ، على نحو ما جاءت به الرسل السابقون . . تشككوا فى القرآن وعبروا عن تشككهم فيما يذكره القرآن عنهم بقوله : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية (أى أمارة ودلالة) كما أرسل الأولون » (١) . ولم يفلح معهم : أن القرآن قص عليهم آيات الرسل السابقة . وحتى لو جاء عليه السلام بآية على نحو ما جاءت به الرسل السابقة قبله فإنهم لن يصدقوا بما جاء به ، ولن يؤمنوا به : « ولقد ضربنا للناس (أى للقرشيين والمكيين الماديين) فى هذا القرآن من كل مثل (أى من كل آية مما جاءت به الرسل) ولئن جئتهم بآية (أى بآيه خاصة بك) ليقولن الذين كفروا . إن أنتم إلا مبطلون (أى إلا كاذبون) » (٢) . . رغم ما كانوا يطلبون . ولذا أرشد القرآن رسوله الكريم صلوات الله عليه بشأن هذه : « الآية » أن يحيل الأمر بشأنها الى الله جلت قدرته ، عندما يطلبها المعارضون منه ، وأن يكتفى بالقرآن كآية واضحة وضوح الشمس على اصطفائه للرسالة وعلى مضمون رسالته . « وإذا لم تأتهم بآية (أى بأمارة ودلالة محسوسة) قالوا : لولا اجتبيتها (أى هلا اصطفيتها واخترتها) ! قل : إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ، هذا بصائر من ربكم (أى هذا القرآن دلائل واضحة من ربكم

---

(١) الانبياء : ٥

(٢) الروم : ٥٨

على رسالتى) وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (أى وفى الوقت ذاته هو : هداية من الله لمن يؤمن به ، ورحمة له ، يحول دون سقوطه فى الدنيـــــا وعذابه فى الآخرة) » [1] . والقرآن إذن . آية الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، على رسالته . وهى تختلف عما كان للرسل قبله من آية . وذلك بتميزه بالهداية ، بجانب الأمارة والدلالة على الرسالة .

والشأن فى : « آية » الرسالة ، أنها تحمل الاقناع فى ذاتها ، لمن لا يبيت الـكفر بها قبل أن يراها ، ولمن هو غير واقع تحت تأثير زعامة أو وضع إجتماعى خاص ، أو تقاليد موروثة معينة . أما من شأنه ذلك فلا يقتنع بها إطلاقاً : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك (أى بالعذاب ، وهم الـكافرون) ، لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية (أى حتى ولو جاءتهم آية كل رسول وكذلك كل آية فى العالم الطبيعى الذى يعيش فيه الإنسان) حتى يروا العذاب الأليم (أى وذلك : إلى أن يروا العذاب القاسى عيانا وواقعا عليهم) » [2] . ولأن عدم الاقتنـاع بآية الرسالة شأن لمن هو مصر على الـكفر ، كان فى طبعه : الإنصراف عن آيات الله فى كونه ، ومع رسله : «سأصرف عن آياتى (أى سأحول عن دلائل وحدة الله دون أولئـكم) الذين يتـكبرون فى الأرض بغير الحق ، وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها (أى الذين من شأنهم أن لا يصدقوا بكل أمارة ودلالة على صحة رسالة الرسول ، أو على وحدة الله) وإن يروا سبيل الرشد (فى كتاب الله وعن طريق وحيه) لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى (وهو سبيل الشهوة والهوى ، أو سبيل المـادية والأنانية) يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا (أى أن صنيعهم هذا وموقفهم المحدد هنا : يرجع إلى إصرارهم على تـكذيب آيات الله التى يأتى بهـا الوحى لهداية البشر) وكانوا عنها غافلين (وكذلك يعود إلى غفلتهم عنها وعن

(١) الأعراف : ٢٠٣ (٢) يونس : ٩٦ ، ٩٧

عدم مراجعتها وعدم وعى ما فيها) »[1] .

وإرسال كل رسول بآية تؤيده لا لتكون دلالة للإقناع بصحة رسالته فحسب لمن يرسل إليهم . وإنما لتكون كذلك إنذاراً مستمراً لمن يأتى بعدهم ممن يخافون عذاب الآخرة . وهم أولئكم الذين آمنوا ، فيثبتون على إيمانهم : « وكذلك : أخذ ربك ، إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود »[2] .. بهذا يعقب القرآن على ما وقع لفرعون وملائه .. ولقوم شعيب . . وقوم لوط . . وثمود . . وعاد . . وقوم نوح .

وآية كل رسول لم يأت بها من عند نفسه . كما لم تكن دائماً متشابهة ، أو مكررة ، فعهود الرسل وأجيالهم كانت مختلفة . وكتبهم فى الإجمال والتفصيل كذلك كانت متنوعة ، وإن اتفقت جميعها على الدعوة إلى وحدة الألوهية ، وتجنب المادية بما لها من الشرك والوثنية : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية (أى ما عدا عيسى) وما كان لرسول أن يأتى بآية (أى بمعجزة ودلالة وأمارة على الرسالة) إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب (أى ولكل عهد من عهود الرسالة كتاب موحى به) . يمحو الله ما يشاء ويثبت (أى يمحو ويلغى من الدلائل والأمارات ، ويثبت بإعادتها) وعنده أم الكتاب (أى وعنده الأصل الذى لا يتغير وهو مشيئته وإرادته) »[3] .

وإذا كان لكل رسول : « آية » خاصة به فهناك أمارة عامة للتصديق بوحدة الله وبرسالته إلى خلقه . وهى تلك الآية الطبيعية التى يلمسها الإنسان فى حياته ومعيشته . . تلك الآية التى وقع بها الإعداد لحياته . بحيث يستطيع أن ينفذ

---

(١) الأعراف : ١٤٦ ، ١٤٧ (٢) هود : ١٠٢ ، ١٠٣
(٣) الرعد : ٣٨ ، ٣٩

منها إلى الله الخالق وحده ، كما يستطيع أن ينتفع بها فى مجال بقائه على هذه الأرض:
« وآية لهم : الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا ، فمنـــــه يأكلون .
وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره
وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت
الأرض ، ومن أنفسهم ؛ ومما لا يعلمون . وآية لهم : الليل ، نسلخ منه النهار فإذا
هم مظلمون . والشمس تجرى (أى وآية لهم كذلك) لمستقر لها ، ذلك تقدير
العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس
ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون . وآية
لهم : إنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن
نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ، ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين . وإذا
قيل لهم : إتقوا ما بين أيديهم (أى مما هو تى حاضركم من وثنية) وما خلفكم
(أى مما هو فى ماضيكم وماضى آبائكم من شرك ومادية) لعلكم ترحمون .
وما تأتيهم من آية (أى أمارة ودلالة) من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»(١).
فهنا يذكر القرآن الكريم أيضاً : آية ، فى صيغة المفرد . ولم يأت بالجمع إلا بعد
أن عدد ثلاثا منها : آية الأرض وما يخرج منها ، وآية المجموعة الشمسية وأثر
حركتها فى ضوء النهار وظلام الليل . وآية البحار وما تحمل من سفن . . كأنه
يحصيها ثانية فى إجمال عددها .

وهكذا : إذا خرج أسلوب القرآن عن صيغة المفرد فى ذكر : « الآية »
بمعنى : الأمارة والدلالة ، وهو الأسلوب الشائع والأغلب فيه .. إلى صيغة المثنى ،
أو الجمع : فانه يستهدف الكثرة فى عدد الأمارات ، بعد أن تكون كل واحدة منها
كافية ومستقلة فى تحقيق الهدف منها ، وهو : الدلالة . ولا يستهدف : أن الدلالة

---

(١) يس : ٣٣ — ٤٦

متوقفة آنئذ على مجموعها ، وكأن مجموعها مركب فى دلالته وأمارته ، بحيث تكون الواحدة من الآيات فيه بمثابة جزء فى الدلالة :

فإذا جاء تعبير القرآن فى قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا : عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا »(١) . فإذا جاء تعبير القرآن هنا بالمثنى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين » . . فلا يقصد : أن دلالة الليل والنهار على وحدانية الله سبحانه متوقفة عليهما معا كمركب من جزأين . بل أن كلا من من الليل آية ، والنهار آية ، . . كذلك ، تدل بمفردها على الهدف . فإذا ذكرا معا الآن كانا دليلين مستقلين ، وليسا جزأين فى دليل .

وكذلك فى قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتى بآية (أى بأمارة ودلالة) إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق ، وخسر هنالك المبطلون . الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ، ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ؟ »(١) .. وكذلك إذا جاء التعبير بالجمع هنا فى : « الآيات» بمعنى الأمارات والدلائل ، فإن جمعها وتعددها فى الدلالة .

وعلى هذا النحو قوله تعالى : «إن له فى السموات والأرض : لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة : آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح : آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله

---

(١) الاسراء : ١٢ (٢) غافر : ٧٨ — ٨١

وآياته يؤمنون ؟[1].

... وقوله : «إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض : لآيات لقوم يعقلون » [2].

... وقوله : « وإذ قلتم ياموسى : لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من : بقلها وقثائها ، وفومها ، وعدسها، وبصلها ، قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا ، فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانو يعتدون » [3] .. فبنوا إسرائيل كفروا بتخليصهم وتحريرهم من فرعون وملائه ، وكفروا بأنجائهم من الغرق فى البحر الأحمر فى عودتهم إلى أرض الله المباركة ، وكفروا باستخلافهم وتمكينهم من الإقامة فى هذه الأرض المباركة . كل نعمة من هذه النعم أمارة ودلالة تستوجب الشكر منهم بالإيمان بالله وحده والبقاء على هذا الإيمان . وفى عددها ما يحملهم أكثر على الإيمان والبقاء عليه. ولكن خرجوا عن طاعة الله : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ،ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

.. والآية بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة :

• وفى مقابل : « الآية » بمعنى الأمارة والدلالة فى القرآن الكريم يعبر

(١) الجاثيـة : ٣ ـ ٦ (٢) البقرة : ١٦٤

(٣) البقرة : ٦١

عنها عادة بصيغة الفرد : ترد « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة ، بصيغة الجمع عادة ، دون المفرد . نقرأ قول الله تعالى :

١ — «ألم . تلك آيات الكتاب الحكيم : هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » (١) .. وقوله :

٢ « وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس — أهل البيت — ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله ، والحكمة ، ان الله كان لطيفاً خبيراً » (٢) .. وقوله :

٣ — « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم ، وإسرائيل (وهو يعقوب) وممن هدينا واجتبينا (أى اصطفينا) إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » (٣) ..

٤ — وكذلك أنزلناه آيات بينات (أى القرآن) وأن الله يهدى من يريد » (٤) .. وقوله :

٥ — « سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات (أى من أحكام ومبادىء) لعلكم تذكرون » (٥) .. وقوله :

٦ — «طس . تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشر المؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » (٦) .. وقوله :

٧ — وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن

---

(١) لقمان : ١—٥ (٢) الاحزاب : ٣٣—٣٤ (٣) مريم : ٥٨ : ٥٩
(٤) الحج : ١٦ (٥) النور : ١ (٦) النمل : ١ — ٣

ظهيرا للكافرين (أى فلا تكونن سنداً للكافرين بعدم الحرص على الإيمان) . ولا يصدنك عن آيات الله ، بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى ربك، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون »[1] .. وقوله :

٨ — «وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب (أى من قبل : من اليهود والنصارى) يؤمنون به ومن هؤلاء (أى من المكيين القرشيين) من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم (وهم حفظة القرآن الكريم) وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه (أى أمارات ودلائل) قل : إنما الآيات (أى الدلائل والأمارات) عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم : إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة ، وذكرى لقوم يؤمنون » [2] .

فهذه الآيات جميعها — وغيرها — تعبر بصيغة الجمع عن : « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة . وذلك لأن الإقناع فى الإيمان مرتبط بمجموعة من آيات القرآن ، دون ارتباطه بآية واحدة منها . وهذا معناه : أن آية قرآنية واحدة فى السورة لا تقوم وحدها حجة على من يتخلف عن الإيمان بالله ، بينما الآية بمعنى الأمارة والدلالة تقوم بمفردها حجة على ذلك . لأنها تنطوى على كفاية الدليل والحجة فى ذاتها .

وإلى هنا : كان أسلوب القرآن الكريم فى تعبيره عن « الآية » بمعنى : الأمارة بصيغة المفرد ، وفى تعبيره عن الآية : بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة بصيغة

---

(١) القصص : ٨٦ — ٨٨ (٢) العنكبوت : ٤٧ — ٥١

الجمع .. يهدف فى التعبيرين إلى الحجة فى الاقناع . وعلى هذا الأساس : الآية بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة ، جزء فى مركب تتم به الحجية ، بينما الآية بمعنى الأمارة حجة مستقلة . ولذا عند ما يجعل الله سبحانه . القرآن ككل .. حجة الرسول وآيته على رسالته ، فى قوله : « هذا (أى القرآن) بصائر من ربكم (أى بينة وآية من ربكم) » .. عندما يجعله كله آية الرسول محمد عليه السلام ، لأن به كاملا يتم الاقناع وتبلغ الحجة شأنها . ومن ثم من يكفر به — بعد أن يقف عليه تاما — مسئول عن كفره به ، كمسئولية من يرى أمارة الرسول من ربه فيكفر بها .

فإذا خرج تعبير القرآن عن هذا الأغلب والسائد فى أسلوبه فعبر عن : « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة بصيغة المفرد ، كما جاء فى قوله : «وإذا بدلنا آية مكان آية (أى فى عهود الوحى المختلفة فأنزلنا فى القرآن آية تختلف عما أنزلناه فى التوراة مثلا) والله أعلم بما ينزله (أى والله واقف على حقيقته وحكمته. وهذا من شأنه أن يحول دون تغييره ممن سواه كرسول مثلا) قالوا : إنما أنت مفتر (أى واجه المعارضون من أهل الكتاب رسول الله بهذا التغيير واتهموه بالكذب على الله فيه) بل أكثرهم لا يعلمون (ولكن اتهام هؤلاء المعارضين هو اتهام باطل صادر ممن لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإن الله وحده صاحب الشأن) . قل : نزله روح القدس (وهو جبريل) من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ،وهدى وبشرى للمسلمين (أى أن هذا التغيير لم يكن من صنع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو وحى جاء به إليه رسول الوحى وهو جبريل . معبرا عن الحق. ومستهدفا به تيسير الحياة على المؤمنين ودفع الحرج عنهم فيها ، مما يجعلهم مطمئنين غير قلقين ، وحاملا لهم بشرى التوسعة عليهم برفع كثير من القيود التى فرضت على غيرهم من قبل ، كتلك التى فرضت على بنى اسرائيل فى طعامهم ، وفى

عملهم) »[1] . . إذا خرج تعبير القرآن عن السائد . . إلى نحو ما عبرت عنه هاتان الآيتان فى سورة النحل ، فالمقصود إلى توضيح : أنه ليس هناك فى الوجود — عدا الله جل شأنه — من يستطيع أن يغير فيما يوحى به فى عهود الوحى كلها ولو بالأقل القليل منه . وهذا الأقل القليل منههو الآية كوحدة قرآنية فى السورة.

ولم يزل يتردد اليوم — وربما غدا، كما تردد بالأمس على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام — : اتهام القرآن بالاختلاق . لأن بعضا مما جاء فيه . يختلف عما لدى أهل الكتاب فى كتابهم .

فيرمى بعض المستشرقين المسيحين : القرآن الكريم . بالتلفيق وبعدم الدقة، لأنه يصر على وحدة الألوهية ، بينما التثليث فى الألوهية قاعدة أصيلة لدى بعض المذاهب المسيحية ذات الأغلبية العددية .

ويرمى بعض اليهود . القرآن — كذلك — بالاختلاق ، عندما لا يحرم العمل يوم السبت كما يحرمه اليهود أنفسهم ، عندما جاء منع العمل فيه على عهد موسى ، اختبارا لإيمانهم ، على نحو ما يذكر القرآن : « ثم أوحينا إليك : أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين (وملة ابراهيم لم يمنع فيها العمل يوم السبت) • إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه (وهم بنوا اسرائيل) وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »[2] .

ولن يرضى اليهود والنصارى عن القرآن إلا إذا جاء طبقا لما هم عليه من ملة، ولم يكن مصححا لما اختلفوا فيه عن رسالة الإسلام منذ ابراهيم : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل : إن هدى الله هو الهدى ،

---

(١) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

(٢) النحل : ١٢٣ ، ١٢٤

ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من ولى ولا نصير » (١)

.. فقدسمى القرآن هنا : ما خرج فيه أهل الكتاب عن رسالة الإسلام .. هوى، فى مقابل ما يتصف به وحى الرسالة : من علم . ولذا كان تهديد القرآن هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم — إن لم يتبع الوحى الذى جاء إليه ، وركن إلى هوى أهل الكتاب فيما يشيعونه بينهم كملة ودين — : تهديدا عنيفا ، وهو : أنه ساعتئذ لا يجد من يسانده من صديق ، ولا ناصر .. عندما ينال جزاءه .

إن القرآن جاء ليعيد رسالة الإسلام منذ ابراهيم إلى وضعها الصحيح ، ويزيل ما طرأ عليها مما ليس منها . وهو حكم وفيصل على ماسبقه . والقرآن لذلك بالنسبة إلى التوراة — فى الوقت الذى هو مصدق لكثير مما جاء فيها — مبين فى ذات الوقت لمواطن الاختلاف فيما صنعه فيها بنوا إسرائيل عن الرسالة الإلهية : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل (أى يهوداً ومسيحين — فهم جميعا من بنى إسرائيل) أكثر الذى هم فيه يختلفون (أى عن كتاب الله ورسالة الإسلام : منذ ابراهيم . . إلى محمد عليهما السلام) وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » (٢) .

. . ونسخ الآية :

● والآن : إذ كان الشائع فى استعمال القرآن الكريم « للآية — بصيغة المفرد — أنه يقصد إلى الأمارة والدلالة ، التى تدل على صحة رسالة الرسول المرسل ، أو على وحدة الله جل شأنه فى ألوهيته ، وإذا كان الشائع فى استعماله

---

(١) البقرة : ١٢٠ .

(٢) النمل : ٧٦ ، ٧٧

« للآية » — بصيغة الجمع — أنه يقصد إلى الوحدة القرانية فى السورة . . إذا كان هذا وذاك ، فإنه إذ يقول : « ما ننسخ من آية (أى ما نلغى آية سبقت فلم نأت بها مرة أخرى) أو ننسها (أى نرجئها إلى وقت وعهد آخر) نأت بخير منها (أى فى الاقناع والحجة) أو مثلها (فى الدلالة والأمارة) ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير (أى أنه يستطيع تغيير الأمارة والدلالة من وقت إلى وقت) » (١)

. . إذ يقول ذلك يهدف : إلى أن أمارات الرسل ودلالتهم على صحة رسالتهم لا يلزم أن تكون كلها من نوع واحد، كالنوع المادى الذى كان لموسى ، ثم لعيسى بعده . بل قد تكون من نوع آخر : كالقرآن الذى كان معجزة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمارة على صحة رسالته . وهو خير فى الدلالة والحجية ، لا من حيث موضوعه فحسب ، ولكن كذلك من حيث أسلوبه الذى تحدى به العرب : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير » (٢) .

وإلغاء آية — أى أمارة من أمارات الرسالة — وإتيان آية أخرى مكانها ، انما هو فى محيط المشيئة الإلهية ، وعلى مستوى الرسالات جميعها على معنى أن أمارة سابقة يمكن أن تغير بأمارة أخرى لرسول بعده . والنسخ هنا ليس نسخ آية قرآنية فى كتاب الله الكريم — الذى هو القرآن — وإلغاءها، على أن تحل محلها فيه آية قرآنية أخرى ، تحمل حكما أو مبدأ ، مثلا . وإنما النسخ فى الأمارات والدلالات على رسالة الرسل ، كالتبديل فى آيات الأحكام فى الرسالة الإلهية على عهود الرسل المتعددين . . إنما هذا وذاك فى نطاق الوحى الإلهى ككل . وليس لرسول بعينه ، ولكن للرسل جميعا .

---

(١) البقرة :   (٢) الشورى : ٧

والآية فى قول الله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها ... » .. لو حملت افتراضا على الآية القرآنية فليس نسخها بأخرى فى محيط القرآن نفسه . وإنما فى محيط الوحى الإلهى جملة ، حسبما نزل على الرسل جميعا . وقد جاء فعلا فى القرآن بعض آيات الأحكام مما يخالف ما جاء فى التوراة قبله .

على أن الجو القرآنى لقوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » رغم أن التعبير بصيغة للفرد فى : « آية » هنا مما يرجح : أن « الآية » هى الأمارة — كما هو الاستعمال الشائع فى القرآن — رغم هذا فالتعقيب بقوله : « ألم تعلم : أن الله على كل شىء قدير . ألم تعلم : أن الله له ملك السموات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .. يزيد فى قوة .. هذا الترجيح . إذ تأكيد قدرة الله على كل شىء ، وعلى أنه وحده يملك السموات والأرض ، مما يناسب : « الآية » بمعنى الأمارة والمعجزة .

والأمر الذى يناسب : « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية فى السورة هو وصف الله بالعلم والحكمة ، كما جاء فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . فينسخ الله ما يلقى الشيطان (أى يبدله . وما يبدله يختص قطعا بهداية الله ، وليس بالأمارات والمعجزات) ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (١) .. فعقب هنا : بالعلم والحكمة ، بعد قوله : ثم يحكم الله آياته ، دون القدرة والاستطاعة . ثم كذلك ماجاء سابقا على قوله : « ما ننسخ من آية » : من قوله تعالى : « مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين : أن ينزل عليكم من خير من ربكم (أى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرآن كحجة وأمارة على اصطفائه للرسالة) والله يختص برحمته من يشاء (أى والله صاحب مشيئة واسعة فى اصطفائه للرسالة) والله ذو الفضل العظيم (فيما يكرم به من يختاره للرسالة)

---

(١) الحج : ٥٢

« . فالقضية هنا بين أهل الكتاب والمشركين من جانب ، والرسول عليه السلام من جانب آخر هي : قضية الرسالة والاصطفاء لها . ولا بد أن تكون هناك أمارة من الله دالة على هذا الاصطفاء لرسوله صلى الله عليه وسلم. فكان القرآن هو خير الأمارات له ، وهو الفضل العظيم من الله على رسوله .

وبهذا لا يدل قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها »: على وقوع نسخ في القرآن بين آياته القرآنية فتنسخ آية منه آية أخرى فيه . كما يتجه إلى ذلك بعض المفسرين الذين يقفون بتفسيرهم عند الألفاظ وحدها، مفككة بعضها عن بعض . ثم يحاولون أن يجعلوا من النسخ مشكلة يتخيلون لها حلولا ، أو يفتشون عن أمثلة لها ، أو يحاولون أن ينقلوها إلى قضية « علمية » فيدعون أن النسخ أما أن يكون نسخا للحكم والتلاوة معاً ، أو نسخا للحكم وحده دون التلاوة ، أو نسخا للتلاوة دون الحكم . ويذكرون على سبيل المثال لما نسخ حكمه ولم تنسخ تلاوته ، قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه : فدية : طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خيراً لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً ، أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون »[1] . . فيذكرون أن الصوم كان في بدء الإسلام : أمراً اختياريا ، بدليل قوله هنا : « وعلى الذين يطيقونه (أى يطيقون الصوم ويستطيعونه) فدية : طعام مسكين (أى لهم أن يفطروا ثم يخرجون فدية

(١) البقـرة : ١٨٣ — ١٨٥ .

وعوضا عن إفطارهم : مقدارها إطعام مسكين ، أى صاحب حاجة إلى الأكل والشرب ، لمدة يوم عن الشخص المفطر) » . ثم نسخ حكم الاختيار فى الصوم بقوله هنا بعد ذلك : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . . وأصبح الصوم بذلك عبادة واجبة .

هذا ما يقولوه أصحاب الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم . وقولهم هذا يرجع من الأسف إلى عدم وضوح القرآن فى تصورهم ، أكثر من رجوعه إلى القرآن فى آياته ، الذى وصفه سبحانه بقوله : « الر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير »(١) . . فيستحيل أن تكون آياته محكمة ، وأن يكون الذى تولى أمره هو الحكيم والخبير ، ومع ذلك : يكون هناك ناسخ ومنسوخ فيه . . أى هناك ما لا مدلول له من آياته ، مما نسخ حكمها .

إن الذين يقولون بالناسخ والمنسوخ فى آيات الصوم هنا على سبيل المثال ، يغفلون :

أولا : قول الله تعالى فى بداية هذه الآيات : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات » . . إذ هذه الآية تفرض الصوم كعبادة واجبة على الذين آمنوا بالإسلام ، منذ إيمانهم به : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام (أى فرض ووجب عليكم الصوم) » . ويتأكد هذا الوجوب عليهم بقوله : « كما كتب على الذين من قبلكم (أى كما فرض من الله فى رسالات الرسل السابقين على المؤمنين برسالاتهم) » . ووجوب الصوم لمدة مؤقتة : « أياما معدودات » . ثم جاءت آخر آية فى آيات الصوم هنا ، وهى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . . . إلى قوله : فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . . جاءت هذه الآية الأخيرة لتحدد الأيام المعدودات

(١) هـود : ١

السابقة : بشهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . وقول الله فى هذه الآية : فمن شهد منكم الشهر فليصمه . . ينصب وجوب الصوم فيها على الشهر ، وليس على أصل الصوم ، الذى فرغ الآن من فرضه بقوله الأول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » .

ثانياً : يغفل : أن قول الله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » . . مرتبط بالترخيص للمرضى والمسافرين بالإفطار فى قوله : « فمن كان منكم مريضا ، أو على سفر فعدة من أيام أخر (أى فيرخص للمريض أو المسافر بالإفطار مع إعادة الصوم فى وقت آخر يكون فيه أكثر تحملا) » . والمعنى أن المرضى والمسافرين يرخص لهم فى أيام الصوم — وهى أيام رمضان هنا — أن يفطروا ، على أن يعيدوا صوم الأيام التى أفطروها . إذ شأن المرض والسفر أن يجعل من فرض الصوم فى حالة أى منهما أمراً شاقاً والله يريد اليسر ، ولا يريد بالمؤمنين العسر . ولكن إذا كان المريض فى مرضه والمسافر فى سفره يستطيع الصوم ومع ذلك يفطر ، فعليه بجانب الإعادة : فدية طعام المسكين : « وعلى الذين يطيقونه (أى على الذين يستطيعون الصوم من المرضى والمسافرين) فدية : طعام مسكين (أى لهم أن يستخدموا ترخيص الإفطار لهم فيفطرون . ولكن عليهم عندئذ فدية طعام مسكين ، وذلك بجانب الإعادة) » . وتكون الفدية حينئذ فى مقابل الإفطار مع القدرة على الصوم ، وتكون الإعادة لإفطار الأيام التى أفطر فيها المريض أو المسافر : « فمن تطوع خيراً فهو خير له (أى ومن يزيد من المسافرين أو المرضى القادرين على الصوم ولم يصوموا ، عن فدية طعام مسكين واحد . . فهو خير فى ذاته ، ومحسوب عند الله) وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون (أى وأن تصوموا أيها القادرون من المرضى والمسافرين ، دون أن تفطروا فهو خير لكم من : الإفطار مع الإعادة ، وإخراج الفدية ، بل ومن الزيادة عليها) » . وبهذا لا يكون هنا ناسخ ومنسوخ فى الحكم ، دون التلاوة .

إن الذين يجعلون بين آيات القرآن ناسخا ومنسوخا : بعضها لبعض ، يقيس الله جل شأنه على الإنسان فى مراحل تفكيره . فالإنسان فى مراحل تفكيره يرى رأياً ، ثم «يبدو» له خلاف ما رأى أولا ، فيلغى رأيه الأول برأيه الثانى . ولكن الله جلت قدرته ليست لعلمه مراحل ولا لوجوده تطورات ، ولا لكماله درجات ومستويات . أنه الكمال المطلق فى كل صفة له ، وفى كل وقت . ولذا كان واحداً لا شريك له : فى ألوهيته ، واستحقاقه العبودية دون سواه .

والناسخ والمنسوخ هو فى دائرة الرسالات الإلهية بعضها مع بعض . والله ينسخ ويلغى فى رسالة لرسول له — لحكمة يعلمها — : ما أمر وأوحى به فى رسالة سبقت ، سواء : أكان ما يلغيه أمارة ودلالة خاصة على صحة رسالة رسول معين ، أم كان حكما من : حل وحرمة فيما أوحى به إلى رسول آخر من الرسل .



إن معجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هى : قرآنه . وهو آيته وحجته على الرسالة . ولذا كان التعبير عنه بآيات الله ، فى الاستعمال الشائع فيه ، بصيغة الجمع . وقد نسخ الله بالقرآن ككل : باعتبار كونه معجزة .. آيات الرسل السابقين من الشواهد المادية والأمارات المختلفة .

والحلال والحرام فى القرآن يكون رسالة الإسلام التى اختير لها رسوله . وقد نسخ القرآن بما فيه من حلال وحرام ما يخالف حلاله وحرامه مما جاء فى التوراة . وكذلك ما جاء فى التوراة ينسخ ما يخالفها مما كان فى رسالة إبراهيم عليه السلام : « ثم أوحينا إليك : أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . فأمر القرآن لرسول الله محمد عليه السلام بالعدول عما جاء فى التوراة لموسى من تحريم العمل فى أيام السبت . . إلى ما كان فى رسالة إبراهيم من :

حل العمل فى السبت : هو نسخ لما فى التوراة فى هذا الشأن وبديل عنه .
وما جاء فى التوراة من تحريم العمل يوم السبت : هو نسخ لما كان فى ملة إبراهيم وبديل عنه .

فليس فى القرآن بين آياته : ناسخ ومنسوخ : حكما دون التلاوة ، ولا تلاوة دون الحكم ، ولا حكما وتلاوة معاً . وليس فى القرآن تبديل آية فيه بآية أخرى فيه ، كذلك .

وليس فى التوراة أيضاً : ناسخ ومنسوخ ، ولا تبديل فى آياتها : بعضها ببعض .

وكذلك الشأن فى رسالة إبراهيم ، أو رسالة أى رسول آخر .

إنما الناسخ والمنسوخ ، وكذلك التبديل هو : إما فى أمارات الرسالات وبيناتها ، أو بين آيات رسالة وأحكامها ، وآيات رسالة أخرى وأحكامها ، كذلك: « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب (أى لكل عهد من عهود الرسالات كتاب ورسالة) يمحو الله مايشاء ويثبت (أى ينسخ ويبدل مايشاء من الآيات) وعنده أم الكتاب (أى إذ عنده أصل الكتاب المرسل وهو مشيئة الله وإرادته) »[1] .. فالتغيير الذى يقع فى موضوع الرسالات ، أو فى أمارات الرسل بها إنما هو من مصدر واحد : وهو مشيئة الله وحده .

ولذا لايعترض على رسول بهذا التغيير . إذ ليس هو من عنده أولا ، ثم ليس للمعترضين علم بحكمته : « وإذا بدلنا آية (أى فى رسالة لرسول كرسالة الرسول محمد عليه السلام) مكان آية (أى فى رسالة رسول سابق كرسالة موسى عليه السلام) والله أعلم بما ينزل ، قالوا (أى قال أهل الكتاب لرسولنا صلى الله عليه

---

(١) الرعد : ٣٨ : ٣٩

وسلم) : إنما أنت مفتر (أى مختلق فى هذا التبديل) بل أكثرهم لايعلمون . قل : نزله روح القدس من ربك بالحق (أى أن هـذا التغيير والتبديل جاء به جبريل وهو حق وصادق فيـه : أنه من لدنا) ليثبت الذين آمنوا وهـدى وبشرى للمسلمين »[1].

● **الايمـان بالله :**

● إن قضية الإيمان بالدين وبالله هى قضية « الجدية » وقضية الصدق فى إعلان قبول الدين ، وهو الإسلام . والإيمان هو المعيار فى الدين بين الجاد فيه ، وصاحب المنفعة منه .

والجاد فى الدين — أو المؤمن به — هو الذى يتوقع تحمل تبعات ومسئوليات فى : الأموال ، والأرواح فى سبيله : إن فى الدفاع عنه وفى وقايته ، وإن فى الاستمساك به والثبات على مبادئه .

وغير الجـاد فى الدين — أو غير المؤمن به ممن أعلن قبول له — هو من يتوقع منافع مادية من قبوله إياه ، بدل أن يبذل من : المال ، والنفس فى طريقه .

وعلى هذا الأساس جاء نفى القرآن لإيمان الأعراب ، بعد أن أعلنوا قبولهم الإسلام كدين ، حينما ادعوا إيمانهم به وجديتهم فى قبوله ، فيقول :

● « قالت الأعراب آمنا (أى أننا جادون وصادقون فى قبولنا الإسلام) ،

« قل : لم تؤمنوا ! (أى لم يظهر جدكم وصدقكم فى إسلامكم) ،

« ولـكن قولوا : أسلمنا (أى أننا أعلنا إسلامنا فحسب) ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم (أى ولم يترسب بعد الإعتقاد به فى نفوسكم) » .

« وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم (أى لاينقصكم) من أعمالـكم شيئاً ، إن « الله غفور رحيم ».

---

(١) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

• « إنما المؤمنون (أى الجادون والصادقون فى قبولهم الإسلام كدين) :

« الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ،

« وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ،

« أولئك هم الصادقون (أى فى الإيمان به) »[1] .. فنفى القرآن إيمان الأعراب فى قبولهم للإسلام كدين ، يعتمد على عدم وجود البوادر التى تدل فى ذلك الوقت على عدم جديتهم فيما أعلنوه من إسلام .

وهذه البوادر هى : المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله بالأموال ، والأنفس .. إذ قد كان الجهاد فى سبيل الله آنئذ ضرورة الوقت اللازمة ، للحفاظ على الإسلام وعلى الجماعة المسلمة : فى مواجهة التحدى السافر من الوثنية المادية المكية .. وفى مواجهة الدسائس التى كان يباشرها بعض الحقدين من أهل الكتاب فى المدينة .

ولذا كان رد القرآن على إدعاء الأعراب ، هو : قوله :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ،

« وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .. فذكر فى صفات المؤمن به والجادين فى قبوله : عدم التردد ، أو عدم الشك فى قبوله .. والإلتزام بنتائجه .. بالإضافة إلى مباشرة التضحية بالفعل : إما بالمال ، أو بالنفس فى سبيل وقايته وحماية المؤمنين به .

فما وقع من بعض المسلمين فى « أحد » مما عرض المسلمين جميعاً للهزيمة فى هذه الموقعة ، يميل به القرآن إلى كفر هذا البعض وعدم وجود الإيمان لديهم ، رغم إعلانهم الإسلام والوعد بالمشاركة فى القتال لو دعوا إليه :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان (جمع المشركين الوثنيين ، وجمع المسلمين فى « غزوة أحد) فبإذن الله ،

---

(١) الحجرات : ١٤ ، ١٥

« وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا ،
« وقيل لهم : تعالوا ! قاتلوا فى سبيل الله ، أو ادفعوا ! ،
« قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ،
« هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ،
« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون »[١] .. فقد أعلن هذا البعض قبول الإسلام دينا ، ووعد باتباع الأمر بالقتال عندما يدعى المسلمون إليه ، ومع ذلك عندما دعوا لم يؤازروا الرسول عليه الصلاة والسلام ولا البقية الأخرى من المؤمنين فى هذه الموقعة . ولذا كان إعلانهم الإسلام أشبه بالكفر به . إذ العبرة : بالجدية فى قبول الإسلام والصدق ، وليس بإعلانه شعاراً يرفع ليكون من ورائه الاستغلال والاحتراف .

• وكما لايدل إعلان قبول الإسلام على وجود الإيمان به فى نفس المعلن إياه، كذلك لايدل الكفر بالإسلام تحت الإكراه ، على عدم وجود الإيمان به فى قرارة نفس المكره . ومن أكره على الكفر بالإسلام — وقلبه مطمئن للإيمان به — لايجازى على إعلانه الكفر به . لأن للكفر فى واقع أمره : أمارة تدل عليه ، وهى : الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة واتباع الوثنية المادية . وهى ليست قائمة عند المكره على إعلان الكفر . يقول الله تعالى :

« من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن
« من شرح بالكفر صدراً ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .
« ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لايهدى القوم
« الكافرين »[٢] .. فقد استثنت الآية الأولى من هاتين الآيتين : من أكره

---

(١) آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ (٢) النحل ١٠٦ ، ١٠٧

على الكفر وهو على الإيمان فى حقيقة أمره ، من غضب الله ومن عذابه فى الآخرة وهو جزاء من كفر بالله بعد إيمانه . فاعلانه الكفر عندئذ لا يؤخذ منه مأخذ الجد فيه . وشأنه كمن يسلم ويعان قبوله للإسلام دينا ولا يأخذ قبوله إياه مأخذ الجد ، ومن هنا : من ينطق بشهادة أن : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » دون أن يتبع هذه الشهادة بجدية النطق بها وإعلانها ، بقبوله للتضحية فى سبيل ما أعلنه .. يكون أقرب للكفر منه للإيمان : «هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » .

● إن المؤمن لا يصرفه عن إيمانه ما يقع له من أحداث أليمة بسبب إيمانه ، ولا يرهبه حشد قوة الأعداء ضده :

« يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

١ — « الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا « منهم واتقوا أجر عظيم .

٢ — « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم ، فزادهم إيمانا ، « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »(١).

. . فالمؤمن على الحقيقة إذن لا يخشى كثرة العدو ، كما لا يخشى قوته ، ولا يرهب التعذيب والآلام فى سبيل إيمانه . وله فى ذلك أجره العظيم عند الله فى آخرته ، وله فضل العزة والكرامة والإنسانية فى دنياه : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

● إن المؤمن هو الذى إذا ذكر الله وجل قلبه ، وإذا تليت عليه آياته زادته إيمانا ..

(١) آل عمران : ١٧١ — ١٧٤

● وهو المتوكل والمعتمد على الله ،

● وهو الذى يقيم الصلاة وينفق من فضل الله عليه : « إنما المؤمنون :

« الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ،

« وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ،

« وعلى ربهم يتوكلون ،

« الذين يقيمون الصلاة ،

« ومما رزقناهم ينفقون .

« أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (١) .

وهكذا : الإيمان بدين الله هو إتباع مبادئه ، صدقا وعدلا . . . هو التضحية بالدنيا فى سبيل جزاء الآخرة . . والمؤمن هو الذى لا يستحب الحياة الدنيا على الآخرة .

● الشرك بالله :

● الإنسان فى مرحلة طفولته ينظر إلى مصلحة الذات وحدها . وحب الطفل لوالديه حب مصلحى ، أو حب أنانى : ينظر إلى الوالدين على أنهما مصدر الوقاية من الضرر ، أو مصدر النفع له . وبقدر ما يكون من استجابة أى من الوالدين لرغبات الطفل ، بقدر ما يميل الطفل ويتودد إلى الأكثر إستجابة من والديه .

والطفل . . . إلى مرحلة المراهقة لا يقدر والديه ، لأنهما أنجباه ، ولأنهما حدبان على رعايته ، ولأنهما قد يضطران إلى إرتكاب المشقة والعنت فى حياتهما فى سبيله . أى أنه لا يدرك معنى : الأبوة فى والده ، ولا معنى : الأمومة فى

(١) الأنفال : ٤

والدته . حتى إذا ما تودد إليهما ، يتودد تقديراً للأبوة فى ذاتها ، وتقديراً للأمومة فى ذاتها ، وليس لمصلحة ذاتية أنانية .

وهذه المصلحة الذاتية الأنانية قد تصحب الإنسان فى مراحل تطوره الأخرى — بعد مرحلة الطفولة — إلى سن الشيخوخة ، أو إلى ما قبلها بقليل . وتلازمه فى مواقفه ، وتصرفاته ، وليس قبل والديه فحسب ، وإنما كذلك فى عبادته ، إن عبد واتجه باحترامه إلى موجود غير ذاته .

والعبادة من إنسان ما ، لموجود ما ، لا تخرج عن توفير كامل الاحترام لمن يتجه إليه بالعبادة ، ولا عن إبعاد كل نقص أو شك فى القيمة العليا لمعبوده ، وبالأخص فى قدرة المعبود وإستطاعته .

● فإذا صحبت المصلحة الذاتية والأنانية ، الإنسان فى مراحل تطورة الأخرى ، فإنه لا يستقر بتوفير إحترامه أو بعبادته ، عند موجود معين . وإنما ينتقل بعبادته: من موجود إلى موجود ، حسب ما يرى ويطاب من مصالح ذاتية له . فإذا كان قد اتجه بعبادته إلى موجود خاص ، ثم رأى : أن هذا الموجود الخاص المعبود الآن لم يعد يستطيع : انجاز مصالحه الأنانية ، فإنه سرعان ما ينتقل بهذه العبادة — وما يتبعها من جو يحيط بها — إلى موجود خاص آخر ، يعتقد فيه : تفوقه فى الاستطاعة ، وفى الإمكانيات على قضاء المصالح الشخصية . وهكذا : عبادة من تسيطر عليه المصلحة الذاتية والأنانية ، هى عبادة متنقلة ، ومتعددة . وقد يكون معبوده إنسانا ، وقد يكون أدنى من الإنسان : حيوانا .. أو جماداً ، تصور فيه ، — أو اعتقد — قدرته على انجاز المصالح الشخصية .

ولكنه لا يسمو بعبادته واحترامه إلى ما فوق الإنسان ، وما دون الإنسان. لأن ارتباطه القوى بالمصلحة الذاتية والأنانية — وهى مصلحة فى طبيعتها : تتصل بالبدن وشهواته ، وبالأرض وما لها من زينة وما يخرج منها من طيبات ومتع

مادية — لاتجعله ينظر إلى ما فوق الإنسان ، والموجودات الأخرى الأرضية ، عند التفتيش عن موجود بينها يوفر له منتهى الإحترام والعبادة ، فى سبيل تحقيق المصلحة الذاتية . كالطفل الذى لايستطيع أن ينظر فى أبيه إلى معنى الأبوة ، وفى أمه إلى معنى الأمومة ، إن تودد إلى أيهما ، بغية قضاء مصلحة أنانية له . فهو لايستطيع أن ينظر إلى ما وراء شخص الأب من : معنى ، أو شخص الأم من : معنى ، أيضاً .

● والمشرك بالله هو ذلك الإنسان الذى لايستطيع — من وضع تطوره الشخصى — أن يتجه بعبادته إلى الله ، الذى هو فوق الموجودات الشخصية ، فلا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .. لايستطيع أن يتجه باحترامه الذى يبلغ نهايته ، إلى خالق الكون كله ، الذى تمثل صفاته جميع القيم العليا . تلك الصفات التى يجب أن يتقرب منها — عن طريق العبادة — كل من يريد لنفسه السمو فى مستوى حياته الإنسانية . فصفاته ، جل شأنه تمثل : العلم ، والقدرة ، والخلق ، والإبداع ، والإرادة ، والمشيئة ، والرحمة ، والشدة ، والحياة ، والبقاء ... إلى نهاية ما جاءت به آيات القرآن الكريم فى وصفه تعالى .

والشرك بالله هو فى حقيقة أمره — لذلك — انتقال بالعبادة وتوفير منتهى الاحترام ، من : الله تبارك اسمه .. إلى ماعداه : من موجودات أخرى — هى مخلوقة له — ترى وتشاهد فى حياة الإنسان .

وهدف من يشرك بالله : تحقيق المصالح الذاتية الأنانية وحدها . ومعبوده ليس واحداً . وإنما هو كثير ، حسب عدد المرات التى ينتقل فيها من واحد ، إلى آخر .

والمشرك بالله لايؤمن إذن بقيم عليا فى حياة الإنسان . فكفره بالله دليل عدم إيمانه بهذه القيم العليا . ويؤمن فقط بالمصلحية والأنانية ، كما يؤمن بطريق

النفاق والانتهازية . وهو : لايؤمن جانبه . إذ من شيمته : الغدر والخيانة . فهو يسلك مسلك الغدر والخيانة ، إن وجد فى أى منهما السبيل إلى تحقيق مصلحته الشخصية .

ومن أجل صفات الشرك ، وسلوك المشرك بالله فى حياته ، جاء وعد الله له فى قوله : « إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » . وأمارة المشرك هو ما جاء فى قوله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه ، إذا هم : يستبشرون »(١) . إنه لايؤمن بالله ، ولاباليوم الآخر . إنه يؤمن فقط بالمحسوس . وبالمنفعة الشخصية . وجاء فى وصف المشركين وتعلقهم بالمتع الدنيوية وارتباط سعيهم بالحصول عليها قول الله تعالى: « الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد»(٢) .

● ضلال المشركين :

● الشرك بالله أن يعبد الإنسان موجوداً آخر مع الله . قد يكون صنما من حجر ، وقد يكون بقعة معينة فى مكان ، وقد يكون مادة طبيعية من : رمال ، أو ماء ، أو نار ، وقد يكون حيوانا ، كما قد يكون إنسانا .

والمشرك إذ يعبد ويوفو الاحترام لغير الله يترقب منفعة أو دفع مضرة ، يكون قد حصل عليها صدفة بمروره بالحجر ، أو بالبقعة المعينة من المكان ، أو بالموجود الطبيعى من رمال ، أوماء ، أو نار ، أو يكون الحيوان الخاص أو الإنسان المعين قد أوصل إليه — صدفة — منفعة ، أو دفع عنه المضرة فى وقت كان هو بحاجة إلى الحصول على المنفعة أو الوقاية من المضرة .

(١) الزمر : ٤٥ . (٢) ابراهيم : ٢/٣ .

وعبادة المشرك هى عبادة لغاية مادية ، وترتبط من أجل ذلك بالحصول على أمر مادى ، وموقوتة أيضاً بالمنفعة المادية . فإذا لم تقع المنفعة المادية من معبود معين فى حياة المشرك ، أو لم يستمر وقوعها منه ، انتقل المشرك بعبادته واحترامه ، إلى كائن آخر يرجى منه النفع أو الوقاية من الضرر . وهكذا ينتقل بعبادته واحترامه من كائن ، إلى آخر ، سعيا وراء المنفعة أو الوقاية من ضرر مادى لأنه أنانى، يعنيه أولا وأخيراً : تحقيق أهداف الذات المادية .

والأنانى فى حصوله على منفعته المادية ، أو على وقايته من ضرر مادى ، لايهتم بمستوى من يظن : أنه يحقق له هدفه فى القيمة الذاتية :

أهو أدنى منه ، أم أعلى ؟

أهو له طبيعة الاستطاعة على الفعل أم لا ؟

أهو كائن أصم لايسمع وأعمى لايرى ، أم هو صاحب سمع ورؤية ولكنه لايستمر فى سمعه وبصره لتوقيت فى وجوده ؟ .

● ولاشك أن من يتقلب فى عبادته بين موجودات مختلفة فى مستوياتها فى القيمة يكون ضالا فى اتجاهه ، وحائراً فى تقديره . ولذا جاء تنديد الله سبحانه وتعالى بالمشركين إذ يقول :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له .. إلى يوم القيامة ،
« وهم عن دعائهم غافلون »[1] بعد قوله : « قل : أرأيتم ما تدعون من
« دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟
« آئتونى بكتاب من قبل هذا ؟ أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين؟ »[2] ..

فإذا كان مستوى المعبود لدى المشرك من الجمادات والطبائع التى لاتستجيب إطلاقاً لمن يناديها ويتوسل إليها ، ولاينتظر — حتى نهاية الحياة الدنيوية — أن

---

(١) الأحقاف : ٥ . (٢) الأحقاف : ٤ .

تستجيب لمن يدعوها ، فإن العابد له يكون أكثر ضلالا وحيرة ، ويسلك طريقاً هو أشد ظلاماً وحلكة . لأنه من جانب اتجه بعبادته اتجاها ماديا منفعيا منفعة مؤقتة ، ومن جانب آخر وقعت عبادته على من لا حياة فيه ، وعلى ما لا أمل ، ولا رجاء فيه .

وفى سبيل إلزام القرآن المشركين أصحاب هذا المستوى المنحط فى الشرك والعبادة ، بالحجة على تعمقهم فى الضلال والحيرة ، طلب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتحداهم بوجود أى أثر لفعل أصنامهم فى الأرض أو فى السماء ، فضلا عن أن يكون لهم أثر فى الهداية من قبل الله لتابعيهم : « قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ » .. أى أن ما تدعون من دون الله لاترون أثرا لوجودهم ، بغض النظر عن فاعليتهم : «أرونى : ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات؟» ... أى وليس هناك أثر لفاعليتهم فى الخلق ، إن فى الأرض ، أم فى السماء : «آئتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين ؟» .. أى وليس هناك كتاب من الله أنزل إليهم قبل هذا القرآن تستطيعون أن تدلوا عليه ، وليس هناك أيضاً أثر من آثار العلم يشهد بصدقكم فى صحة ادعائكم بشرك هذه الأصنام واستحقها للعبودية . فأنتم تشركون ما لا فاعلية له ، وما لم يقم الدليل لغيركم على أهليته فى الاحترام والعبادة . وبذا تحتقرون أنفسكم ، قبل أن تتجهوا باحترامكم وعبادتكم إلى ما لا يستحق الاحترام والعبادة فى ذاته .

• وسيظل المشرك فى تيه الضلال والحيرة ، عندما يشرك مع الله فى العبادة والاحترام كائنا حيا ، وليس صنما : حيوانا ، أو إنسانا . لأن مثل هذا الكائن الحى المعبود إن أتى بفائدة ما ، أو وقى من ضرر ما ، فإن ذلك محدود بحياته وقدرته - وهما أمران موقوتان . ولذا فحتما سيتجاوزهما العابد إلى غيرهما فى مستواهما أو فى أدنى منهما . وهكذا : لا يعرف اظلام الشرك نهاية فى طريقه . وهنا لاتشرق عليه هداية الله ، ولا يستقر هو فى طريق سوى مستقيم .

الكفر بالله :

● الكفر بالدين هو إنكاره : كلا أو بعضا ، وإنكار قيمه : جميعها أو بعض منها ، ووصف ما ينكر منه : بعدم الصلاحية فى الحياة . والكافرون بالدين نوعان :

● النوع الأول من أصحاب الوثنية المادية ، وممن غلب عليهم الاتجاه المادى فى حياته . وهؤلاء ينكرون الدين جملة وتفصيلا ، وهو دين الله ورسالته . وهذا النوع يصفه القرآن الكريم: بالمشركين، ويصف طريق انكارهم للدين «بالشرك». والشرك هو أيضاً اعتقاد فى غير الله ، وفى غير الرسالة التى نزلت على رسله . وأمارة طريقهم واتجاههم — كما جاءت فى آيات القرآن — هى :

(ا) أنهم يكفرون بوحدة الله ، ويؤمنون بالمعبودات العديدة من أشخاص الإنسان أو كائنات الوجود ، أو منظمات الحياة الاجتماعية : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير »[1] .

(ب) وأنهم يؤثرون الحياة الدنيا وحدها بما فيها من متع مادية ، ويسخرون فى الوقت نفسه من الذين آمنوا بالله وبالآخرة ونعيمها ، وراء هذه الدنيا : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا ، فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء (أى كافراً أو مؤمناً) بغير حساب »[2] .

(ج) وأنهم ينفقون أموالهم فى الصد عن سبيل الله ، وفى نشر الوثنية المادية ، وعبادة الأشخاص أو كائنات الوجود ، أو منظمات الحياة الاجتماعية : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون

(١) غافر : ١٢ .　　(٢) البقرة : ٢١٢ .

عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون»[1] .

(د) وأنهم ينكرون اليوم الآخر : « وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة . قل : بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »[2] .

(هـ) وأنهم يصفون الحق ، وهو دين الله ، بالخرافة مرة .. وبالسحر .. أو الكذب والخداع ، مرة أخرى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا : ما هذا إلا أفك مفترى وقال الذين كفروا (وهم هؤلاء) للحق (وهو القرآن) ، لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين »[3] .

(و) وأنهم يندون بالقرآن ، ويحرضون على اللغو وقول الزور فى شأنه : «وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه ، لعلكم تغلبون »[4] . وليس القرآن إلا ممثلا لرسالة الله ودينه . فهم كذلك ينكرون كل رسالة إلهية سبقته ، ويكفرون بما جاء فيها .

ودينهم هو ما يملى عليهم الاستمتاع بالدنيا ومتعها الحسية ، فى غير قيود من حل وحرمة ، وفى غير رعاية لحرمات الآخرين ، وفى بعد مطلق عن المقاييس الخلقية لأى مجتمع إنسانى .. هم : « الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » .

• والنوع الثانى ممن يكفر بدين الله ، هو : من يكفر ببعض الكتاب ويؤمن بالبعض منه .. يكفر ببعضه تحت تأثير الدنيا ومتعها ، ويؤمن بالبعض

---

(1) الأنفال : ٣٦ . (2) سبأ : ٣ .
(3) سبأ : ٤٣ . (4) فصلت : ٢٦ .

الآخر منه ، مساوقة للعادة ووراثة التقاليد فى المجتمع ، أو تجارة كذلك بالبقاء على الإيمان بما يؤمن به من قيم .

والقرآن الكريم يعطى مثلا لهذا النوع : الذين كفروا من بنى إسرائيل . فلم يؤمنوا ببعض ماجاء فى الدين ولم يطبقوه فى حياتهم ، تحت تأثير الدنيا ومتعها. فقد أخذ الله عليهم — فيما أنزله إليهم من رسالة موسى والنبيين بعده عليهم السلام وهو منزل كذلك فى قرآنه الكريم — الميثاق :

بأنهم أولا : لا يعبدون إلا الله وحده ، وبأنهم يسلكون مسلك الحسنى فى علاقتهم بأقربائهم وبالضعفاء منهم ، عملا وقولا ، وبأنهم من أجل أن يحققوا ذلك يجب عليهم أن يكونوا على صلة بربهم : بأداء الصلاة ، وعلى علاقة وثيقة بأصحاب الحاجة بينهم بأداء الزكاة . ولكنهم أعرضوا — إلا قليلا منهم — وتولوا عن ذلك . وهذا ما تذكره الآية :

« وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل :

١ — « لا تعبدون إلا الله »

٢ — « وبالوالدين إحسانا ، وذى القربى ، واليتامى ، والمساكين »

٣ — « وقولوا : للناس حسناً »

٤ — « وأقيموا الصلاة »

٥ — « وآتوا الزكاة »

« ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون »[1].

وبأنهم ثانياً . لا يرتكبون جرائم اجتماعية فيما بينهم فيقتلون بعضهم بعضا ، أو يخرجون بعضهم بعضا من ديارهم التى استقروا فيها . فبدلا من أن يمتنعوا عن اقتراف هذه الجرائم التى من شأنها أن تقوض المجتمع الإنسانى ، باشروا سفك

---

(١) البقرة : ٨٣ .

الدماء بغير حق ، كما باشروا إخراج الضعفاء من ديارهم بالإثم والعدوان . وزادوا على ذلك ، فاعتبروا بعضهم عدواً لبعض . وطالبوا بالفداء إن وقع ضعفاؤهم في أسر أقويائهم . وهذا ما تصوره الآيتان التاليتان :

« وإذ أخذنا ميثاقكم :

(ا) « لا تسفكون دماءكم ،

(ب) « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم (أى لا يخرج بعضكم بعضا من دياره) ،

« ثم أقررتم وأنتم تشهدون»[1] .

ثم أنتم هؤلاء :

« تقتلون أنفسكم (أى تقتلون بعضكم بعضا) ،

« وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان (أى

« تتحكمون فيهم آثمين معتدين) ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم (أى

« تطلبون الفداء كأنهم أعداء) وهو محرم عليكم إخراجهم ،

« أفتؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ »[2] .

ويرد القرآن كفرهم ببعض مبادىء دين الله إلى أنهم : رأوا الدنيا على أنها بديل عن الآخرة . ولذلك آثروها واتبعوا متعها فوقعوا فى الخزى فى حياتهم ، وعذاب الكفر فى الآخرة : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون »[3] .

والوقوع تحت تأثير المادية واتجاهها فى الحياة هو الذى يحول بعض المؤمنين

---

(١) البقرة : ٨٤ .   (٢) البقرة : ٨٥ .

(٣) البقرة : ٨٥ ، ٨٦ .

بدين الله فى أى وقت إلى كافرين به ، وهو الأمر الذى يحول أيضاً دون الإيمان بالقرآن كآخر رسالة للإنسان من قبل الله جل شأنه : « ولما جاءهم (أى جاء بنى إسرائيل من الماديين) كتاب من الله (وهو القرآن) مصدق لما معهم (وهو التوراة) ، وكانوا من قبل يستفتحون (أى يستنصرون) على الذين كفروا (أى من المشركين الماديين إذ كانوا يرونهم أعداء الله) فلما جاءهم ما عرفوا (وهو القرآن) كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين»[1] .

ولا تزال المادية باغرائها وفتنتها تلعب دوراً فى حياة الإنسان فى كل جيل من أجياله : الماضية ، والحاضرة ، والمقبلة . ومن أجل ذلك لا يزال الكفر باقياً فى عداوته للإيمان بالله ، ما بقى الإنسان على هذه الأرض : «ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه (أى فى شك من القرآن ودين الله) حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عظيم »[2] .

ولا تزال هناك ظلمات المادية ، ونور الهداية الإلهية ، طالما تتيح إرادة الله للإنسان الحياة فى دنياه : الله ولى الذين آمنوا ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[3] .

● **الصد عن سبيل الله :**

يقول الله تعالى :«الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم»[4] .

● ... لا يكفر بالله ، ولا يصد ويحول دون سبيل الله إلا صاحب الوثنية المادية ، وصاحب الشرك فى العبادة مع الله . والشرك بالله هو : أن يرفع المشرك

---

(١) البقرة : ٨٩ .　　(٢) الحج : ٥٥ .
(٣) البقرة : ٢٥٧ .　　(٤) محمد : ١

موجودات أخرى من : الطبيعة ، أو الإنسان ، أو قيم أخرى فى الوجود ، إلى مستوى الله فى الإجلال ، ثم فى الطاعة والخضوع له .

والشرك بالله هو أن يحوّل المشرك احترامه وعبادته ، وإجلاله ، وطاعته إلى الموجودات الأخرى ، التى هى عدا الله . وهذا معناه : أن يكفر أولا بالله ، وينكر وجوده ، وبالتالى : ينكر كل ما فى دين الله من حقائق غيبية : كاليوم الآخر ، والبعث ، والجزء ، ثم ثانياً يقيم معبودا آخر مما حوله أو فى محيطه المادى ، ويوفر له الاحترام ، وينسب إليه كل فعل فى الوجود من : الخلق . . إلى الأحياء . . والأفناء .

فالشرك عملية تعويض واستبدال . يتخلى المشرك فيها عن معبود ليضع بدله معبوداً آخر . وقد يضع غـــدا معبوداً جديداً ، بدلا مما وضعه وارتضاه ، وعبده اليوم .

والمشرك إذ يتخلى عن الله ـ أو يـكفر به ـ يتخلى عن المغيبات كلها ، وينزل مجال المحسوس والماديات فلا يرضى عن الله ، كما لا يرضى عن الملائـكة . ولا يرضى أيضاً عن الجنة ولا عن النار . فمعبود المشرك موجود محسوس ، وجنة المشرك هى فى دنياه . ويجوز على معبود المشرك : الضعف ، بل والموت . ولذا ـ أى هذا المعبود — : هو قابل لأن يستبدل به غيره ، أقوى أو أنفع منه ، على الأقل ، يوم أن يتوجه إليه المشرك بالعبادة والطاعة ، ويترك السابق .

● ولأن الشرك كفر بالله ، ثم إقامة بديل عنه فى هذا الوجود المادى ، كان من ظواهر المشرك : أن يصد عن سبيل الله بكل ما أوتى من قوة الحجة إن كان له منطق ، أو قوة السلطة أو التسلط ، إن كانت له غلبة وسيادة مادية .

والمشرك فى عملية «التحويل» — فى العبادة والطاعة أو فى مجال الأولوهية — يرقب المنفعة الشخصية المادية وحدها . ولذا هو : كثير التحول والانتقال من

معبود إلى آخر . هو وثنى ، ومعدد فى ألوهيته وعبادته ، حسبما توجد منفعته ويتحقق هواه .

والمشرك إذ يطرح الإيمان بالله . . يطرح القيم العليا والثبات عليها فى اتجاهه وسلوكه . وإذ ينزل مجال الشرك فى الإلوهية ينزل إلى مجال المنفعة المادية وحدها ولو تقرب للحصول عليها بما يعرّض حرمات الآخرين معه للانتهاك أو الضياع . وهى حرمات : النفس ، والمال ، والعرض .

والمشرك إذن أنانى . والأنانى هو من يعيش لذاته ، ويدور حولها فى الوجود: فى تفكيره ، وفى سعيه ، وفى تصرفاته . ولا يستهدف فى ذاته إلا هواه وشهوته . وهو يطيع لذلك الهوى والشهوة . وعمله ضال . لأنه لا يلتزم الخط المستقيم . وإنما يسير فى خط الهوى والشهوة حينما تدفع ، أو تجذب .

• وإذا كان الكفر بالله هو الخطوة الأولى للمشرك ، تتلوها خطوة إنكار المغيبات جميعها : من البعث . . إلى الجزاء فى الآخرة ، فإن الأمارة الظاهرة للشرك والواضحة فيه هى : التحدى لدين الله ، أو الصد عن سبيل الله . لأن النجاح فى التحدى لدين الله ، أو فى الصد عن سبيل الله ، إخلاء الطريق للهوى والشهوة ، ولتحقيق المنفعة الشخصية .

فالذى يعبد جاه الزعامة فى الدنيا ، أو يعبد السلطة أو التسلط على الآخرين ، ويقيم من هذه أو تلك معبوداً يوفر له الإجلال ـ بدلا من الله ـ فإن أمانه على بقاء معبوده وبقائه مستمتعا بعبادته ، مربوط بمحاربة دين الله ، وبالسخرية من كتاب الله . فسقوط دين الله فى كتاب الله سيتيح الفرصة للانطلاق له فى الاستمتاع بعبادة الزعامه والانتفاع بها ، أو بالسلطة واستغلالها .

ومن هنا كان « الملأ » ـ وهم النخبة ، أو الوجهاء والزعماء ـ فى قوم أى رسول أرسل من قبل الله ، هم أول المعارضين والصادين عن دين الله ، والمتحدين

لكل آية أو حجة يأتى بها الرسول ، ضماناً لبقائهم على عبادة الزعامة التى يمارسون خلالها امتيازات المستكبرين على المستضعفين فى المجتمع .

وللعداوة المتأصلة بين المشركين الوثنيين الماديين ودين . . الله ، وعد الله فى كتابه بعدم الغفران لهم ، رغم سعة رحمته ، إن هم ماتوا على الكفر : « إن الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا ، وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم »(١) . وذلك بالإضافة إلى أن مجتمعهم سيسقط حتما : « وكأى من قرية (أى مجتمع) هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك (وهو مجتمع المشركين بمكة) : أهلكناهم فلا ناصر لهم »(٢) . أى كثير من المجتمعات القوية حول الجزيرة العربية كمجتمع ثمود ، أو مدين التى كانت أكثر قوة من مجتمع مكة الذى تحداك وتحدى رسالتك بإخراجك منه ، عندما أوحى إليك بالهجرة إلى إلى يثرب . . سقطت وزالت إلى غير رجعة ، ولم يكن هناك من يدفع عنها ترديها وسقوطها . وذلك بسبب أنها اتبعت أهواءها ، وانصرفت عن دين الله . ولذا ضلت السبيل فى حياتها : « أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟ »(٣) . وإذا كانت نهاية الشرك — أو نهاية الوثنية المادية — هى تردى المشرك ، وسقوطه فى حياته بسبب سوء عمله ، فإن الشرك ذاته أمارة الضلال فى الاتجاه . وآيته الواضحة هى التصدى لدين الله .

● **الغيب :**

● « الغيب » : يرد فى بعض آيات القرآن الكريم مقابلا للمرئى والحاضر : يقول الله تعالى : « فالصالحات قانتات (أى فأمارة الزوجات الصالحات أن تكن مطيعات لأزواجهن) حافظات للغيب (كما تكن حافظات لشرفهم ، وعرضهم ،

---

(١) محمد : ٣٤ . (٢) محمد : ١٣ .
(٣) محمد : ١٤ .

وأموالهم وأسرارهم فى حال عدم وجودهم حاضرين معهم .. أى فى حال سفرهم مثلا وغيبتهم على العموم) بما حفظ الله (أى على نحو ما يوصى الله بحفظه)»[١] .. والغيبة بمعنى الحديث بما يسيء للإنسان فى عدم وجوده حاضرا .. مأخوذة من الغيب بهذا المعنى : أى غير المرئى والحاضر . وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب»[٢] .. ورد الغيب فيه كذلك بمعنى غير المرئى والحاضر . والمقصود من الآية : أن اختبار المؤمنين بالصيد المتمكنين منه فى الحرم بالأيدى أو بالرماح على السواء .. هو للوقوف على مدى طاعتهم لأمر الله الذى لا يرونه بأعينهم، وليس حاضرا معهم حضور عيان : « ليعلم الله من يخافه بالغيب (أى فى غير وجود مشاهد له بينهم) » ..

● ويرد فى بعض الآيات الأخرى مقابلا للأمر المعلوم أو الشائع ، على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك»[٣] .. إذ الاشارة هنا : ذلك .. هى إشارة لقصة مريم : فى ولادتها ، واصطفائها ، وطهرها ، ولقصة زكريا : فى كفالته لها ، وفى بشارة الله أياه بولده : يحيى ، كنبى مصدق رغم شيخوخة زكريا وكبره فى السن . فهذه الأنباء وقد مضت عليها عدة قرون كانت غير معروفة للرسول عليه الصلاة والسلام ، إلا عن طريق الوحى وحده . والغيب إذن الذى جاء فى الآية هنا هو مقابل للأمر المعلوم أو الشائع . ومثله ما جاء فى قوله تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه (أى ليس من المصلحة أن أن يترك الله المؤمنين على ما هم عليه من وضع : يختلط المنافقون بهم فيه وهم العناصر الخطرة على الإيمان وعلى الرسالة ، لما يظهرونه من إيمان ، ويخفونه من كفر بالرسالة وبغض المؤمنين بها ، وحقد عليهم) حتى يميز الخبيث من الطيب (أى

(١) النساء : ٣٤ .
(٢) المائدة : ٩٤ .
(٣) آل عمران : ٤٤ .

حتى يفصل بين الكافرين المنافقين .. والمؤمنين الصادقين ، ويخلصهم منهم. وذلك عن طريق الاختبار بالمساهمة فى قتال الأعداء . إذ القتال فى الميدان : هو وحده المحك لبيان إيمان المؤمن ، وكفر المنافق . وقد نزلت هذه الآية فى شأن غزوة: « أحد » وظهور تلكؤ المنافقين فى الذهاب إلى القتال ، أو فى انصرافهم عنه إلى جمع الأسلاب والغنائم ممن يفرون أو ينهزمون من جنود الأعداء) وما كان الله ليطلعكم على الغيب (أى وليس من المصلحة كذلك : أن يطلعكم الله — أيها المؤمنون — على ما ليس بمعلوم لكم فى مستقبلكم . لأن منه ما لو علم مقدما : يكون مصدراً للبلبلة والتفكك فيما بينكم، بل يجر إلى تخاذلكم) ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء (أى ولكن الطريق الأمثل لأعلامكم بما لم تعلموه فى مستقبلكم هو اختيار الله لرسول من رسله يوحى إليه تباعاً بأسرار المستقبل ويعلمكم بها أولا بأول) فآمنوا بالله ورسوله (وليس مطلوب منكم الآن سوى التصديق بالله واتباع رسوله . إذ فيه الضمان لتكتلكم ونجاحكم) »[1] .

• كما يرد مفهوم الغيب بمعنى السر فى نفوس الناس وصدورهم : «ألم يعلموا: أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب »[2] . فالغيوب جمع غيب . والمراد به هنا « سر » الناس فى مقابل نجواهم . والغيب على العموم : ضد الشاهد والحاضر : فى صدور الناس وفى نفوسهم .. فى مستقبل الناس ومصائرهم . . فى زوايا التاريخ البشرى أو فى عالم الكائنات غير البشرية .. فى عالم آخر غير عالم الدنيا .

• وعلم الغيب — بهذا كله — هو لله وحده لايشاركه فيه كائن من كان: من جن .. وأنس على السواء ، إلا من اختاره الله لرسالة من الناس فإنه يطلعه وحده عن طريق الوحى على غيبه الذى يريد أن يبلغه وينشره بين من يرسل إليهم:

(١) آل عمران : ١٧٩ . (٢) التوبة : ٧٨ .

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً (فى أى زمن ، ولأى كائن). إلا من ارتضى من رسول (أى من الملائكة يرسله بالوحى ، أو من البشر لتلقى الوحى وتبليغه للناس فيطلعه على غيبه) فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً (أى ومع كون غيب الله لا يطلع اطلاقاً عليه أحد إلا الرسول المختار فقط . . فإن الله جل شأنه يقيم رقابة مشددة حول هذا الرسول تمنع تسرب الغيب منه لأحد سواه : « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » .. وهذه الحراسة كناية عن الاحتياط القوى لمنع تسرب الغيب) . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم (أى يبقى هذا الاحتياط القوى مع الرسول لمنع تسرب الغيب منه حتى يبلغ ما أوحى به إلى من كان تبليغه أياهم . وعندئذ فقط يعلم غيب الله بين الناس) وأحاط بما لديهم، وأحصى كل شيء عدداً (وكذلك جاءت قدرته فى احتفاظه وحده بعلم الغيب وفى عدم سماحه للرسل بإفشائه قبل أن يبلغ للناس . . فإنه يحيط بادراكه وعلمه بما لدى هؤلاء الرسل من غيب ويحصيه جزئية ، بحيث يعرف مدى تبليغه وصحة ما بلغ به) »[1] .. وهذا منتهى ما يكون من الحرص فى حفظ الله للغيب الذى يختص به وحده .

ولتأكيد اختصاص الله وحده بعلم الغيب .. طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام : أن يعلن فى وضوح ، وأن يسجل أيضاً ذلك فى الكتاب الذى أوحى به : « قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله . ولا أعلم الغيب (أى ليس من صلاحيته أن يعلم الغيب ويذيعه ، كما كان يدعى كهان مكة بواسطة قوى خفية يدعى لها أن تسترق السمع) ولا أقول لكم : إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى »[2] : عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير »[3] .

---

(١) الجن : ٢٦ — ٢٨ . (٢) الانعام : ٥٠ .
(٣) الانعام : ٧٣ .

● النفاق :

بين فئات الناس — أو بين مجموعات المجتمع وفى صفوف الأمة — فريق من الأفراد ، لاهو إلى الإيمان ولا إلى الكفر بالمبادىء التى ينتسب إليها المجتمع. ومع ترددهم بين الإيمان والكفر فشرهم على من يصادقونهم أو على المجتمع .. أقسى بكثير من شر الأعداء الحقيقيين الصرحاء أو المكشوفين . رغم أنهم ضعفاء فى حقيقة أمرهم ، ورغم أنهم جبناء فى المواقف العلنية لهم .

هذا الفريق من الأفراد هو فريق المنافقين..هو فريق الانتهازيين والمنتفعين: يوجد فى السياسة ، ويوجد فى العلم ، ويوجد فى الدين ، ويوجد فى كل مجال توجد فيه قيم عليا ، ويوجد إيمان أو كفر بها .

● والنفاق فى الدين إذن هو عدم الجدية فى إعلان قبوله . هو إعلان قبول الإسلام كدين ، مع عدم الإيمان بتبعات هذا الإعلان . هو رفع شعار الإسلام ، دون أن يعتقد بمبادئه ، ودون أن يعمل بالتالى على تحقيق هذه المبادئ فى السلوك ، والفعل ، والتفكير .

وقد يبقى نفاق المنافق فترة طويلة غير معروف للآخرين معه فى مجال الحياة أو العمل فيها . لأن المنافق عادة : له من المقدرة على إخفاء ما يضمر على خلاف ما يعلن ، ما يتميز بهذه المقدرة على غيره .

والأزمات نفسها هى التى تكشف عن النفاق سواء أكانت أزمة مجتمع يعيش فيه المنافق ، أو أزمة صديق كان يعلن المنافق له الولاء والصداقة . وأمارة النفاق التى يذكرها القرآن هى :

أولا : تأكيد المنافق عادة : الولاء بحلف اليمين لمن يحالف له ، مع تبييته البغض والعداء : « إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد : إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد : إن المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جنة (أى

ستاراً) فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا (أى أعلنوا قبولهم للإسلام ديناً وعقيدة) ثم كفروا (أى ثم لم يؤمنوا فى حقيقة أمرهم) ، فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون »[1] .

... فمع كون المنافقين هنا يشهدون الله على إقرارهم برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهم فى حقيقة الأمر : يقفون فى طريق الدعوة إلى الإسلام وقوف الصاد لها والمصمم على منعها وانتشارها . ويتخذون من الإشهاد واليمين ستاراً يعملون من خلفه ضد الدين ، ذلك الدين الذى هم قد أعلنوا قبوله من قبل . وبذلك يكفرون بعد أن أعلنوا إسلامهم .

والمنافق بتأكيد ولائه بحلف اليمين يسلك مسلك التغرير والخداع لمن يحاف له ويظهر أنه يواليه . ومن شأن المؤمن على الحقيقة أن يرد هذا التغرير بعدم تصديقه لليمين . وفى هذا تقول آية أخرى : « يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم ، فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين »[2] .

فإعلان الله جل شأنه : أنه لايرضى عن الفاسقين — وهم الذين يكفرون بسلوكهم بعد إعلانهم قبول الدين — يشير إلى تحذير المؤمنين من الوقوع فى خداع المنافقين ، عندما يشهدون على أنفسهم بحلف اليمين : أنهم أولياء للمؤمنين، ولدينهم . ومثل اليمين على الولاء كثرة التردد والمجاملة ، والظهور بالطاعة التى لايصحبها نقد ما .

وثانياً : تحريض المنافق لعدو من أظهر له الصداقة ، أو أشهد على نفسه بالولاء له . لأن هذا المنافق دخل فى صداقة من صادقة أو فى ولاء من والاه:لاعن اعتقاد به ، وإنما لمنفعة خاصة منه . فهو يستهدف منفعة مادية ، أينما يجدها يقتنصها . فإن وجدها عند عدو من صادقه أو والاه ، فلكى يحصل عليها لديه

---

(١) المنافقون : ١ ـ ٣ .

(١) التوبة : ٩٦ .

فلا مانع من أن يكشف له : الصديق ويدله على نقاط الضعف ، أن وجدت في جانبه . أي لامانع لديه من الخيانة . إذ أنه في واقع الأمر لايفرق بين مسلك خلقي أو غير خلقي : في سبيل تحصيل المنفعة الشخصية .

يقول القرآن الكريم ، موجها الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب (وهم إخوان لهم في حقيقة الاعتقاد) : لئن أخرجتم (أي أكرهتم على الخروج من دياركم) لنخرجن معكم (أي مؤازرة لكم) ولا نطيع فيكم أحدا أبدا (أي لاندين بالطاعة لأحد من المسلمين الذين ننتسب نحن إليهم الآن في شأن ضدكم) وإن قوتلتم (أي وإن قاتلكم المؤمنون) لننصرنكم، والله يشهد: إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم (أي لايشتركون في القتال معهم لنصرهم) ولئن نصروهم (أي وإن اشتركوا في القتال معهم لنصرتهم) ليولن الأدبار (أي ليفرون من الميدان ويعودون من حيث أتوا) ثم لاينصرون (أي لايحرزون نصرا إن بقوا في ميدان القتال)»[1] .

ثالثاً : المنافق لايضحى اطلاقاً بمال أو بنفس في سبيل من أعلن له الصداقة ، أو في سبيل أعلن له الولاء من دين . إذ طالما يستهدف المنفعة الشخصية المادية من صداقة من يصادقه ، أو من ولاء ما يواليه ، فكيف يعطى من ماله أو من نفسه ، فضلا عن التضحية بهما بسبب الصداقة أو الولاء ؟؟ .

وهنا : الجهاد في سبيل الله كان — ولا يزال — هو المجال الفيصل في حقيقة الإعلان بقبول الإسلام دينا : أهو شعار يرفع للمنفعة ، أم هو تعبير عن « جدية » وعن إيمان ؟. وفي هذا يقول القرآن الكريم: « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا :

---

(١) الحشر : ١١ ، ١٢ .

لا تنفروا فى الحر (أى لا تخرجوا للقتال فى هذا الجو الحار) قل : نار جهنم (أى التى تنتظرهم بسبب تقاعدهم عن القتال) أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا (أى الآن فى الدنيا) وليبكوا كثيراً (أى فى الاخرة) جزاء بما كانوا يكسبون (أى بسبب اقترافهم جريمة التخلف وعدم المشاركة فى القتال »[(١)] .

● والمنافق بهذه الأمارات الثلاث :

تغرير من والاه وصادقه بتأكيد الولاء له ،

وتحريض عدوه ، ووعده بالمؤازرة ضده ،

وعدم التضحية بمال أو بمشاركة فى الدفاع عنه ، عند حلول أزمة أو شدة هو فى مجال الدين فاسق أو كافر بعد إعلانه الإسلام .. وفى مجال الصداقة لا يؤمن جانبه .. وعند الأزمات والشدة لا يعتمد عليه : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم (أى من المنافقين وهذه أمارتهم) فأستاذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ، ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون »[(٢)] .

● عباد الرحمن :

● يعد الله سبحانه وتعالى عباده الذين ينتسبون إليه بأن يرثوا الأرض ويمكنوا فيها . ووعده بذلك إياهم هو قضاء منه لا يختلف أبداً : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر (أى من بعد القرآن الكريم) : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن فى ذلك لبلاغا لقوم عابدين »[(٣)] .. وما كتبه الله جل جلاله فى القرآن فى هذا الشأن هو ما جاء فى قول الله تعالى : « وعد الله الذين

---

(١) التوبة : ٨١ ، ٨٢ . (٢) التوبة : ٨٣ .
(٣) الأنبياء : ١٠٥ ، ١٠٦

آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم»[1] .

• ويؤكد الله — كذلك — جل شأنه : أن عباده الذين ينتسبون إليه : هم فوق مستوى الإغراء ، مهما كانت درجة هذا الإغراء وأسلوبه . فالقرآن يخاطب الشيطان ، ويؤكد له : أنه ليس له أدنى تأثير على عباد الله ، فيما يقول له : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »[2] .. مهما باشر من أسلوب الحمل والإكراه على التأثير عليهم ، من : استخدام ألوان الأصوات ونداءات الدعاية ، وأنواع القوة المادية ، والمشاركة فى الأموال والأولاد ، والوعود الخادعة البراقة ، كما جاء فى تحدى الله له بقوله : « واستفزز من استطعت منهم (أى وأقلق من أمكنك إقلاقه من المؤمنين) بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا »[3] .

• وعباد الله هؤلاء الذين وعدوا بأنهم يرثون الأرض ، وهم فوق مستوى الإغراء بمتع الحياة المادية وجاهها ، والبعيدين عن التأثر بأساليب الحمل والإكراه .. هم عباد الرحمن الذين جاء وصفهم فى قول الله تعالى :

١ — « وعباد الرحمن : الذين يمشون على الأرض هونا (أى فى تواضع) ،

٢ — « وإذا خاطبهم الجاهلون (وهم أهل الوثنية المادية والشرك بالله ، كما جاء فى قول الله تعالى : « قل أفغير الله تأمرونى أعبد ، أيها الجاهلون .. إلى أن يقول : وما قدروا الله حق قدره »[4]) قالوا : سلاما (أى فيدركون عدم الجدوى من الدخول فى حديث مع الجاهلين . ولذا :

---

(١) النور : ٥٥ .
(٢) الاسراء : ٦٤ .
(٣) الاسراء : ٦٤ .
(٤) الزمر : ٦٥ — ٦٧ .

إن خاطبهم هؤلاء أجابوهم بما ينهى الكلام معهم فى سلام، وفى غير استمرار لنزاع أو لخصومة) ،

٣ — « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (أى يقيمون الصلاة فى سكون الليل وهدوئه) ،

٤ — « والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً. إنها ساءت مستقراً ومقاما .

٥ — « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان (أى الإنفاق) بين ذلك قواما .

٦ — « والذين لايدعون مع الله إلها آخر ،

٧ — « ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ،

٨ — « ولايزنون ... إلى أن يقول :

٩ — « والذين لايشهدون الزور ،

١٠ — « وإذا مروا باللغو (وهو الحديث غير الجدى ، أو النكت السخيفة ، أو المناظر التى تعرض ولامعنى لها) مروا كراما (أى محتفظين بجديتهم وكرامتهم) ،

١١ — « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صما وعميانا .

١٢ — « والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً »(١) ...

.. ووصف عباد الرحمن — بهذه الصفات كلها فى هذه الآيات — يرجع إلى أنواع ثلاثة :

أولا : بالنسبة إلى الله . ووصفهم فى هذا المجال هو : الإيمان بالله وحده . واتباع مايتلى من كتاب الله فى يقظة ، ومباشرة الصلاة أثناء الليل ، والدعاء له : بحسن

(١) الفرقان : ٦٣ — ٧٤ .

التوفيق فى الزوجات والأولاد فى الدنيا ، وتجنب العذاب فى الآخرة .

وثانياً : بالنسبة للسلوك : ووصفهم فى هذا الشأن هو : الامتناع عن مظاهر الكبرياء ، والاعتدال فى الإنفاق على الأسرة والأولاد ، وعدم ارتكاب أية جريمة اجتماعية من : قتل وتعذيب لنفس لها حرمتها عند الله ، واعتداء على عرض ، وشهادة زور ، مع الجد فى الحياة بالأعراض عن تافه الأمور ومخافات الطفولة البشرية .

وثالثاً : بالنسبة إلى الأعداء المتعنتين من الوثنيين الماديين . ووصفهم هنا هو: عدم التمادى فى خصومتهم ، وإنهاء مخاطبتهم بما يحفظ عليهم السلام .

وعباد الرحمن هؤلاء هم فى النهاية: الذين لا تغريهم فتنة مال أو جاه أو عصبية ، وهم الذين يمكنون وحدهم فى الأرض فى خلافة الله ، فى استقرار واطمئنان ، وعدم خوف ورهبة من أحد . وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

المستكبرون :

● يقول الله تعالى : «إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من طين. فإذا سويته ، ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا أبليس : استكبر ، وكان من الكافرين »[١] . . فوصف إبليس بأنه استكبر ، لأنه لم يطع ، وأصر على عدم طاعته فى أن يسجد لآدم . وعندما سئل عن إصراره على عدم الطاعة : « قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك »[٢] . . أجاب بقوله : « قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين»[٣] . وبذلك أخذ فى مفهوم الاستكبار : التعالى والغطرسة ، مع الإصرار على العصيان .

وعند ما وصف الله الملائكة بعدم الاستكبار فى قوله : « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دبة ، والملائكة وهم لا يستكبرون »[٤] . . أتبع

---

(١) سورة ص : ٧١ — ٧٤ . (٢،٣) الأعراف : ١٢ .
(٤) النحل : ٤٩ .

نفى الاستكبار عنهم هنا بقوله فى الآية التالية بعدها : « يخافون ربهم من فوقهم (أى يخشون الله وهو فى عليائه وهم دونه) ويفعلون ما يؤمرون (أى لا يعصون له أمراً ، فضلا عن أن يتمكن منهم العناد أو يصروا عليه) »(١) .. فأكمل وصفهم بالخشية من الله ، وامتثال أمره دائماً . وإكمال وصفهم بهذا وبذاك .. هو بمنزلة توضيح لعدم استكبارهم .

والاستكبار إذن ليس هو العصيان وعدم الطاعة فحسب .. وليس هو الكفر وعدم الإيمان فقط .. وإنما هو ذلك : التعالى والتحدى لما يكفر به المستكبر ويعصى فيه : « ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين »(٢) .

• والمستكبرون فى أى مجتمع هم من يعرفون « بالنخبة » .. هم الزعماء وأرباب الثروة ، والجاه ، فيه . ويعرفهم القرآن «بالملأ» عند ما يذكر : «قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا (أى مجتمعنا) أو لتعودن فى ملتنا (أى إلا إن عدت ومن آمن معك إلى ملتنا وعقيدتنا فى الشرك والوثنية — عندئذ لا نعرض لكم ، بإخراجكم ونفيكم من بيننا »(٣) . والمعنى : أن النخبة فى قوم شعيب تعالت فى إصرار عن الإيمان بدعوته ، ورفضت فى عتو وتحد أن تطيعه ، وهددته بنفيه ونفى من آمن به إلى خارج الديار .

والمصلحة الخاصة للزعماء وأرباب الجاه والثروة فى استكبارهم وتحديهم لدعوة الإيمان الجديدة .. هى فى المحافظة على الزعامة ، والإبقاء على الوضع الاجتماعى

---

(١) النحل : ٥٠ . (٢) الجاثية : ٧ — ٩ .
(٣) الأعراف : ٨٨ .

الذى يتميزون به بين قومهم . وهو وضع يمكنهم من الاستغلال عن طريق النفوذ .

● ولذا : يعتبر كخصيصة أساسية فى مفهوم المستكبرين : الإصرار على التحدى ولو باختلاق الأكاذيب ، لتشويه الدعوة الجديدة ، التى تحاول نقل المجتمع من وضع احتكار النفوذ والتسلط .. إلى وضع آخر ، يسود فيه العدل ، كما يسود فيه الاعتبار البشرى لكل فرد فيه ، بحيث لايميز واحد عن آخر بنسب ، أو ثروة ، أو جاه . وإنما يميز فقط : بالعمل من أجل صالح المجتمع كله .. من أجل خيره وحده .

وفى إبراز معنى التحدى القائم على اختلاق الأكاذيب يحكى الله عن المستكبرين المكيين ، وعن تحديهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فيما يقوله سبحانه : « إنهم إذا قيل لهم : لا إله إلا الله (وهو شعار الدعوة الجديدة) يستكبرون (أى يتعالون ويرفعون رؤوسهم تكبراً واستهزاء) ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ (أى كيف نقبل الدعوة الجديدة وهى دعوة الوحدة فى الألوهية ، ونعرض عن وثنيتنا التى تدعونا إلى عبادة آلهة عديدة ؟ إننا إن فعلنا ذلك كنا قد أطعنا إنساناً يعيش فى الخيال وفى بعد عن الواقع .. وليس بصحيح العقل ولا مستقيم التفكير .. إنسانا هو مجنون) »[1] فاتهامهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلى التوحيد : بأنه بعيد عن الواقع فيها ، ومجنون لا يستقيم منطقه .. هو أمارة استعلائهم وتكبرهم .. وأمارة المبالغة فى تحديهم ومعارضتهم .

ومن هنا كانت مواجهتهم يوم الجزاء بأنهم قوم مجرمون .. مواجهة معبرة عن قيمة موقفهم من الإيمان تعبيراً واضحاً ، على نحو ما تنطق به هذه الآية : « وأما الذين كفروا (أى فيقال لهم يوم الجزاء) : أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ،

(١) الصافات : ٣٥ ، ٣٦ .

فاستكبرتم (أى تعاليتم وترفعتم عن الإيمان بها فى تحد، وإصرار فى المعارضة) وكنتم قوماً مجرمين (فى تحديكم، وفى رفضكم لدعوة الإيمان، لأنكم سلكتم طريق الاعتداء: إما باختلاق الأكاذيب، وإما بالمكايد، والدسائس، والمؤامرات)»(١).

المستضعفون:

• إن كل مجتمع — بحكم الميول والطبائع البشرية المختلفة — ينزع إلى الانقسام إلى مجموعتين فى الجملة: مجموعة تمارس الضغط والنفوذ على مجموعة أخرى فيه: تقبل ممارسة الضغط وتنفعل به. والفرق بين مجتمع وآخر هو فى مدى سعة الدائرة للمجموعة التى تقبل الضغط من جانب، وبالتالى فى ضيق المجموعة الأخرى التى تمارسه من جانب آخر. فالفروق الفردية: فى الاستعدادات البشرية، وفى الطاقات على تحمل الأعباء والمسئوليات، وعلى إنجاز الغايات والمهام .. هى التى تحول دون أن يكون أفراد المجتمع فى أوضاع متساوية: فى إحداث الأثر، أو فى تقبله. وشعار المساواة الذى يرفع فى المجتمع يعنى به قبل أى شىء: المساواة فى الاعتبار البشرى والكرامة الإنسانية، بحيث لا يستذل ضعيف لقوى، ولا يفرق بين فرد وآخر فى نوعية الجريمة وفى عقابها، ولا فى النظرة إلى عمل الأفراد، حسب اعتبار آخر وراء الخصائص الإنسانية.

• وظاهرة النزوع فى المجتمع إلى أقوياء فى طاقاتهم واستعداداتهم .. وإلى من هم أقل منهم فى هذه الطاقات والاستعدادات .. قد تدفع بالأقوياء إلى الاستعلاء على من دونهم، وإلى ممارسة التأثير عليهم لصالحهم وحدهم. وعندئذ يكون وضع هؤلاء الذين هم أدنى فى الطاقات والاستعدادات وضع «المستضعفين».. أى وضع الذين يقبلون مذلة التأثير من الأقوياء، فى مجالات عديدة من مجالات العمل، أو الاعتقاد.

---

(١) الجاثية: ٣١.

فإذا أتى جيل فى المجتمع وورث عن أسلافه ممارسة الاستعلاء ، دون أن تكون لديه الميزة فى الطاقات والاستعدادات البشرية .. فإنه عندئذ يبدو الظلم واضحاً فى الاعتداء على المستضعفين . إذ قد يكون من بين هؤلاء المستضعفين الآن : من هو أحسن استعداداً من أفراد ذلك الجيل الذى يمارس الاستعلاء فى غير أهلية .

• وترد كلمة «المستضعفين» فى القرآن الكريم فى مقابل المستكبرين ،ويراد بها : ذلك الفريق فى المجتمع : الذى يقبل التأثير من غيره ، دون أن تكون لهذا الغير صلاحية طبيعية فى ممارسة الاستعلاء والتأثير عليه . وعندئذ يكون قبول التأثير تحت وهم ، أو تصور غير سليم . وفى الحوار الذى تعرضه هذه الآيات الثلاث الآتية يبدو معنى "المستضعف : أنه ذلك الذى يقبل التأثير من غيره ، دون أن يكون به ضعف حقيقى ، ودون أن تكون للآخر أهلية بشرية فى ممارسة التأثير . يقول الله تعالى(١) :

« وقال الذين كفروا (أى جميعاً ما بين مستكبر ومستضعف .. مابين ممارس للتأثير على غيره ، وقابل للأثر من غيره) : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه (من كتاب آخر : كالتوراة) ولو ترى (والخطاب موجه للرسول محمد عليه الصلاة والسلام) إذ الظالمون (والظالمون هم الكافرون ، واعتبروا : ظالمين،لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر) موقوفون عند ربهم (أى فى يوم الجزاء) : يرجع بعضهم إلى بعض .. القول (أى يحاور بعضهم بعضا) :

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا (أى يقول الذين قبلوا التأثير من غيرهم وقد مارسوا الاستعلاء عليهم) : لولا أنتم لكنا مؤمنين (أى أنكم أنتم أيها المستكبرون قد حلتم بتأثيركم علينا بيننا وبين الإيمان بالله) .

---

(١) سبأ : ٣١ — ٣٣ .

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا (أى فكان رد المستكبرين على المستضعفين قولهم) : أنحن صددناكم عن الهدى ، بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين. (أى نحن لم نمنعكم عن الهداية بعد أن بلغت اليكم ، وكان بإمكانكم ، أن تؤمنوا لو أردتم ، ولكن غلبت عليكم عوامل الفساد والإجرام تحت تأثركم بأهوائكم وشهواتكم . وبذلك لم نكن نحن فى وضع ذاتى يتيح لنا ممارسة التأثير) .

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليـــــل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً (أى وعلى حجة المستكبرين أعلن المستضعفون فى مواجهتهم : أن خداعهم المستمر الذى لم ينقطع ليلا ونهاراً ، ذلك الخداع الذى ينطوى على تشويه الإيمان بالله وحده ، والدعوة إلى الترغيب فى الشرك واتخاذ القرناء والأنداد لله — كان مبعث كفرنا وإجرامنا فى حق أنفسنا) وأسروا الندامة لما رأوا العذاب (ولكن إعلانهم ذلك فى مواجهة المستكبرين لم يعفهم من تحمل آثار مسئوليتهم الشخصية . ولذا أحسوا فى قرارة أنفسهم بالندم على كفرهم ، ووقوعهم فى شباك الخداع الذى باشره المستكبرون معهم فى المجتمع) .

« وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا (أى وعندما اتضح الآن أن المستضعفين خدعوا بوضع المستكبرين ، وكان بإمكانهم أن لا يطيعوهم فى خداعهم لأنهم لم يكونوا على قوة وصلاحية للتأثير بالفعل ، وإنما ورثوا ممارسة الإستعلاء ، عن أسلافهم ، دون أن تكون لهم طاقات وإستعدادات تسمح لهم بالممارسة الواقعية .. عندئذ طوّق الكافرون جميعاً : ما بين مستكبرين ومستضعفين ، بأغلال العذاب) .. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ (وكان جزاؤهم جميعاً طبقاً لأعمالهم وإصرارهم على الكفر) » .

.. فهذا الحوار الذى رسمته هذه الآيات : يحدد المستضعف بأنه ليس الضعيف بالفعل . وإنما هو الذى يقبل الأثر من غيره ، تحت وهم : أنه أقوى منه ، وهو

ليس بأقوى منه فى واقع الأمر . وإلا : فالضعيف بالفعل الذى يكره من غيره على الكفر — وهو فى قلبه مطمئن للإيمان — لا يجازى بكفره ، وإنما له جزاء إيمـانه .

● **الخاشعون :**

● الخاشع هو من يخضع لغيره ويتضاءل أمامه . وقد يكون الخشوع لله ، وقد يكون أيضاً لما سواه . وقد جاء التعبير بالخاشعين فى القرآن الكريم وصفا لمن خضعوا وتتضاءلوا أمام المولى جل جلاله فى قوله سبحانه : «وإن من أهل الكتاب (أى من اليهود والنصارى) لمن يؤمن بالله ، وما أنزل إليكم (يقصد القرآن) وما أنزل إليهم (أى من التوراة والإنجيل) خاشعين لله (أى خاضعين له متضائلين أمام عظمته ، يكادون لا يشعرون بوجود خاص لهم) لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا (أى لا يتاجرون بالهداية ولا بإعلان الحلال والحرام ويأخذون على ما يقولون أجراً تافهاً) »[1] .. وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون (أى خاضعون ، ولديهم الإحساس بضآلة أنفسهم ووجودهم أمام الله ، أثناء صلاتهم وتوجههم بالدعاء له) »[2] .

وجاء التعبير بالخاشعين — أيضاً فى القرآن الكريم — وصفاً لمن خضعوا لغير الله وتتضاءلوا فى مواجهة هذا الغير ، كوصفه لفريق الضعفاء فى مجتمع المستكبرين بالخضوع لمن يمارسون عليهم الاستعلاء والزعامة . وبسبب ضعفهم فى خضوعهم يخشون أن يعلنوا إيمانهم بالله وبالحق ، وبما يجب أن يكون عليه وضع المجتمع من المساواة فى الاعتبار البشرى بين الأفراد جميعاً . فقد جاء فى وصف مجتمع بنى إسرائيل على عهد من عهوده قوله تعالى : «أتأمرون الناس بالبر (والخطاب موجه إلى أحبارهم وعلمائهم وهم زعماؤهم وكبراؤهم) وتنسون أنفسكم (أى فلا

(١) آل عمران : ١٩٩ . (٢) المؤمنون : ١ ، ٢ .

تمارسون أنتم العمل طبقاً لما تنصحون وتوصون به أتباعكم من : الإيمان بالله وبما أنزل على رسله) وأنتم تتلون الكتاب (تفعلون ذلك : تأمرونهم بالإيمان وتغفلون أنفسكم ، فى حين أنكم أنتم تعرفون ما فى التوراة والإنجيل وتقرأون منهما على من تنصحونهم : ما يبشر برسالة الرسول . وهذا واضح فى التناقض) أفلا تعقلون ؟ (أى أليس لكم منطق .. وأليست لكم فطنة وحكمة تدركون معها : أنكم تناقضون أنفسكم فيما تقولون وتفعلون ؟) » . ثم بعد أن أقام الحجة على زعماء بنى إسرائيل من علمائهم وأحبارهم فى وقوفهم من رسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، موقف المتعنت والمتناقض ، حرصاً على مالهم من زعامة .. طلب إلى بنى إسرائيل جميعاً ، من مستكبرين ومستضعفين . . من زعماء وتابعين : أن يؤمنوا صدقاً وحقاً ، فقال لهم :«واستعينوا بالصبر والصلاة (أى استعينوا على انتقالكم من موقفكم الذى أنتم فيه من معارضة الإيمان فى أنفسكم برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام .. إلى الإيمان بها . . استعينوا على ذلك : بالصبر ، والصلاة . فبالصبر تجتازون الصعوبات النفسية ، وبالصلاة تتعودون على طاعة الله) وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين (وإن مباشرة الصلاة ستكون شاقة على الزعماء فيكم لأنها أمارة التحول من الكفر إلى الإيمان . وتحولهم عن كفرهم من أجل الحرص على زعامتهم ليس بالأمر الهين عليهم . ولكن مباشرة التحول من التابعين للزعماء — وهم الخاضعون والخاشعون لهم — ليس أمراً شاقاً على أنفسهم . لأن هؤلاء سوف لا يفقدون فى سبيل تحولهم إلى الإيمان ما يحرصون عليه ، كما هو شأن زعمائهم . فموقفهم قريب من الإيمان .. قريب من الإيمان بالله واليوم الآخر) . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون (أى فهؤلاء الخاشعون—وهم التابعون للزعماء فى مجتمعهم — ليسوا متعنتين فى كفرهم . بل هم على قرب من الإيمان . إذ يظنون أن مآلهم سينتهى بهم إلى اليوم الآخر وملاقاة ربهم يوم الجزاء .

ومن لاينكر اليوم الآخر لا ينكر الله والإيمان به)»[1]. فالخاشعون هنا هم أتباع الزعماء من العلماء والأحبار فى مجتمع بنى اسرائيل . . هم الذين يخضعون لهم ولا يشعرون بكيان وجودى خاص لهم أمام أمرهم ومشورتهم .

• وبعض المفسرين يحمل الخاشعين هنا على : المؤمنين بالله ، الخاضعين له والمتضائلين أمام عظمته . ولكن المؤمنون بالله من شأنهم أن يكونوا موقنين بالآخرة ، ولايظنون أنها آتية فحسب ، على نحو مافى قوله تعالى : «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون[2]» . فجاء هنا وفى وصف المؤمنين : أنهم يوقنون فى إيمانهم بيوم الجزاء وهو اليوم الأخر : « وبالآخرة هم يوقنون » .

وحمل هذا البعض من المفسرين : « الظن » فى قول الله تعالى : « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » . . على معنى اليقين : وكأن المعنى : الذين يوقنون أنهم ملاقو ربهم .. هو تكلف فى تفسير القرآن . لأن القرآن فى ألفاظه وتراكيبه يجب أن يحمل عليه غيره ، ولا ينبغى أن يحمل هو على مايراه الإنسان . فضلا عن أن مثل هذا التفسير يؤدى إلى فقدان وحدة الهدف التى انطوت عليها الآيات التى جاءت فى وصف مجتمع بنى إسرائيل .

فالقرآن يريد أن يحمل زعماء بنى إسرائيل تبعة مزدوجة فى عدم الإيمان برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى تبعة كفرهم هم ، وتبعة التأثير على التابعين لهم . إذ أن هؤلاء التابعين لو أبعدوا عن نفوذ زعمائهم لكانوا أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر ، ولظنوا : أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون . كما يريد

(١) البقرة : ٤٤ — ٤٦ .
(٢) البقرة : ٢ — ٤ .

أن يشير إلى أن المجتمع البشرى فى أى عهد : ينقسم إلى مجموعة تباشر التأثير — وهى قلة عادة ـ ومجموعة أخرى تتقبل الأثر ، وهى الكبيرة فى الغالب ، وهى الكافة والعامة . واتجاه المجتمع — ككل — إلى الإيمان ، أو إلى الكفر .. أى إلى الهداية ، أو إلى الضلال .. يرتبط فى الأكثر بموقف القلة المؤثرة ، دون الكثرة التابعة .

(ب) فى دائرة الرسالة .. والرسول :

• **الرسول :**

• الرسول المبعوث من قبل الله هو فرد من رجال البشر: يأكل ويشرب، ويتزوج وينسل، ويحيا ويموت: «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا (أى قبل الرسول: محمد عليه الصلاة والسلام) نوحى إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (أى فاسألوا أيها المشركون الماديون من أهل مكة: أهل الذكر والعلم، من أتباع موسى أو أتباع عيسى عليهما الصلاة والسلام، إن كنتم حقاً لا تعرفون: أن الرسل من الرجال ومن البشر، وليسوا من الملائكة) وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام (أى وما خلقنا لهم أبداناً تعيش بدون أكل، إنما هم يأكلون كما يأكل غيرهم من البشر: سواء) وما كانوا خالدين (أى وكذلك: يعرض لهم الموت كما يعرض لغيرهم من بنى الإنسان)»(1).. ويقول القرآن الكريم أيضاً: «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية»(2). فليست الرهبنة إذن: أصلا فى الرسالة، ولا الصوم عن الطعام والشراب — أمد الدهر — إن أمكن لإنسان ما — بسبب فى اختيار الرسول، وليس الرسول فوق مستوى ما يعرض للبشر، من: مرض ووفاة، وتتبع واضطهاد، وهزيمة ونصر، وشدة ويسر.

• وخاصة الرسول بعد ذلك: أنه مؤيد من قبل الله بأمارة تدل على صدقه فى رسالته: «وما كان لرسول أن يأتى بآية (أى بأمارة وشاهد يدل على صدقه فى رسالته) إلا بإذن الله، لكل أجل كتاب»(3)..

• وأنه يوحى إليه من قبل ربه، وأن رسالته هى الدعوة إلى عبادة الله وحده: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه: أنه لا إله إلا أنا،

---

(1) الأنبياء: ٧، ٨. (2) الرعد: ٣٨.
(3) الرعد: ٣٨.

فاعبدون »(١) .. والدعوة إلى عبادة الله وحده فى رسالة الرسول هى الأصل الذى يقوم عليه مجمل مبادىء الهداية فى الاعتقاد ، والتشريع . تلك المبادىء التى قد يكلف بها رسول من الرسل ، كما كلف موسى ، ومن بعده محمد عليهما الصلاة والسلام : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم : يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »(٢) .. فرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم أضافت إلى دعوة التوحيد فى الألوهية .. توجيهاً يقوم على تزكية النفوس وتطهيرها بهدايتها : إلى السبيل السوى فى السلوك ، وفى العلاقات ، وفى الصلة بالله . وذلك كله يتمثل فى جملة من المبادىء ، أتى بها الوحى فى القرآن الكريم .

• والرسول — كذلك — يأتى دائماً بلسان قومه ، حتى يستطيع توضيح دعوته لمن يرسل إليهم أول الأمر : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء (أى ليس جزءاً من رسالة أى رسول أن يحمل غيره على الهداية : ويكره الناس عليها . وإنما رسالته تكمن فقط : فى التوضيح لدعوته . أما هداية من يهتدى ، وكفر من يكفر : فيعود إلى مشيئة من يؤمن أو من يكفر أولا ، ثم إلى توفيق الله بعد ذلك لهدايته ، أو عدم توفيقه إلى ذلك ثانياً)»(٣) .. وقصر الرسول على أن تكون رسالته بلسان قومه .. لا يعنى عدم عموم دعوته للناس جميعاً . لأن عموم الدعوة يرتبط فقط بعموم المبادىء التى جاءت بها رسالته ، وليس بلسان الرسول الخاص . لأن الدعوة إذا وجدت مؤمنين بها فى قوم الرسول كان إيمانهم هو الكفيل — بجانب موضوعية المبادىء فى الرسالة — بنشرها وتعميمها .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .
(٢) البقرة : ١٥١ .
(٣) ابراهيم : ٤ .

● وصلاحية الرسول وأهليته هى إذن فى البيان والتوضيح . . فى البشارة والإنذار . وليست له سلطة جزاء ، من : ثواب وعقاب . كما أنه ليس له الحق كذلك فى الوعد بما ليس من وظيفته ، أو بما لا يملك فى يده ، أو فى غده : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون : قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إنى ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلى »[1] .. فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام هنا فى القرآن: أن يتجنب فى دعوته . . الوعود الخادعة ، والتى يغرى ادعاؤها ، وتشقى خيبة الأمل فيها .

● والرسل فى رسالاتهم لا بد أن يواجهوا أزمات ، ولا بد أن تشتد بهم الأزمة ويتراخى انفراجها . ولكن فى النهاية لا بد أن ينتصروا بإيمانهم وبمثابرتهم وتحملهم فى سبيل دعوتهم ، وبتوفيق الله إياهم . «حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا .. جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين»[2] وفى آية أخرى : « . . ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين (أى الكافرين) »[3] . . ومواجهتهم للأزمات . لأن دعوتهم تدفع إلى تغيير المجتمع فى نظامه وسلوك أفراده . إذ لا يأتى رسول إلا للتغيير ، بعد أن ينتشر الفساد والظلم والطغيان فى قوم فى مجتمع خاص بهم .

● والرسل فيما بينهم . يفضل بعضهم على بعض . « تلك الرسل فضلنا

---

(١) الأنعام : ٤٨ — ٥٠ . (٢) يوسف : ١١٠ .
(٣) الأنبياء : ٩ .

بعضهم على بعض . . منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات »(١) . . وهذا التفضيل تبعاً لنطاق الرسالة : فى استيعابها للشريعة ، والعقيدة معاً كرسالة القرآن والتوراة قبله ، وفى محدوديتهما بقصرها : على الدعوة إلى وحدة الألوهية ، وإلى مكافحة ظاهرة خاصة من ظواهر الظلم والطغيان فى مجتمع معين : كمجتمعات عاد ، ونوح ، وثمود ، ومدين . . ومع ذلك فلهم جميعاً تحية الله والمؤمنين به : «سبحان ربك رب العزة عما يصفون • وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين»(٢) .

• الروح :

• يرى بعض المفسرين أن كلمة « الروح » ترد فى بعض آيات القرآن الكريم بمعنى : « النفس » أو القوة الخفية فى الإنسان ، التى تقابل البدن ، ويعطى هذا البعض من المفسرين • • المثل على ذلك : فيما جاء فى سورة الإسراء فى قول الله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(٣) .

ولكن إذا استعرضنا مفهوم : « الروح » فى آيات الذكر الحكيم • • نرى أنه لا يعطى هذا المعنى الذى ذهب إليه بعض المفسرين من أنه : القوة الخفية فى الإنسان والمدبرة لبدنه • لأنه معنى جاء به الفكر الإغريقى وعرف استعماله بين المسلمين ، بعد القرن الثالث الهجرى • وإنما يعطى هذا المفهوم — الروح — فى الكثير الغالب • • معنى : الوحى • أو معنى : الملك الخاص الذى أرسل بالوحى ، وهو : جبريل .

• ففى الآية السابقة : « ويسألونك عن الروح . . » . . يراد بالروح :

---

(١) البقرة : ٢٥٣ .
(٢) الصافات : ١٨٠ — ١٨٢ .
(٣) الاسراء : ٨٥ .

الوحى . إذ بقية هذه الآية . . وكذلك ما بعدها من آيات ثلاث . . تفيد : أن الروح هنا هى وحى الله بالقرآن الكريم . نقرأ — لتوضيح ذلك — قوله تعالى : « . . . قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلا (أى لا تجد لك من يقوم وكيلا ونائباً عنا فى شأن الوحى واستعادته بعد أن نذهب به ونمحوه) . إلا رحمة من ربك ، إن فضله (أى بالوحى بالقرآن إليك وتثبيته فى نفسك) كان عليك كبيراً . قل : لئن اجتمعت الإنس والجن (أى القوى الظاهرية والمرئية ، والأخرى الخفية التى لاتعرف فى الوجود) على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (أى سنداً وساعداً)(١) » . فالتنصيص على أن الروح من أمر الله .. واقتران ذلك بالحديث عن علم الإنسان وأنه قليل بالقياس إلى علم الله ، ومصاحبة هذا . وذاك : لذكر فضل الله بالوحى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإعلان تحدى كل القوى فى الوجود فى أن تأتى بمثل القرآن الموحى به ، مهما تساندت واشتركت متعاونة فيما بين بعضها بعضا ، هذا كله يرجح فى وضوح : أن المعنى بالروح هنا ، هو : الوحى بالقرآن الكريم .

ونظير ذلك قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره (أى بالوحى) على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا ، فاتقون . خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون »(٢) . وقوله : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم (يخاطب المشركين الماديين فى يوم الجزاء) وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير . هو الذى يريكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقاً ، وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين . رفيع الدرجات ، ذو العرش ، يلقى الروح من أمره (أى يلقى الوحى وينزله) على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق »(٣) .

(١) الاسراء : ٨٥ — ٨٨ .
(٢) النحل : ٢ ، ٣ . (٣) غافر : ١٢ — ١٥ .

وقوله : « وآتينا عيسى بن مريم البينات) أى الآيات والأمارات الدالة على رسالته) وأيدناه بروح القدس (أى بالوحى بالإنجيل)[(١)] » .

• وتأتى « الروح » أيضاً بمعنى : الملك . ويقصد به جبريل عليه السلام . على نحو ما ورد فى قول الله تعالى : « نزل به الروح الأمين (أى الملك جبريل) على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين »[(٢)] . وفى قوله : « يوم يقوم الروح (أى جبريل) والملائكة صفاً ، لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال : صواباً . ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً »[(٣)] . وفى قوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر (أى أنزلنا القرآن) . وما أدراك ما ليلة القدر ؟ . ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح (أى جبريل) فيها بإذن ربهم من كل أمر »[(٤)] ، وفى قوله : « فاتخذت (أى مريم) من دونهم حجاباً فارسلنا إليها روحنا (أى جبريل) فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك ، إن كنت تقياً (أى متخفياً) قال إنما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاماً زكياً (يعنى به عيسى عليه السلام) »[(٥)] .

... وهكذا يتردد معنى : « الروح » فى آيات القرآن الكريم بين : الوحى بالكتاب ، وملك الوحى ورسوله ، وهو جبريل . إذ الحديث عن الروح بمعنى النفس أو القوة المدبرة للبدن .. لاشأن له بالهداية الإلهية حتى يكون من تعاليم القرآن . إنما هو من شأن الإنسان عند ما يفتش فى ذاته ، ويختلف فى تحديد عناصر الذات ، حسب ثقافته ومدى إدراكه .

• **الاسراء :**

• « الإسراء » بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فيما يذكره قول الله

(١) لبقرة : ٨٧ .
(٢) الشعراء : ١٩٣ — ١٩٥ .
(٣) النبأ : ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) القدر : ١ — ٤ .
(٥) مريم : ١٧ — ١٩ .

تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام (فى مكة) إلى المسجد الأقصى (فى أرض كنعان أو الشام) الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ».. هو نقله إلى مكان الأحداث الكبرى فى تاريخ الرسالة الإلهية. وهى أحداث الرسل المتتابعة إلى بنى إسرائيل فى أرض الله التى بارك فيها ، وهى أرض كنعان أو الشام . وذلك ليكون عليه الصلاة والسلام على بينة من تحقيق وعد الله فى جزائه للمؤمن والكافر بالرسالة التى يوحى بها إلى رسله .

فقد بدئت سورة الإسراء — أو سورة بنى إسرائيل ، كما تسمى أيضاً — بأمر الإسراء . والإسراء على أى نحو هو : الإلتقاء مع مشاهدة الأحداث الدينية التى تجسم الواقع التاريخى لسير الرسالة الإلهية فى هذه الأرض المباركة . وهى أحداث امتدت فى الزمن إلى عدة مئات من القرون ، وفى مواجهة عدد كثير من الأنبياء والرسل ، وتقلبت بين التتبع والاضطهاد مرة ، والسيادة والسيطرة مرة أخرى : لشعب ، هو شعب بنى إسرائيل • تقلب بين المادية والروحية، والكفر والإيمان ، والإصرار على الخطيئة ، واقتراف الجريمة أحياناً عديدة ، والبعد عنها والاستكانة والرجوع إلى الله حيناً آخر .

وقيل فى شأن الإسراء: إنه وقع قبل الهجرة من مكة إلى يثرب بسنة.ويروى عن أنس والحسن : أنه كان قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام .

كما قيل : إنه وقع فى اليقظة فأسرى ، كما عرج بروحه ، ويروى ذلك عن معاوية وعن عائشة . وقيل : إنه كان فى المنام : رؤيا رآها.ويروى ذلك عن الحسن[1] .

فإذا نقل الرسول عليه الصلاة والسلام — بالروح ، أو فى الرؤيا الصادقة — إلى مكان الأحداث الدينية التاريخية التى وقعت فى بنى إسرائيل على أرض كنعان ،

---

(١) هذه أقوال وردت فى تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٥٤٢ — المطبعة الشرفية : الطبعة الأولى القاهرة .

وعرض عليه عظماء الرسل فى تاريخ الرسالة .. عرض عليه موسى ، وعيسى ، وإبراهيم ، وتتابع عليه الوحى فى القرآن بأهم الأحداث التى وقعت على هذه الأرض .. فإنه عليه الصلاة والسلام لا يعيش هذه الأحداث حية فقط ، وإنما مع ذلك تطمئن نفسه اطمئنانا كاملا إلى نصر الله إياه فى رسالته ضد المعارضين من الماديين . سواء أكانوا من المعارضين المشركين بمكة وهم أقل شأنا ، أم كانوا من اليهود وقد تمرسوا على المعارضة للإيمان بالروحية الإنسانية التى تدعو إليها رسالة الله ، كما استمرأوا المادية وأشربوا حبها فى نفوسهم وفى دمائهم ، وتوارثوها فى أجيالهم العديدة . ولذا كان مصيرهم فى الحياة مقترنا بالمذلة والهوان .. إلى يوم البعث : « فلما عتوا عما نهوا عنه ، قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين (أى أذلاء محتقرين) . وإذ تأذن ربك (أى إذ علم ربك) ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة : من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم فى الأرض أمما : منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب : يأخذون عرض هــذا الأدنى (أى يتمسكون بالماديات الدنيوية) ويقولون سيغفر لنا (أى ومع ذلك يدعون أن الله سيغفر لهم اتباعهم واستغراقهم فى ماديات الحياة) وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه (أى ولا يتورعون عن الانغماس مرات أخرى فى ماديات الحياة إن واتتهم . فاتجاههم فى الحياة اتجاه مادى ، مهما ادعوا : أنهم ذاكرون الله وراجعون إليه فى فترة ما . ولذلك فعقاب الله لهم بالمذلة والهوان مستمر ، طالما لم يعودوا إلى الروحية الإنسانية) . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » .(١)

ويروى فى إسراء الله لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام إلى أرض كنعان »

---

(١) الأعراف : ١٦٦ — ١٦٩ .

عنه صلى الله عليه وسلم عن أبى هريرة قوله : « لقد رأيتنى فى الحجر (فى حجر اسماعيل بالكعبة) وقريش تسألنى عن مسراى فسألتنى عن أشياء لم أتبينها فكربت كربة ما كربت مثلها قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه (أى فرفع بيت المقدس أمام نظرى) ما يسألونى عن شيء إلا أنبأتهم به. وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء : فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضرب (أى نحيف) جعد (أى شعره مجعد) كأنه من رجال : شنوءة . وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم ، يصلى ، أقرب الناس إليه شبهاً : عروة بن مسعود الثقفى . وإذا ابراهيم عليه السلام قائم يصلى ، أشبه الناس به صاحبكم (يعنى نفسه عليه السلام) . . فحانت الصلاة فأممتهم . فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد : هذا مالك ، صاحب النار ، فسلم عليه : فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »[١] .

وهذا المشهد للرسل الثلاثة العظام ، مع إمامة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لهم فى الصلاة : ينوه بمكانته أولا بين الرسل جميعاً ، كما يبرز ثانياً : أن رسالة القرآن باكتمال دين الله بها . . تنتهى بها أدوار الرسالة الإلهية إلى البشرية .

● فإذا نزل الوحى فى القرآن ـ بعد إسراء الرسول عليه الصلاة والسلام بالروح ، أو فى الرؤيا إلى أرض كنعان ـ بأحداث رسالة موسى والأنبياء والرسل بعده إلى بنى إسرائيل ، وبالأخص رسالة عيسى إليهم ، كما تقصه سورة الإسراء هنا .. فإن ما نزل الآن يكون له من قوة الأثر فى النفوس للمشاهد المرئية على هذه الأرض ، التى تعكس بدورها حياة اليهود المتقلبة ، وما جزاهم الله به من حسنات ، وما أوقعه بهم من عقوبات ، انتهت بتشريدهم فى الأرض وإذلالهم على يد أقوياء يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة .

---

(١) فى رواية مسلم فى كتاب الايمان ـ التاج حـ ٣ . ص ٢٧٥ـ٢٧٦ .

وتجسيد تاريخ الأرض المباركه حينئذ كفيل بإيقاظ البشرية والسادرين فى طغيان المادية ، وبإعادة المجتمع الإنسانى إلى صراط الله ، وهو الصراط المستقيم .. صراط الهداية البشرية ، إن شخصته الأبصار فى موضوعية وفى غير تحزب .

• فقد ذكر الوحى فى القرآن : كتاب الهداية البشرية لبنى إسرائيل ، وهو كتاب موسى ، أو التوراة ، أو صحف موسى . وركز فيه على أنه لا ينبغى لهم إطلاقاً أن يكون لهم سند فى الحياة سوى الله جل جلاله . فليس مما فى هذه الحياة من أموال ومتع مادية ، ولا ما فيها من أولاد ، ولا مالها من مظاهر الجاه والقوة .. يصح أن يتخذ وكيلا ونائباً عن الله ، بحيث ينصرف إيمانهم إلى ماسواه، ويقصر اعتمادهم على غيره ، مما فى هذه الحياة الدنيا : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل : ألا تتخذوا من دونى وكيلا »(١) .. ولكنهم ترددوا بين الإيمان والكفر ، وبين الانصراف عن الله سبحانه ، والرجوع إليه . وقد سجل تاريخهم مع الرسالة الإلهية حقبتين رئيسيتين تمثلان العصيان والانصراف عن الإيمان بالله ، تحت التأثر بالمادية واتجاهها فى الحياة ، حتى لم ينالوا فيها من الرسالة فحسب ، وإنما نالوا أيضاً من الرسل الذين كرروا الدعوة فيهم إليها : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب (أى أوحينا إلى بنى إسرائيل فى التوراة) لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علواً كبيراً (أى وليشتد طغيانكم بما يكون لديكم آنئذ من قوة مادية وعددية) »(٢) .

الحقبة الأولى : هى تلك الحقبة التى أنذرهم فيها : النبى زكريا .. بعقاب الله على فسادهم وعبثهم ، وبعدهم عن الإيمان بالروحية الإنسانية التى يحمل عليها الإيمان بالله . ولم يأبهوا لإنذاره ، واستمروا فى غيهم وضلالهم وتحديهم ، وقتلوا نبيهم هذا . فسلط الله عليهم البابليين على عهد بختنصر سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ودخلوا

---

(١) الاسراء : ٢ .   (٢) الاسراء ٤ .

عليهم بلادهم وبيوتهم ، واقتحموا معبدهم الذى بناه سليمان وهو بيت المقدس . وأتمم بناءه سنة ١٠٠٤ ق . م . وساقوا رجالهم ونساءهم فى الأسر . وأصبحوا بهذا الغزو مغلوبين على أمرهم ، أذلاء فى أسرهم وبعدهم عن ديارهم : « فإذا جاء وعد أولاهما (أى حل وعد المرة الأولى فى عقابهم من قبل الله) بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد (وهم البابليون قادمون من العراق وقد كانوا أصحاب بطش فى قوتهم المادية فسلطهم الله عليهم) فجاسوا خلال الديار (أى دخلوا الديار واقتحموها كما اقتحموا معبد سليمان وهدموه) وكان وعداً مفعولا (أى وبذلك تحقق وعد الله لبنى إسرائيل بعقابهم على كفرهم وماديتهم » (١).

وبعد هذا الأسر والإذلال ، عقوبة لهم من الله ، أعطاهم فرصة ثانية ومكنهم من العودة من الأسر عند البابليين ، إلى أوطانهم فى كنعان سنة ٥٢٠ ق . م . أى بعد أكثر من ستين عاماً على الأسر والبعد عن الديار . ويذكر القرآن الكريم قصة هذا التمكن من استرداد سيادة أنفسهم فى سورة البقرة ، فيما تذكره هذه الآيات : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم (هو صمويل) : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال : أن لا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين.. إلى أن يقول : فلما فصل طالوت بالجنود (أى خرج بهم متجهاً نحو بابل ، وطالوت هو الملك الذى عينه صمويل) قال : إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى (أى ليس من جنودى ومن رفاقى فى القتال) ومن لم يطعمه فإنه منى ، إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده (لأنهم رأوا أعداءهم

---

(١) الاسراء : ٥ .

كثيرين بعددهم ، وأقوياء بعدتهم تحت إمرة جالوت) قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود (وقد ظهر بشجاعته بين جنود طالوت) جالوت ، وآتاه الله (أي آتى دواد) : الملك ، والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس : بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[١] .

وتجمل آية الإسراء : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال ، وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً (أي عدداً)[٢] » .. أمر استرداد بني إسرائيل هذه السيادة لأنفسهم ، وتحررهم من البابليين ، وعودتهم إلى القوة المادية من أموال ، وبنين ، من جديد ، بعد الإذلال في الأسر والبعد عن الديار والأبناء . فابتدأوا الحياة وأعادوا بناء المعبد ، ونفذوا عدة إصلاحات ، وبنوا اليهودية من جديد . وذلك على أمل : أن يرجعوا إلى الله ويلتزموا بالسلوك الإنساني السوي . وعندئذ يحسنون فقط إلى أنفسهم وحدهم : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » .

والحقبة الثانية : وهي حقبة الخطيئة الأخرى . . خطيئة رفض رسالة عيسى والقصد إلى قتله . فجازاهم الله على هذه الخطيئة باحتلال الرومان تحت زعامة تيتوس TITUS ابن الأمبراطور فيبسيان VEPASIAN سنة ٧٠ بعد الميلاد ، لديارهم . فحطم مصادر ثروتهم وقوتهم التي حصلوها بعد عودتهم من أسر البابليين ، ودخل معبد سليمان وهدمه هدماً كاملا ، بعد أن أعيد بناؤه مرة قبل ذلك في عهد هيرود سنة ١٧ ق . م . من خلفاء الاسكندر : «فإذا جاء وعد الآخرة (أي فإذا حل موعد العقوبة الثانية) ليسوءوا وجوهكم (أي سلطنا عليكم أعداء كم ليشوهوا وجوهكم . ويقصد بتشويه الوجوه هنا : تحطيم كل مصادر القـــــوة) وليدخلوا

---

(١) البقرة : ٢٤٦ — ٢٥١ (٢) الاسراء : ٦ .

المسجد كما دخلوه أول مرة (أى وليدخلوا المعبد الذى أقيم المسجد الأقصى على طرف منه بعد فتح عمر بن الخطاب لأرض كنعان المباركة) وليتبروا ما علوا تتبيراً (أى وليزيلوا كل ما ارتفع من أبنية إزالة كاملة) »[1] .. وبتحطيم مصادر الثروة ، وبهدم المعبد هدماً كاملا ، تلاشى ما كان يملكه بنو إسرائيل فى أرض كنعان من قوى مادية ومعنوية ، وأصبحوا شتيتاً كأقلية بين الشعوب الأخرى. ولكن ما زال هناك أمل لهم فى رحمة الله ، إن هم اتبعوا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام : « عسى ربكم أن يرحمكم (أى لعل الله يهديكم الصراط السوى عن طريق إيمانكم بالقرآن وبذلك يرحمكم الله) وإن عدتم عدنا (أى وإن عدتم إلى الخطيئة فكفرتم برسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، كما كفرتم برسالة زكريا ، وبرسالة عيسى من قبل . . عدنا إلى عقوبتكم وتسليط أعدائكم عليكم) »[2] .. فرسالة القرآن هى رسالة الهداية للطريق الأقوم ، فى الوقت الذى يبشر فيه المؤمنين به والذين يعملون الصالحات : بالأجر الكبير فى الآخرة ، بينما ينذر الذين يكفرون به وبالآخرة وهم الماديون : بالعذاب الأليم : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات : أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة : اعتدنا لهم عذاباً أليماً »[3] .

* * *

إن الأسراء هى سبيل آخر من سبل الدعوة إلى القرآن الكريم .. وسبيل آخر كذلك إلى اطمئنان الرسول عليه الصلاة والسلام وتحمله فى شأن دعوته إلى الحق .. وسبيل آخر أيضاً إلى التنويه بأمره — عليه السلام — فى مستوى النبوة والرسالة ، وفى تاريخ الدعوة إلى دين الله .

---

(١) الاسراء : ٤ .
(٢) الاسراء : ٨ .
(٣) الاسراء : ٩ ، ١٠ .

وإن العبرة التى نستخلص من الوقائع والأحـــداث التاريخية التى تمت على أرض كنعان التى بارك الله فيها فى بنى إسرائيل .. هى عبرة حيــة ، وتعطى المبدأ الصادق الذى لايتخلف وهو : أن الإيمان بالله وحده ، وهو وحده مصدر النجاة ، ومصدر النصر والغلبة فى هذه الحياة : « قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

والمسلمون — على عهد عمر رضى الله عنه — عندما دفعوا قوى الرومان الطاغية من أرض كنعان المباركة إلى خارجها : لم يدفعوها إلا بإيمانهم بالله وحده . فإذا أراد المسلمون اليوم استعادتها من أصحاب المادية اليهود . . فلا يستعيدونها : لأنهم من أبناء هذه الأرض المباركة يوماً ما ، ولا لأنهم أصحاب عتاد ثقيل أو أو خفيف فى القتال ، ولا لأنهم دربوا على حرب العصابات ، ولا لأنهم ماركسيون أو علمانيون ، ولـكن فقط : لأنهم مؤمنون بالله .

والإيمان بالله ليس سحراً . ولـكنه : إخلاص فى سبيل المثل العليا ، وإنـكار للذات ، وصبر وتحمل ، وتضحية بكل متعة فى الحياة — حتى بالحياة نفسها .

ليس من مصلحتنا اليوم فى الصراع مع إسرائيل : أن نعدد لها التهمة تلو التهمة ، ونظل محجبين عن عوامـل الضعف فينا . يجب أن نـكشف عن عيوبنا أولا ، لنبعدها عن أنفسنا فى هذا الصراع . . يجب أن نستوثق بأننا مع الله ، قبل أن نستوثق من مناصرة هذه الـكتلة المادية أو تلك الـكتلة الأخرى المــادية أيضاً لحقنا بالقوة المادية أو المعنوية .. يجب أن نسلك طريق الإيمان بالله ونتصرف فيه على ما ينبغى أن لا نفعله وما ينبغى أن نفعله ، قبل أن نعلن التبعية لهذا الفريق أو ذاك ، وهم جميعاً من أعداء الله .

إن الصهيونية شر وبلاء ، وقد ساعدها الشيطان الأحمر والأبيض على السواء . فهل ناشدنا نحن : عون الله وتأييده ؟ .

• **الأفك :**

• يقول الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك (أى اتهام عائشة رضى الله عنها فى عرضها) عصبة منكم (أى مجموعة منكم) لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء (أى ممن شارك فيه) ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم (أى الذى باشر النصيب الأوفر فى اختلاقه وترويجه) له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه : عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا — سبحانك — هذا بهتان عظيم »[1] .. هذه الآيات تعرض لحادث الإفك فى حق السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد وقع فى السنة الخامسة بعد الهجرة ، إثر العودة من غزوة بنى المصطلق . فعندما تقرر الأمر بالرحيل للمسلمين لم تكن السيدة عائشة فى هودجها ، لأنها ذهبت لتبحث عن عقد لها كانت نزعته ، ولم يلاحظ عند الرحيل : أنها لم تكن بالهودج . إذ كان مغلقاً ، حتى وصلت القافلة إلى الموقف التالى بالطريق . وفى الأثناء وجدت عائشة أن القافلة رحلت فجلست لتستريح ، على أمل : أن يعود أحد ليأخذها عندما تلاحظ غيبتها . حتى جاء الليل ونامت . وفى غداة اليوم التالى وجدها أحد المهاجرين — ويقال : إنه صفوان بن المعطل — وهو على جمله . فنزل وأركبها وسار على قدمه يقود الجمل .

هذا الحادث أعطى فرصة للأعداء من المنافقين للقول فى شأنها بغير حق .

---

(١) النور : ١١ — ١٦ .

ويقال إنه كان على رأس المتقولين : عبد الله بن أبيّ . إذ عند ما مر صفوان عليه بهودج عائشة وهو فى جماعة من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة . فقال : والله ما نجت منه ، ولا نجا منها (وهذا كناية عن اتصال بعضهما ببعض) وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

وفى عرض آيات القرآن لهذا الحادث قيمته : بأنه ليس شراً بالنسبة لمن أسيء اليهم . ومن أسيء على وجه الخصوص : هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر ،وعائشة ، وصفوان . بل رأت الآيات القرآنية فيه خيراً : « لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم » . . لأنه اتضح أولا : أنه افتراء مبالغ فيه ، كما كشف عن أعداء مستترين تحت عنوان الإيمان ، يضمرون عداءهم : للدعوة ولصاحبها عليه الصلاة والسلام .

وفى سبيل كشف الافتراء ، والعداوة المقنعة بالإيمان . . أوحى الله بقوله : «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا: هذا إفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون » . . والمعنى : ألم يكن الأولى بكم — أيها المؤمنون — أن تكون لديكم فى أنفسكم صورة خيرة عن علاقات بعضكم ببعض تدفع من أول الأمر : هذا الكذب ، وتعلنون على رءوس الأشهاد : أنه افتراء واضح ؟ وألم يكن لديكم علم بأن مثل هذا الأمر — وهو القذف والاتهام فى العرض — لا يثبت إلا بأربعة شهداء ؟. فإذا لم يكن هناك شهداء فهو كذب فى ذاته ، وناقلوه كذلك من الكاذبين ؟ .

ثم وجه القرآن إلى مروجى هذا الإفك : أنهم ارتكبوا فى ذلك ثلاث جرائم عندما يقول : « إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » . .

الأولى : أنهم ينطقون بما لا يعلمون حقيقته ،

والثانية : أنهم يرددونه ، وينقله بعضهم عن بعض ، وبذلك يشيعونه بين الناس ،

والثالثة : أنهم يظنون : أن هذا الاتهام أمر هين . ولكن فى واقع أمره هو عظيم عند الله . وكان الأجدر بهم عندما سمعوه أن يقولوا : لا ينبغى لنا أن نتكلم بهذا .. إنه بهتان عظيم .

● فمفهوم الإفك إذن : أنه ليس كذباً فى مستوى عادى . إنه اتهام مختلق ، واضح فى اختلاقه .. إنه بهتان لا يشعر به الإنسان حتى يفاجأ به . وعلى هذا النحو ما جاء على ألسنة المشركين المكيين الماديين فى اتهام القرآن بالإفك : فى قول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين »[1] .. وفى قوله : « الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديراً . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ، ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً . وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً »[2] وهكذا : إن كانت المبالغة أو التطرف فى الكذب عنصراً فى مفهوم الإفك .. فالعنصر الآخر هو : وضوح كذبه وعدم وجود أساس له .

---

(١) سبأ : ٤٣ .
(٢) الفرقان : ٢ — ٤ .

جـ - فى دائرة المخلوقات :

* الجن - والملك - والشيطان والانسان ١٢٩

*** الجن ـ والملك ـ والشيطان ـ والانسان**

فى القرآن الكريم :

● الجن من مخلوقات الله ، مقابل الإنس الذى هو من مخلوقاته كذلك . فإذا كان الإنس معهوداً ومرئياً وشاهداً .. فالجن غير معهود للبشر ، وغير مرئى ومشاهد لهم . والإنس إن كانت طبيعته من طين ، فالجن طبيعته من نار : «خلق الإنسان من صلصال كالفخار أى من طين يابس . وخلق الجان من مارج من نار (أى من نار صافية لا دخان لها)»(١) . «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون (أى من طين يابس أسود متغير) والجان خلقناه من قبل من نار السموم (أى النار التى لادخان لها)(٢) .

● وكل من الجن والإنس خلق لعبادة الله وطاعته : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد منهم أن يطعمون »(٣). والمراد بعبادة الله : طاعته ، والخضوع له ، وعدم عصيان أمر له .

● والجن إذا كان هو غير المعهود من المخلوقات : للبشر ، وغير المرئى والمحس لهم ، فيطلق أيضاً على الملائكة ، ويطلق على إبليس الذى هو أيضاً واحد من الملائكة ، كما يطلق على الشياطين الذين هم جنود إبليس ، ويطلق كذلك على كل غير المعهود والغرباء من البشر :

١ — يطلق على الملائكة على نحو ما يقول الله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون»(٤) .. ويقول الزمخشرى فى تفسيره الكشاف : وجعلوا (بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة) نسباً (وهو زعمهم : أنهم بناته . والمعنى : وجعلوا بما قالوا نسبة بين الله وبينهم . وأثبتوا له بذلك جنسية

---

(١) الرحمن : ١٤ ، ١٥ .　　(٢) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) الذاريات : ٥٧ ، ٥٨ .　　(٤) الصافات : ١٥٨ .

جامعة له والملائكة . فإن قلت : لم سمى الملائكة جنة ؟ . قلت : قالوا : الجنس واحد . ولكن مَن خبث من الجن ومرد ، وكان شراً كله فهو شيطان . ومن طهر منهم ونسك ، وكان خيراً كله فهو ملك . فذكرهم فى هذا الموضع باسم جنسهم [١] .

ويقول أيضاً : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟. قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » [٢] .. فهذا الاستثناء يدل على : أن إبليس من الملائكة . ولكنه خرج عن طاعة الله بعدم سجوده لآدم الذى هو أب البشر هنا فى هذه الآيات . كما جاء فى سورة الأعراف فى قوله : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين .. قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » [٣] .

وجاء قوله تعالى فى الحديث عن الملائكة : « وجعلوا (وجعل المشركون الملكيون) بينه (أى بين الله) وبين الجنة نسباً (والجنة هنا هم الملائكة بدليل قوله قبل هذه الآية : فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون) ولقد علمت الجنة (أى الملائكة) إنهم لمحضرون (أى واردون جهنم . والمقصود بهم هم هؤلاء المشركون الذين تقولوا على الله سبحانه بأن الملائكة أولاده ، وأنه بين الله وبينهم من أجل ذلك نسب ومصاهرة) » [٤] .

---

(١) الجزء الثانى ، ص ٢٧٢ ، الطبعة الأولى بالمطبعة الشرفية .
(٢) الحجر : ٢٨ — ٣٣ . (٣) الأعراف : ١١ ، ١٢ .
(٤) الصافات : ١٥٨ .

وشأن إبليس مع الملائكة ، كشأن الكافر مع المؤمنين بالله فى دائرة البشر . فالكافر برفضه الإيمان بالله لا يخرج عن كونه واحداً من الناس والبشر ، ولكنه من عصاتهم فحسب . وكذلك إبليس بعصيانه الله فى عدم السجود لآدم لم يخرج عن كونه واحداً من أفراد الملائكة عداه من الذين بقوا فى طاعة الله ، ولكنه عاص آثم. ثم قد جاء فى آية من آيات القرآن إطلاق الجن على إبليس ، فى قول الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه (أى فخرج بعصيانه عن طاعة ربه) أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا »[1] .. قد جاء إطلاق القرآن على إبليس هنا بأنه من الجن وقد عرف من قبل - عن طريق الاستثناء - بأنه أحد الملائكة . فالملائكة إذن يطلق عليهم الجن ، ولكنهم من الجن الخيرين الذين أطاعوا الله، بينما إبليس أصبح مصدر الشر فى حياة الإنسان .

وهنا إذا قالت هذه الآية : « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .. لا تستهدف أنه بفسقه وعصيانه وخروجه عن أمر الله أصبحت ذاته الآن ليست من ذوات الجن ، وأنها تحولت بذلك من طبيعة الجن النارية إلى طبيعة أخرى ، وهى طبيعة الطين والتراب التى للإنسان . إذ ليس هناك فى عالم الصراع بين الخير والشر إلا طبيعتان : خلق الله إحداهما من صلصال كالفخار وهى طبيعة الإنس ، وخلق ثانيتهما من مارج من نار وهى طبيعة الجن . وإذا تحولت طبيعة إبليس بعصيانه ربه من نار إلى طين ، أصبحت هذه الطبيعة مشاهدة ومرئية ، وأصبحت معهودة للناس كما هى معهودة ذواتهم لبعضهم بعضا : ولكن الآية تقصد فحسب . أن إبليس أصبح بالعصيان : مصدر شر ، ولم يبق على الطبيعة الخيرة التى هى الملائكة .

---

(١) الكهف : ٥٠ .

والملائكة الآن من الطبائع النيرة أو النارية ، وأنها فى طاعة الله ، وأنها يطلق عليها اسم الجن .. أى من مخلوقات الله غير المعهودة وغير المرئية والمشاهدة. وما جاء فى سورة : سبأ من قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ... إلى أن يقول سبحانه : ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون»[1] ... لا يجعل : الجن قسيماً مقابلا للملائكة ولا من طبيعة مستقلة غير طبيعتهم . وإنما قصد بالجن هنا : الأشرار من القوى الخفية غير المعهودة من الشياطين وهم جنود إبليس ، والمقابلة هنا ليست مقابلة طبائع ، بل هى مقابلة عمل : عمل يتسم بالخير وهو عمل الملائكة . وعمل آخر يتسم بالشر وهو عمل شياطين الجن . والملائكة ينفون عنهم صلتهم بالكافرين المترفين وبانحرافاتهم مرتين : مرة بتأكيد أن اتجاههم لطاعة الله ، وأخرى بتحديد مصدر الشر الذى تسلط على هؤلاء المترفين ، وهو شياطين الجن .

٢ — والجن يطلق أيضاً : على إبليس ، وعلى جنوده من شياطين الجن . وإبليس نفسه شيطان . كما يقول الله تعالى : «فأزلهما الشيطان عنها (أى حمل آدم وحواء على الزلل والسقوط) فأخرجهما مما كانا فيه) أى وبذلك سبب لهما خروجهما من الجنة إلى الأرض »[2] . . كما تقول آية أخرى : « يابنى آدم : لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة[3] .. فهذه الآية الثانية تنصح أولاد آدم — وهم الناس جميعاً — بعدم الوقوع تحت غواية الشيطان الذى هو إبليس . وتعلل ذلك بأن إبليس هو الذى أغوى آدم وحواء ، وحملهما بغوايته على

---

(١) سبأ : ٣٤ — ٤١ .
(٢) البقرة : ٣٦ .
(٣) الأعراف : ٢٧ .

الاقتراب من الشجرة التى منعا من الله من الاقتراب منها . فإبليس هو الشيطان من الجن .

وجنود إبليس : شياطين . وهم من الجن إذا لم يحسوا ويشاهدوا كأهواء الإنسان وشهواته ، أو إذا لم يعرفوا بأشخاصهم على التحديد وإن عرفوا بآثارهم فى الشر والمكايد ، كالمترفين والمستكبرين فى المجتمع البشرى . وقد يكونون من الإنس إذا عرفوا بأشخاصهم على أنهم مصدر شر . وآية القرآن الكريم فيما تقوله: «فكبكبوا فيها هم والغاوون (أى طرح أصحاب الوثنية المادية والضالون عن هداية الله فى نار جهنم) . وجنود إبليس أجمعون (وهم الشياطين كلهم من إنس ، وجن)»(١) . . تجمع بين نوعى الشيطان من جن ، وإنس معاً فى دخولهم جهنم ، كعقاب على غوايتهم وإضلالهم الإنسان .

٣ — وقد يطلق الجن على فريق خير من الناس ، غريب وغير معهود . ولأنه غريب وغير معهود كان بمثابة غير المحسوس وغير المرئى . يقول الله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتاباً ، أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا : أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين»(٢) .. فهذا النفر من الجن الذى أنصت للقرآن الكريم بمكة يقال إنه قدم إليها من «يثرب» قبل الهجرة بسنتين . وبعد إيمانه أخذ على عاتقه الدعوة إلى دين الله بين قومه ، بعد أن عاد من الحج إلى يثرب ثانية . ويقال : إنه هو نفسه الفريق الذى ذكر فى سورة الجن ، فى قوله تعالى . قل : أوحى إلى أنه استمع نفر

---

(١) الشعراء : ٩٤ ، ٩٥ . (٢) الاحقاف : ٢٩ — ٣٢ .

من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً »[1] . وأطلق على هذا النفر اسم : الجن ، لأنه كان غير معروف بين المكيين، وكان غريباً عن مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة : ومن هذا التفسير ـ يقال إنه ـ تكونت نواة «الأنصار» بالمدينة . والرسول عليه الصلاة والسلام عندما هاجر إلى يثرب بعد ذلك بسنتين لم يهاجر إذن إليها فى فراغ ، وإنما هاجر إلى أحباء آمنوا به من قبل وبرسالته ، وبشروا بها ودعوا إليها جادين قبل أن يهاجر هو وصاحبه .

وإذا لم يرد باسم : الجن ، هنا . . هذا الفريق الخير الغريب غير المعهود من أهل يثرب ، فإنه يقال : كيف : يكون إيمانهم بالقرآن ؟ وكيف تكون معرفتهم بالتوراة قبله ؟ : « إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم » . إنهم عرفوا ما لموسى من جوار اليهود بالمدينة : من أهل خيبر ، أو من بنى النضير . وإنهم لو كانوا ملائكة من القوى النارية أو النورية ، كيف يأخذون على عاتقهم التبشير بالإسلام بين قومهم ؟ . إن الملائكة قد اختبروا فعلا — قبل أن يختبر آدم وحواء — ، فى طاعتهم لله : اختبروا عندما أمرهم الله بعد خلق آدم .. بالسجود له ، فسجدوا إلا واحداً منهم، هو إبليس . وآنئذ عرف المطيع والمؤمن ، والفاسق والعاصى منهم ، فكانوا جميعاً مطيعين ، عدا إبليس فعصى ربه وغوى .

على أن رسالة الله بالإسلام جاءت لهداية آدم وذريته وحدهم على الأرض ، بعد أن أخفق آدم فى تجربة استقلاله بالعقل الذى ميزه الله به فى تصويره . . على الملائكة ، عندما امتحنه الله بعدم الاقتراب من الشجرة المعينة فى الجنة ، تلك الشجرة التى حرمها عليه وعلى زوجه : حواء : كما ذكر فى قوله : «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا

---

(١) الجن : ١ ، ٢ .

من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما (أى ليبدى لهما نقائصهما) وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (أى ظهر لهما نقصهما وهو عدم استقلالهما فى الهداية بالعقل البشرى الذى ميزا به ، وحاولا أن يسترا خجلهما من هذا الخطأ الذى ارتكباه عند مواجهة الله لهما) وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟. قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال : اهبطوا : بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين (أى أنتما ومن جاء من ذريتكما ، والشيطان وجنوده : بعضكم لبعض عدو على الأرض مدة استقراركم عليها ، وتمتعكم بخيراتها إلى حين . وهو حين فناء هذه الأرض ، وحين بعثكم منها إلى يوم الجزاء) . قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون »(١) .. فهذه الآيات تذكر : أن خروج آدم وحواء من جنة الله إلى الأرض عداها ، كان بسبب عصيانهما ما نهاهما الله عنه ، وتحت تأثير غواية الشيطان . والعقل الذى ميزا به من قبل الله ، وهو ما يدل عليه التعبير : بالتصوير — بعد الخلق — فى قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم »(٢) وهو ما بسببه أيضاً طلب الله من الملائكة أن تسجد لآدم : « ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين »(٣) .. هذا العقل الإنسانى لم يستطع وحده أن يحول دون غواية الشيطان وتأثير هذه الغواية على آدم وحواء فى دفعهما إلى الاقتراب من الشجرة . ولذا — بعد هذه التجربة — كان الإنسان فى حاجة إلى هداية إلهية بجانب العقل فيه .. أى بجانب الإدراك

---

(١) الأعراف : ١٩ — ٢٥ .
(٢) الأعراف : ١١ . (٣) تكملة الآية السابقة .

الذى منفذه : السمع ، والبصر ، كما فى قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج (أى من نطفة مختلطة من الذكورة والأنوثة . وهذه هى المادة فى تكوينه) نبتليه : فجعلناه سميعاً بصيراً (أى ولكن لأن الهدف من خلق الإنسان هو ابتلاؤه واختباره ، زود بالسمع وبالبصر : منفذى الإدراك والعقل) . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً ، وإما كفورا (أى ولكونه لم يستطع أن يستقل فى الهداية بإدراكه وعقله — كما كان فى تجربة آدم وحواء فى الجنة — كانت هداية الله فى رسالة رسله للإنسان على الأرض فى صراعه مع الشيطان وغوايته . والإنسان بعد هذه الرسالة التى تبلغ إليه : إما أن يشكر الله على نعمته عليه فيؤمن به ، أو يجحد هذه النعمة فيكفر به »[1].

ولتأكيد إخفاق آدم فى تجربة استقلاله بالعقل فى الهداية ، وتأكيد حاجته الماسة إلى هداية الرسالة الإلهية له مدة إقامته على الأرض . . إلى يوم البعث والجزاء فى صراعه مع الشيطان وهو إبليس وغوايته . . كان أول نداء من الله جل شأنه إلى البشر اتجه إلى أن يلفت فيه نظر الناس : إلى غواية الشيطان فى حياتهم الأرضية : « يا بنى آدم : لا يفتننكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما (أى يكشف ما بهما من عيب ونقص ، وهو عيب عدم استقلال العقل بالهداية فى التوجيه) إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم (إذ هو قوة خفية) ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »[2] . وفى الآية السابقة على هذه الآية يذكر القرآن الكريم : منة الله على الإنسان فى تزويده بالعقل ، إذ تقول هذه الآية السابقة : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم : لباساً يوارى سوآتكم ، وريشاً ، ولباس التقوى ذلك : خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون »[3] . . فقد عبرت هذه الآية عن العقل باللباس الذى يستر عيب

---

(١) الانسان : ١ — ٣ .
(٢) الأعراف : ٢٧ .
(٣) الأعراف : ٢٦ .

الإنسان . لأن العقل من شأنه أن يوجه الإنسان إلى ما يميزه فى سلوكه عن غيره ويهديه سبل السلام ، وبذلك لا يظهر له خطأ ، أو يقل خطأه .

. . . . ثم كان النداء القرآنى الآخر بعد ذلك فى إعلام الناس برسالة الرسل من قبل الله ، وما يجب عليهم من موقف يقفونه نحوها ، من : الأخذ بهداية الرسالة : « يا بنى آدم . إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(١) . . وفى تعبير الآية الأولى من هاتين الآيتين بأن رسل الله هى من البشر وأنها مرسلة إلى البشر : تقص هداية الله : «إما يأتينكم رسل منكم ، يقصون عليكم آياتى» .. وفى التعبير بهذا ما يجعل الملائكة أو القوى النارية على العموم كالجن ، فى بعد عن محيط الرسالة ، وعن التكليف بالهداية الإلهية .

فإرسال الرسل من البشر ، وإلى البشر وحدهم ، يفيد : أن الإيمان بهداية الله والكفر بها : من خواص البشر وحدهم . . أى من خواص تلك الطبيعة المركبة من المادة والروح ، أو المركبة من الدين والإعداد بالسمع والبصر — منفذى الإدراك والعقل — وليس من شأن تلك الطبيعة الأخرى معها فى الوجود . وهى تلك الطبيعة المفردة التى خلقت من نار ، وهى طبيعة الملائكة ، والجن على السواء .

وتركيب الطبيعة البشرية يدل عليه فى وضوح مثل قوله تعالى : « الذى (أى الله الذى) أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون (أى بالهداية والايمان) »(٢) . فالجزء المادى فى الإنسان كان الطين أولا ، ثم الماء المهين بعد ذلك . والجزء الروحى هو ماعبر

(١) الاعراف : ٣٥ ، ٣٦ . (٢) السجدة : ٧ — ٩ .

عنه : بالتسوية والنفخ فيه من روح الله ، وتزويده بالسمع والبصر والفؤاد : «ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

وإذن : النفر من الجن الذى استمع إلى القرآن فى مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة قبل الهجرة وآمن به، ثم أخذ على عاتقه مسئولية الدعوة إليه . . هذا النفر ليس من القوى الفردية غير المركبة . . أى ليس من القوى النارية التى هى الملائكة أو الجن على السواء . وقريب أن يكون من البشر . ولكن لأنهم غير معهودين وغرباء كانوا بمثابة الجن فى التستر وعدم الإفصاح عن هويتهم . وهذا النفر من الجن هو الذى أشار إليه القرآن فى سورة الأحقاف، وكذلك فى سورة الجن .

والقرآن بإشارته إلى هذا النفر الغريب عن أهل مكة يريد أن يذكر : أن معارضة المكيين لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تكن معارضة موضوعية . أى لم تكن من أجل ما تضمنته الدعوة من مبادىء وتوجيه . بدليل : أن هذا النفر الغريب عن مكة — لأنه لم يكن مبيتاً فى نفسه : الرفض والكفر ، كما كان هو صنيع المكيين — آمن بالقرآن تواً بعد أن أنصت إليه ، كما أعجب به ، وجاء على لسانه : « فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً »(١) . وبهذا تقوم الحجة على الماديين المؤمنين فى مكة ، عند رفضهم الإسلام وكفرهم به، وكذلك تقوم على كل مادى فى أى عصر يكفر بالله وبهدايته لوقوعه تحت تأثير الاتجاه المادى .

ومثل هذا الفريق الخير من الناس الذى أطلق عليه : اسم : الجن ، لعدم العهد به . . ما جاء فى قوله تعالى: « ولسليمان الريح : غدوها شهر ، ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم

---

(١) الجن : ١

عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من : محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن : أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » ..[1]
فمن يعمل من الجن بين يدى سليمان عليه السلام بإذن ربه كان فريقاً من العمال غير المهرة . وبذلك كانوا مغمورين غير معروفين . ولذا كان هذا الفريق فى حاجة إلى أن يكون عملهم تحت إشراف سليمان نفسه . « من يعمل بين يديه » . أى أنهم لعدم مهارتهم كانوا لا يستقلون بالعمل . والمغمور من الناس مخفى كأنه لا يرى ولا يشاهد . وما جاء بعد ذلك هنا فى قوله : « اعملوا آل داود شكراً » .. يشير إلى الفريق الآخر من العمال المهرة . وهكذا كان فى خدمة سليمان النبى والملك : نوعان من العمال ، مما يدل على أن ملكه فى ذلك الوقت لم يكن لأحد قبله فى السعة والعظمة .

ثم ما ذكر فى سورة : ص . من قول الله تعالى : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين : كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد »[2] .. من التعبير بالشياطين : لا يتعين أن يكون هؤلاء الشياطين من القوى النارية ، وبذلك يتعارض مع حمل « الجن » فى سورة سبأ — فى قصة سليمان — على فريق من البشر غير معهود . إذ الشياطين ، كما تكون من القوى النارية تكون كذلك من الطبائع البشرية : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً : شياطين الإنس والجن »[3] . على أن الشياطين هنا فى سورة : ص . إذا كانت لفريق من البشر فلا يحتم أيضاً أن يكون هو فريق : الجن ، السابق فى سورة : سبأ ، والذى هو فريق خير . فقد كان العمل فى ملك سليمان متعدد

---

(١) سبأ : ١٢ — ١٤ . (٢) ص : ٣٧ — ٣٩ .
(٣) الأنعام : ١١٢ .

الجوانب : فريق الجن السابق كان يعمل فى الصناعة غير الدقيقة ، وهى صناعة الحصون والتماثيل وأدوات الأكل . وفريق الشياطين هنا كان يعمل فى البحار . وغيرهم كان يعمل فى الصناعة الدقيقة مما كان يزين به الهيكل .. وهكذا . وماذكر إذن فى السورتين : سبأ ، و : ص . . هو فى جملته تفصيل لقصة سليمان ، يضاف بعضه إلى بعض فتكمل القصة .

٤ — وقد يطلق : الجن على فريق شرير من القوى النارية . ويكون هذا الفريق عندئذ من الشياطين . على نحو ما جاء فى قول الله تعالى : « .. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً (أى جهلا وحماقة) »[1] .. فقد كان مما أوحى به الله إلى رسوله : محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، بعض ما كان عليه كهان العرب قبل الإسلام من ادعائهم الاتصال بالجن ، أى بتلك القوى الخفية ، كى يقفوا منها على : « الغيب » وأوضاعه وفى الآية التى تلى هذه الآية وهى قول الله تعالى : « وأنهم ظنوا كما ظننتم : أن لن يبعث الله أحدا[2] .. مما يشير إلى نوعية : الجن ، وأن نوعه من النوع الشرير : لأنه ينكر البعث ، كما كان ينكره الماديون جميعاً فى شبه الجزيرة العربية ، وفى مقدمتهم : الكهان : « .. وأنهم ظنوا (أى رجال الجن) — كما ظننتم — (أى أنتم أيها الرجال من الإنس — أن لن يبعث الله أحداً » .

على أن تعبير الآية هنا : « برجال من الجن » وبأنهم : كانوا ينكرون البعث .. كلاهما يحمل احتمال حمل : الجن على فريق آخر من الناس غير ظاهر للعيان ، أقرب . فقد كان معروفاً لدى الماديين الوثنيين من العرب الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر : أنهم يتصورون : الملائكة ، وهى من القوى الخفية — التى تأخذ اسم الجن أيضاً — على أنهم الإناث فقط : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة

(١) الجن : ٦ .
(٢) الجن : ٧ .

ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى »[١] . وهذا التصور لديهم لا يتفق مع ما كانوا يدعونه : من أن كهانهم كانوا يلتقون برجال من الجن لاستطلاع الغيب . إذ الطبيعة التى عرفت بالتنوع بين الذكورة والأنوثة هى طبيعة البشر وحدها ، وليست طبيعة من عداهم مما يقابلهم من الملائكة أو جن : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٢] . « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » .. « وخلقناكم أزواجاً »[٣] .

... ثم إن الملائكة جميعاً — ويطلق عليها أيضاً جن — ما بين مطيع وهم ما عدا إبليس ، وعاص وهو إبليس ، لا ينكرون البعث . فإبليس بعد أن عصى ربه طلب من الله سبحانه أن يمهله إلى يوم البعث ، كما يذكر القرآن الكريم على لسانه : «قال (أى إبليس) : أنظرنى (أمهلنى) إلى يوم يبعثون ! . قال (أى الله جل شأنه) : إنك من المنظرين (أى من الممهلين)»[٤] . وإبليس رجا ربه فى ذلك ، بعد أن طرده الله سبحانه من الجنة عقاباً على استكباره وعدم سجوده لآدم ، كما تقص الآية السابقة على رجائه هنا : « قال (أى الله جل شأنه) : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين (أى أقل شأناً من الإنسان) » .

● وبعد ذلك فالإنسان هو الطبيعة المركبة من مادة الطين أول الأمر ، ثم من ماء مهين ، وهو ماء الذكورة والأنوثة بعد ذلك . يضاف إلى مادته فى تركيب طبيعته : أنه أعد بالإدراك والعقل بجانب المادة فيه . وهذا الإعداد هو ما عبر عنه

---

(١) النجم : ٢٧ — ٣٠ . (٢) الحجرات : ١٣ .
(٣) النبأ : ١٨ . (٤) الأعراف : ١٤ ، ١٥ .

فى سورة الأعراف بقوله : صورناكم فى قوله الله تعالى : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم » .. بعد أن ذكر الخلق . والخلق للإنسان هو على نمط الخلق للجن ، على نحو ما جاء فى قول القرآن الكريم : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم »[١] . . على معنى : أن الخلق فى كل منهما هو الإنشاء من المادة فقط ، ولا يتجاوزها إلى : « الإعداد » . والإعداد هذا : تعبر عنه عبارات عديدة . منها : التصوير ، كما رأينا . ومنها : جعل السمع ، والبصر : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً »[٢] . ومنها : التسوية : « يا أيها الإنسان : ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك ، فسواك فعدلك »[٣] . ومنها : البيان : « خلق الإنسان . علمه البيان »[٤] .. وغير ذلك مما يدل على زيادة عن : « الخلق » فى تكوينه . الأمر الذى يشير إلى تميز الإنسان ، عن الملك أو عن مايسمى بالجن ، من القوى النارية . ولأن طبيعة الإنسان كانت مركبة ، وكانت المادة فى تركيبها هى الطين .. كانت من الطبائع الظاهرة المحسوسة . على عكس طبيعة الملك أو الجن النارية ، فإنها خفية غير مرئية .

* * *

● والملائكة : اسم للطبائع النارية ، أو النورية . وهى طبائع خيرية بقيت على طاعة ربها . وهى طبائع مفردة لا تركيب فيها . ولذا لا تحس ولا ترى ، أى لا تشاهد .. والتعبير عن الملائكة بأنها طبائع نورانية لم يعرف فى تاريخ الفكر الإسلامى إلا بعد أن دخل الفكر الإشراقى . وهو الفكر الفارسى الذى يقوم على النور . . والظلمة كأصلين أو إلهين فى هذا الوجود .

---

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ (٢) الانسان : ٢ .

(٣) الانفطار : ٦ ، ٧ . (٤) الرحمن : ٣ ، ٤ .

• وإبليس ، أو الشيطان : كان ملكا ، ولكنه فسق وخرج بعصيانه وفسقه فقط عن طاعة ربه ، ولم يخرج بذلك عن طبيعة الملك النارية ، كما لم يخرج الكافر بكفره عن طبيعة الإنسان .

• والشياطين هم جنود إبليس . وهم من القوى الخفية التى لاترى فى ذاتها: كالهوى والشهوة فى نفس الإنسان : « ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »(١) . ومعروف : أن الوسوسة خصيصة الشيطان .

وشيطان الإنس : هو من يعرف للناس بشريته وإغرائه وفتنته . وشيطان الجن هو من بقى مجهولا لدى الناس بشخصه ، دون أثره فى الشر فى الصد عن سبيل الله : « قل : أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » .

وعلى هذا التنويع جاء قول الله تعالى : « وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من : الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »(٢) . وجاء قوله . « وقيضنا لهم قرناء (أى شياطين) فزينوا لهم مابين أيديهم وماخلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم ، من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين »(٣) . وكذلك قوله . « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً . شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض : زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه (أى إلى القول المتبادل بين شياطين الإنس وشياطين الجن) أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون »(٤) . فشياطين الإنس هم الفريق الشرير من الناس ، المعروف بشريته

(١) ق : ١٦ . (٢) فصلت : ٢٩ . (٣) فصلت : ٢٥ .
(٤) الأنعام : ١١٢ ، ١١٣ . الفرقان : ٣١ .

للناس فى غير خفاء . بل ربما فى عنجهية وطغيان : كالمستكبرين ، والمترفين ، وأصحاب الزعامات والجاه فى المجتمعات البشرية . وشياطين الجن هم أصحاب النفوس الخبيثة الأمارة بالسوء الذين لا يعرفون بأشخاصهم بين الناس بالشر والصد عن سبيل الله . وهؤلاء ، وأولئكم هم من المجرمين « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ، ونصيراً »[1] . وجاء على هذا التنويع أيضاً قول الله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس (أى من الشياطين) لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[2] .. فوصف القرآن هنا بأن للجن والإنس معاً قلوباً ، وأعيناً ، وآذاناً ، وإن كانوا لا يستخدمونها فيما أعدت له .. هذا الوصف القرآنى يجعل من العسير تصور الجن فى هذا الوضع من القوى النارية المقابلة تماماً لطبيعة الإنسان . إذ الوصف بهذه الخصائص هو ميزة الإنسان على التحقيق ، دون سواه .

● والجن : اسم يطلق دائماً على القوى الخفية أو غير المعهودة ، وغير المحددة بوجه عام . ويطلق على الخير والشرير ، سواء . وإذا كان هناك تقابل تام :

بين : الإنسان ، والملك فى طبيعتهما . .

وبين : الملك ، وإبليس أو الشيطان ، فى الاتجاه والعمل ، أحدهما خير والآخر شرير ..

وبين المؤمن والكافر فى الإنسان ، فى الطاعة وعدم الطاعة .. فإن اسم الجن يتقابل مع الإنسان : من حيث الخفية وعدم العهد فى جانب الجن ، والظهور ، والتشخيص فى جانب الإنسان . كما جاء فى قول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم

---

(١) الأعراف : ١٧٩ . (٢) الاسراء : ٨٨ .

لبعض ظهيراً » . فإن المقـام هنا هو مقام التحدى فى إعجاز القرآن وأنه من الله وحده . والمعنى إذن : لو اجتمعت جميع القوى المخلوقة : خفيها وظاهرها ، على أن تأتى بمثل هذا القرآن .. لعجزت عن الإتيان بمثله .

ولـكن : الجن : كما يطلق على الملك الخير وهو قوة خفية ، يطلق على إبليس وهو الشيطان الشرير . وهو قوة خفية أيضاً من الملائـكة عصى ربه . ويطلق كذلك على فريق من الناس غريب غير معهود : من ذوى الميول الخيرة ، أو ذوى الميول الشريرة ، على السواء .

والأمر الذى يجب أن يؤخذ دائماً فى مفهوم الجن إذن هو : الغرابة وعدم العهد به . دون نظر إلى : معنى الخير والشر فى طبيعته . وبذلك يكون اسم الجن عاماً ، للقوة الخفية المجهولة وغير المعهودة ، من الطين أو النار .

د ـ فى دائرة الانسان :

* مسئولية الانسان . . . .
* مشيئة الانسان . . . .
* كسب الانسان . . . .
* القضاء والقدر . . . .
* الرزق على الله . . . .
* التوكل على الله . . . .
* التـوبة لله . . . .
* الشـكر لله . . . .
* الدعاء لله . . . .
* ذكر لله . . . .

*** مسئولية الانسان :**

• الإنسان فى أجياله المتعاقبة ـ فى اعتبار الإسلام ـ لايحمل خطيئة أومعصية ارتكبها سلف له من قبل . وعصيان آدم فى الجنة كان عصياناً له طابعه الشخصى ، ولم يأخذ الطابع النوعى للإنسان بحال . وجزاؤه على هذا العصيان — لذلك — كان طرده هو وحواء من الجنة : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »(١) . . ولذا فكل مولود يولد .. هو على الفطرة . . لا يحمل وزراً سبق ، ولا يسهم فى خطيئة ارتكبت قبل مولده . وهنا فى الإسلام ليست جريمة ولا ذنب يتوارث : يسأل عنه جيل بعد جيل .

• والطابع الشخصى للمسئولية الإنسانية يبرزه قوله الله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه (أى أن حظ كل إنسان من الخير والشر ، ومن العمل الحسن والعمل القبيح . ملازم ومصاحب له : ومطوق به عنقه ، لا ينفك عنه بحال . وطائر الإنسان ، هو حظه . وجاء استعمال القرآن به ، جرياً على قول العرب: جرى لفلان الطائر بكذا : .. وبكذا ، من الخير والشر ، تفاؤلا أوتشاؤما) ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً (أى مسجلا مفتوحا) : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة (أى لاتحمل نفس خاطئة) وزر أخرى (أى خطيئة نفس أخرى) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (أى لا نجازى أحداً بالعذاب على خطيئته وكفره إلا بعد أن نقيم الحجة عليها بإرسال الرسول المصطفى وبإبلاغ رسالته إلى الناس عامة)(٢) . . فهذه الآيات الثلاث توضح :

---

(١) الأعراف : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) الاسراء : ١٣ — ١٥

أولا ـ أن عمل كل إنسان من صواب وخطأ ، وخير وشر . . يسجل له ، ويصحبه لا يفارقه . ويوم الجزاء يعرض عليه ليراجعه .

وثانياً ـ أن نوع العمل الذى يباشره الإنسان فى حياته ـ إن كان هداية أو ضلالا ، أو حسناً أو سيئاً — هو له وحده ، ولا يختلط بعمل غيره بحال من الأحوال . وأنه مهما كانت هناك صلة وثيقة أو قربى بين إنسان وآخر . . فإن أيا منهما لا يحمل عن الآخر خطأه ، كما لا يضاف إليه صوابه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى »[1] .

ونظرة الإسلام إلى مسئولية الإنسان الشخصية عن عمله .. هى نظرة الرسالة الإلهية منذ أن أتى بها رسول من قبل الله جل شأنه . . حتى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . وذلك فيما يقصه القرآن فى قول الله تعالى :

« أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى (أى قطع عطاءه ويئس من فعل الخير) . أعنده علم الغيب فهو يرى (أى أن لا فائدة من صنع الخير) . أم لم ينبأ بما فى صحف موسى (وهى التوراة) . وإبراهيم الذى وفى (أى وصحف إبراهيم الخليل ، وهى رسالته) . أن لا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى »[2] .. فما فى صحف : موسى ، وإبراهيم ـ وهما من أصحاب الدور الرئيسى فى الرسالة الإلهية للبشر ـ ينبىء فى وضوح : عن تحديد المسئولية الإنسانية الشخصية ، على نحو ما ذكرته آيات القرآن السابقة ، من :

(ا) أنه ليس للإنسان إلا سعيه ، وعمل الخير والصواب ، وأن هذا العمل سوف يعلم ويرى رأى العيان يوم الجزاء .

(ب) ثم : أنه لا تضاف إلى نفس أخطأت فى سلوكها أو فى اعتقادها . . أخطاء نفس أخرى . وإنما هناك عدل تام : إن فى جانب العمل الصالح

---

(١) فاطر : ١٨ .   (٢) النجم : ٣٣ ـ ٤٠ .

فلا تحرم منه نفس باشرته ؛ وإن فى جانب العمل السيء فلا ينقل من نفس مسيئة إلى نفس قد أساءت كذلك .

● وتعود هذه المسئولية الشخصية — فى نظر الإسلام — إلى ما يتميز به الإنسان من عقل وإدراك ، عن بقية الكائنات الأخرى . فتميزه بالعقل جعل له السيادة والخلافة عن الله فى الأرض : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات . . ليبلوكم فيما آتاكم »[1] ولكن فى الوقت نفسه جعله مسئولا فيما يباشره من عمل : « ليبلوكم فيما آتاكم » . . ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة : العقل ، والخلافة عن الله فى الأرض ، وفضل بعضكم على بعض فى مستوى مايرفع به الشأن درجات ، فى المال ، والجاه ، والاستطاعة والطاقات البشرية المتفاوتة .

● وقد صرح القرآن بمسئولية العقل فى الإنسان عن تصرفات الإنسان فى قوله : « ولا تقف ما ليس لك به علم (أى لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك) : إن السمع ، والبصر : والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا »[2] .. فنافذ الإدراك لدى الإنسان هى : سمعه وبصره ، بالإضافة إلى ما يهدى هـــذا الإدراك إلى الصواب ، وهو إيمان القلب .

❋ **مشيئة الانسان :**

● يقول الله تعالى فى شأن طبيعة الإنسان . « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج (أى من نطفة مختلطة من الذكورة والأنوثة) .. نبتليه (أى والغاية من خلقه وهى : ابتلاؤه واختباره فى اتجاهه فى السلوك ، والاعتقاد ، والعمل) فجعلناه سميعا بصيرا (ولكى يمكن من أن يحقق هذه الغاية فيه ، جعل كائنا مدركا عن طريق حواسه ، وبالأخص حاستى السمع والبصر) . إنا هديناه السبيل (أى ولكى

---

(١) الأنعام : ١٦٥ .   (٢) الاسراء : ٣٦ .

يساعد على استخدام إدراكه وعقله استخداماً سليما كانت هداية الله فى رسالة الرسل) : إما شاكراً ، وإما كفوراً (وهو بعد إعداده بالعقل والإدراك . وبعد مساعدته بالهداية الإلهية .. له المشيئة فى الإيمان بالله تعبيراً عن شكره ، كما أن له المشيئة فى الكفر به تعبيراً عن نكران فضل الله ونعمته عليه »(١) .. فهاتان الآيتان تتحدثان عن ثلاث حقائق فى الطبيعة البشرية .

الأولى : أنها طبيعة مختلطة مما للذكورة والأنوثة ، وهى حقيقة مادية نوعية ،

والثانية : أنها طبيعة معدة بالإدراك العقلى ، ومزودة بسبيل الرشد الإنسانى فى اتخاذ المواقف المختلفة التى تعبر عن تميز الإنسان دائماً فى سيادته فى هذه الأرض وتفوقه على الكائنات الأخرى عليها ، وهى حقيقة عقلية أو معنوية ،

والثالثة : أنه أضيف إلى سبيل الرشد الطبيعى فيه — وهو العقل — نوع آخر من الهداية تتضمنه رسالة الله ، وهى حقيقة إلهية .

ويصور الحقيقة العقلية فى الإنسان ومنزلتها فى اتقاء الأخطاء : قوله تعالى فى سورة الأعراف فى مواجهة بنى آدم جميعا : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم (ويقصد باللباس : العقل فى ستر نقائص الإنسان بإبعاده عن الزلل والأخطاء) وريشاً (أى وكما أنه ستار يحول دون النقائص وارتكاب الأخطاء ، فهو زينة فى الوقت نفسه .. كريش يتزين به الإنسان . لأنه طالما أنه : من شأنه أن يقلل من أخطاء الإنسان .. فإنه من غير شك : يظهر الإنسان فى صورة جميلة مقبولة) ولباس التقوى ذلك : خير (أى وهذا العقل فى الإنسان الذى يتقى به الأخطاء ما أمكن ، وهو أشبه باللباس فى الستر .. هو خير من عند الله ونعمة من نعمه الكبرى) ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (وهو لهذا : نعمة من نعم الله على بنى آدم . ويرجى منهم لذلك : أن يتذكروا هذه النعمة باستخدامها فى

---

(١) الانسان : ٢ ، ٣ .

وضعها الصحيح ، وعدم تعطيلها بالوقوع تحت تأثير الاتجاهات المادية التى تحيل مستوى الإنسان إلى مستوى مادى بحت ، وتعزله عن العقل وحكمته فيه ، كما تعزله عن هداية الله وإرشاده فى رسالته) »[1] .

● وهداية الله فى رسالته إذن لا تقف من الإنسان موقف الإلزام والإكراه . وإنما تقف منه موقف المساعد فقط عند طلب المعاونة . وهذا هو ما تسجله الآية الثالثة السابقة فى سورة الإنسان: «إنا هديناه السبيل، إما شاكراً ، وإما كفوراً» . فوضع الإنسان هنا إزاء هداية الله هو : وضع المختار بين الإيمان والكفر بها . . هو وضع صاحب المشيئة . . هو وضع البعد عن الإكراه والإلزام . ويؤيد هذا الوضع قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » .

وهنا تبدو صلة الله بالإنسان ، كما تبدو صلة الإنسان بالله فى الإيمان والكفر ، وفى العمل الصالح ، والسيىء ، وفى استقامة السبيل فى الحياة ، وارتكاب الجرائم والمعاصى فيها . فالإنسان صاحب مشيئة مبدئية فى ذلك كله . وهداية الله للإنسان هى : فى توفيقه إلى الأخذ برسالته . . هى فى مساعدته بالميل على الانتفاع بها . . هى فى إرسال الرسول بهذه الهداية : « قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وان اهتديت فيما يوحى إلىّ ربى »[2] . . « وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »[3] .

. . وعندما اقترف آدم وزوجه حواء معصيتهما فى الجنة اعترفا : بأنهما هما . باشراها من أنفسهما : « قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا »[4] . واعتبر سلوكهما معصية لأنهما خالفا فيه أمر الله فقط ، ولكنه لم يخرج عن كونه باختيارهما : « ويا آدم : اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (أى لنفسيكما) »[5] .

(١) الأعراف : ٢٦ .
(٢) سبأ : ٥٠ . (٣) الكهف : ١٩
(٤) الأعراف : ٢٣ . (٥) الأعراف : ١٩ .

• والغاية من عقل الإنسان التى تـكمن فى الابتلاء والاختبار . . تتحقق بالابتلاء بالخير والنعمة ، والشر والحرمان على السواء : « ونبلونـكم بالشر والخير فتنة »[١] .. « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم : أيهم أحسن عملا »[٢] . «ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات»[٣] . ومعنى ابتلاء الإنسان واختباره : أن يوضع أمام متع الدنيا مرة ، وأمام الحرمان منها مرة أخرى ، ليعرف مدى قدرته على ضبط نفسه : هل سينجرف فى تيار الترف والعبث بالمتع المادية إن واتته ، وهل سيضيق ذرعا بالحياة وتتملـكه روح اليأس عندما يحرم منها ؟ . ونداء عقله فى الحالين ، هو : الصبر وضبط النفس ، وهو نفسه رسالة الله للإنسان ، لأن أيًا من الأمرين ـ اليسر ، والعسر ـ لايدوم . وإنما التعاقب بينهما هو قانون الحياة . والباقى للإنسان أبدا : هو محافظته على مستوى إنسانيته : باتباع عقـله ، وهداية الله ، وهى تساوق العقل فى طريقـه الصحيح .

* كسب الانسان :

• يسند القرآن : الـكسب إلى الانسان . وهو كسب مال ، أو قوة ، أو كسب عمل سيىء أو صالح . ففى جانب كسب المال يقول تعالى فى سورة المسد ـ كجزاء لأبى لهب — « ما أغنى عنه ماله وما كسب (أى لم يجد نفعاً له : ما كان يملك من رأس مال وما حصل عليه من أرباحه . . فى وقايته من عذاب الله له فى دنياه وفى آخرته) »[٤] . . ويقول : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لـكم من الأرض »[٥] . . فهو فى الوقت الذى يضيف فيه الله إلى المؤمنين وإلى نشاطهم : كسب المال — بجانب مساعدتهم على إنبات

(١) الأنبياء : ٣٥ . (٢) الكهف : ٧ .
(٣) البقرة : ١٥٥ .
(٤) المسـد : ٢ . (٥) البقرة : ٢٦٧ .

ما فى الأرض — يحثهم على أن ينفقوا للمحرومين وأصحاب الحاجة من طيبات ما كسبوا ولا يقصدوا الخبيث منه والردىء : فيخرجون منه .

وفى جانب كسب المال ، والقوة المادية يذكر القرآن قول الله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة ، وآثاراً فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون »[١] .. والقصد بكسبهم : ما أعدوا به أنفسهم من قوة العدد ، والعدة ، وقوة المال والبنيان والعمارة فى الأرض ، وقوة السلطة والتمكن .

● ويأتى الكسب بمعنى السعى فى تحصيل العمل السيىء ، أو فى تحصيل العمل الصالح : « تلك أمة قد خلت (وهى أمة إبراهيم وبنيه) : لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون »[٢] .. أى كل أمة لها شأنها فى مسئولية العمل الذى تأتى به . وكما أن كل فرد : له — أو عليه — نوع ما يحصله من عمل .. كذلك كل أمة وجماعة مسئولة عن كسبها الخاص فى العمل . ثم يأتى ذلك المبدأ العام : « كل امرىء بما كسب رهين »[٣] .. ويأتى ما وجهه الرسول عليه السلام إلى أهله : « يا بنى هاشم ! : لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم » .

فللإنسان كسب ، وإرادة خاصة به مستقلة : فى تحصيل المال .. أو فى إعداد القوة .. أو فى السلوك السيىء ، أو فى السلوك الحسن . وبسبب إرادته المستقلة فى كسبه .. كانت مسئوليته الشخصية ، وكان جزاؤه بالسوء ، أو بالحسنى : على توجيه ما يكسبه . فى : تحصيل المال .. أو فى إعداد القوة .. أو فى التمكن من السلطة ، إن فى سبيل الخير أو فى سبيل الشر .. وكذلك على ما يكون عليه كسبه : أن يباشر عملا سيئاً ، أو غير سيىء .

---

(١) غافر : ٨ (٢) البقرة : ١٣٤ .
(٣) الطور : ٢١ .

والإنسان — فى نظر القرآن إذن — ليس سلبياً ، ولا متواكلا . والآية التى عبرت سابقاً بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : أنفقوا من طيبات ما كسبتم . . ومما أخرجنا لكم من الأرض » . . فميزت : بين عمل الإنسان . . وعمل الله : فأسندت إلى الإنسان : كسباً . . وإلى الله إخراج مافى الأرض . . هذه الآية تحدد النظرة الواضحة إلى الإنسان: على أنه إيجابى ، وعلى أنه : صاحب مسئولية فى العمل من أجل معيشته ورزقه . . وصاحب مسئولية كذلك : فيما يباشره من عمل سيء ، أو صالح .

• وما جاء فى بعض الآيات التى تجعل الله متكفلا برزق الإنسان ، فى مثل : «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» .. فإن الآية ذاتها تنطوى على عمل خاص بالإنسان كذلك . إذ الدابة — وهى كل ما يدب على الأرض ويتحرك فيها من مخلوقات الله — لا تستحق هذا الوصف « بالدابة . . إلا إذا تحركت بالفعل . وليست حركتها إلا السعى أو العمل . وإلا لم تكن دابة ، بل كانت جماداً .

وما جاء فى بعض الآيات الأخرى التى تنسب الضلال ، والهداية إلى الله : « يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء » . . وبذلك يبدو الإنسان مسلوب المشيئة نحو الإيمان والكفر ، ونحو العمل السيء والعمل الصالح .. ما جاء على هذا النحو لا يرفع مسئولية الإنسان ، ولا كسبه الإرادى . فتدخل مشيئة الله فى إيمان من يؤمن ، أو فى كفر من يكفر : عن طريق رسالته التى يوحى بها إلى رسوله . والإنسان فى قبولها أو فى رفضها : حر ، وصاحب اختيار ومشيئة . وليست للرسول المرسل عليه : ولاية الإلزام بالهداية . وإيمان من يؤمن : يرجع إلى تحكيم المنطق وعدم التأثر بجو البيئة ، وكفر من يكفر : يعود إلى المصالح الخاصة التى يفيدها بسبب كفره .

* **القضاء والقدر :**

• قضاء الله هو ما يقع فى كونه تنفيذاً لإرادته ، ولمصلحة عباده . وإرادته سبحانه وتعالى إرادة نافذة لا يحول دون تحقيقها أى حائل : « وقالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له مافى السموات والأرض ، كل له قانتون (أى خاضعون ومطيعون) . بديع السموات والأرض (أى خالقها على غير مثال ونموذج) وإذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن . . فيكون (أى وإذا أراد أمراً فى كونه ، وامباده .. تحقق ووقع فور ما يريد »[1] .. والتعبير بقوله : كن فيكون .. قصد به فقط : أن إرادته جل جلاله لا تعطل بحال. وإذا كان هناك فى الوجود مالايعطل إرادته سبحانه وتعالى فهو المتفرد فى صفات الخلق ، والقدرة ، والإرادة . . هو المتفرد وحده فى الكمال . ولذا : لا يكون هناك من يشبهه .. لا يكون هناك ولد له . إذ شأن الولد أن يكون مشاركا لوالده فى الصفات .

• وإرادة الله فى عالم الإنسان يصورها : « قانون عام أو مبدأ عام » من تلك القوانين والمبادىء التى تحكم الحياة الإنسانية للأفراد والمجتمعات .

فوحى الله فى كتابه يمثل إرادة الله وقضاءه . وهذه الإرادة تتبلور فى مجموعة من القوانين والمبادىء التى تنتظم سلوك الإنسان ، وتحدد دائرة اعتقاده . يقول الله تعالى . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً : أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »[2] .. وقضاء الله ورسوله الذى تجب على المؤمنين والمؤمنات طاعته وعدم مخالفته هنا — وليس لهم خيار بالتالى فى قبوله أو فى رفضه — هو ما أوحى به الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى قرآنه الكريم . وما جاء فى هذا القرآن الكريم هو ضوابط ، أو قوانين ، أو أحكام عامة تحدد الروابط الإنسانية بين الفرد والفرد ، والأفراد

---

(١) البقرة : ١١٦ ، ١١٧ .   (٢) الأحزاب : ٣٦ .

بعضهم مع بعض فى الأمة . فى شئون المعاملات المختلفة ، وشئون الأسرة ، وشئون الأمة كدولة فى سياستها الداخلية ، وفى علاقتها الخارجية مع أمم لا تسلك مسلكها فى الاعتقاد والإيمان .. وفيما قبل هذا كله : تحدد صلة الفرد بالله فى عبادته ، وفى أداء فروض هذه العبادة .

والقرآن لايتناول هذه الشئون كلها إلا فى صيغ عامة . كصيغة المؤمن والمؤمنة هنا ، بغض النظر عن أشخاص المؤمنين والمؤمنات فى عهد أو عهود مختلفة . . كما لا يتناولها إلا داخل إطار عام كإطار وجوب الطاعة لأوامر الله — أى أوامر له — وربط الضلال بالعصيان والمخالفة لأى أمر منها . وإذا ذكر فى تفسير بعض ما جاء فى القرآن سبب خاص فإن هذا السبب الخاص لا يحول دون بقاء ما ورد فيه على عموم لفظه . ولذا يؤثر عن علماء أصول الفقه قولهم : العبرة بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب .

وربط النتائج بمقدماتها فى ترقب وقوع النتائج وتحققها عندما توجد مقدماتها فى حياة الأفراد والمجتمعات كقوانين عامة ، بغض النظر عن تحديد الجزئيات .. يصور كذلك قانوناً عاماً اقتضته إرادة الله : كربط ضرورة تغير المجتمع بفساد كبرائه ، على نحو ما يذكره قول الله تعالى . « وإذا أردنا أن نهلك قرية (أى أن نطيح بمجتمع وتبيد نظامه وأسسه) أمرنا مترفيها ففسقوا فيها (أى جعلنا أصحاب الترف فى المجتمع هم : أصحاب الشأن وأولى الأمر. وبذلك تتاح لهم الفرصة للخروج السافر عن القيم العليا فى سلوكهم ومواقفهم) فحق عليها القول (أى وعندئذ ينطبق على هذا المجتمع العابث : قضاء الله بتغييره) فدمرناها تدميراً (أى وليس بعد قضاء الله بالتغيير : إلا نفاذ قضائه وإرادته فى الوقت المعلوم له : « وما أهلكنا من قرية (أى مجتمع) إلا ولها كتاب معلوم (أى أجل محدد) . ما تسبق من أمة

أجلها وما يستأخرون »(١) . . فمثل هذا الربط بين المقدمات والنتائج فى تعاقب المجتمعات البشرية هو ربط عام لا يتقيد بمجتمع معين . وإنما كلما انتشر الفساد فى صوره المختلفة فى أى مجتمع ، وفى أى عهد أو جيل، على أيدى الزعماء والكبراء فيه .. كلما يتوقع له التغيير . ولكن متى يقع هذا التغيير فذلك أمره عنده الله : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » . وهذا الربط العام — أو هذا التلازم بين المقدمات والنتائج فى حياة المجتمعات البشرية — يصور قضاء الله وإرادته التى لا تقبل التعطل عن النفاذ بأى حال .

وقد يكون لهذا القانون العام أمثلة جزئية وقعت بالفعل فى حياة هذه المجتمعات . كما يقص القرآن الكريم — مخاطباً الرسول محمداً عليه السلام تطميناً ومؤكداً له : عدم تخلف هذا القانون — فى قول الله تعالى : «وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود . وقوم إبراهيم . وقوم لوط . وأصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ، (أى أمهلتهم) ، ثم أخذتهم (أى نفذت فيهم قضاء الله بالتغيير) فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة ، وقصر مشيد»(٢) .. وبعد أن أعطت هذه الآيات الأمثلة الجزئية لتطبيق قضاء الله وإرادته كقانون عام .. عقبت بذكر هذا القانون العام مرة أخرى فيما تقوله : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها » .. وبذلك أعادت الربط بين ضرورة تغيير المجتمع ووقوع الظلم فيه. وليس الظلم إلا فساداً ، وإلا كفراً برسالة الله .

*** الرزق على الله :**

● يقرأ المسلم ، أو يسمع قول الله تعالى فى كتابه العزيز : «إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »(٣) . كما يقرأ ، أو يسمع : « وما من دابة فى الأرض إلا على

---

(١) الحجر : ٤ ، ٥ .
(٢) الحج : ٤٢ — ٤٥ .
(٣) الذاريات : ٥٨ .

الله رزقها »[1] . ثم يقرأ أيضاً ، أو يسمع . « له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم »[2] . . . فيعتقد أن الله هو الذي يرزق ، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . ولأنه الرازق — ولا أحد سواه في الوجود يشاركه في ذلك — أوجب على نفسه وتعهد برزق كل كائن يتحرك ويدب على هذه الأرض .

وما يعتقده المسلم ، عندما يقرأ ، أو يسمع مثل هذه الآيات . . صحيح في الاعتقاد . وواجب كل مؤمن بالله أن يعتقد فيه : أنه وحده هو الرزاق ذو القوة المتين .

● ولكن الله سبحانه وتعالى عندما يضيف إلى نفسه وحده صفة الرزق لعباده — ولكل كائن يتحرك على هذه الأرض — يريد أولا وبالذات أن ينفي : أن له أنداداً وشركاء تعبد من الناس معه وأنها تؤله وتقدس ، كما يؤله ويقدس هو ، جل شأنه ، لما لها من فاعلية في حياة هؤلاء تستحق أن تعبد من أجلها . نقرأ قوله تعالى : « يا أيها الناس ! اعبدوا ربكم الذي خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً ، وأنتم تعلمون »[3] . ففي هاتين الآيتين يوجه القرآن إلى الناس كافة — من يتشبث بالشرك . . ومن هو على استعداد للإيمان — النداء يطلب فيه عبادة الله وحده : «اعبدوا ربكم» . ثم يذكر من أفعاله ونعمه القريبة الملموسة ما يوجب على الناس جميعاً أن تكون عبادتهم له وحده دون غيره . فيذكر :

خلقه لهم ،

(١) هود : ٦ . (٢) الشورى : ١٢ .
(٣) البقرة : ٢١ ، ٢٢

وتمهيد الأرض لعملهم فيها ،

ورفع السماء كظلة للوقاية .

وإحداث المطر للمعاونة على إنبات الثمرات فى الأرض مما يصفها بأنها رزق لهم . ويرتب على ذكر هذه النعم نتيجة واحدة ، هى طلب عدم الشرك : « فلا تجعلوا لله أنداداً (أى شركاء) وأنتم تعلمون (أى مع علمكم بهذه النعم وحقيقة فاعلها وهو الله — وليس هناك من لا يعلمها لأنها نعم لا يتجاوزها الحس بحال : فالبصر يدركها ، واليد تعمل فيها ، والمعدة تتقوت بها » .

فإذا حدث المطر والله فاعله ـ وأنزل من السماء ماء ـ ونبت به الثمر الذى هو رزق للناس ، فهذا الرزق من الله لأنه نتيجة لفعله وهو وحده ، ولم يكن لشريك هو ند له ، خالصاً أو على سبيل المشاركة معه .

● وكذلك عندما يضيف القرآن إلى الله سبحانه رزق الإنسان .. لا يقصد بذلك : أن يكون الإنسان « سلبياً » متواكلا أو متراخياً عن العمل.. لا يقصد أن يجلس الإنسان فى انتظار رزقه حتى تفتح أبواب السماء عليه . إن القرآن الذى يقول : « وآية لهم : الأرض الميتة ، أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات : من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون»[1] .. ويقرن فضل الله بعمل الإنسان معه فى إيجاد هذه النعم .. إن هذا القرآن الذى يصنع ذلك يضع الإنسان فى رزقه أمام مسئوليته نحو العمل والسعى فى سبيل هذا الرزق .

وإلا إذا لم يكن للإنسان عمل : فيم يمتن الله على الإنسان فى قوله : «وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا »[2] .. فيقسم الزمن فى حياته إلى قسمين : قسم لراحته وسكنه ونومه ، وقسم آخر لمعاشه والسعى والعمل فى سبيله ؟ . إنه لا معنى

(١) يس : ٣٣ — ٣٥ .   (٢) النبأ : ١٠ ، ١١ .

لأن يكون النهار معداً بضوء الشمس فيه ومخصصاً لمعاش الإنسان ولا يعمل الإنسان بمساعدة ضوء الشمس على العمل فيه من أجل المعاش . إذ عند ما لم يعمل الإنسان يستوى لديه الوقت : فى ظلمة الليل ، دون حاجة إلى ضوء النهار .

وإلا أيضاً : فيم يطلب الله من المؤمنين فى كتابه الحكيم ، أن ينتشروا بعد أداء صلاة الجمعة فى الأرض ويبتغوا من فضله — أى من رزقه — على حين يطلب إليهم الكف عن العمل عندما ينادى لصلاتها ، والسعى إليها . « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(١) ؟.

إن المسلمين هنا عندما نودى لصلاة الجمعة كانوا يباشرون عملا بالفعل وهو التجارة ، وطلب إليهم القرآن أن يتركوا العمل .. لحين الانتهاء من أدائها . ثم طلب إليهم استئناف العمل بعد أن تؤدى الجمعة . ومثل ممارسة التجارة . ممارسة أى عمل آخر هو مصدر للمعاش . فإذا لم يكن العمل مطلوبا لم يطلب إليهم القرآن ثانية أن يستأنفوا مباشرته .

والقرآن عندما طلب مباشرة العمل بعد صلاة الجمعة لم يحدد العمل بالبيع والتجارة التى سبقت الصلاة . وإنما طلب العمل بوجه عام: « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . وطلبه فى أى مكان قريب أو بعيد فيه يسر أو مشقة ، على حد سواء .

فالقرآن بإضافة « الرزق » إلى الله لا يحول دون العمل من الإنسان فى سبيله . بل مع إضافة الرزق إلى الله يطلب من الإنسان : الإنتشار فى الأرض والقصد إلى تحصيل فضل الله بنعمته فى هذه الأرض ، وهى متنوعة وعديدة ، على ظاهرها وفى

---

(١) الجمعة : ١٠ ، ١١ .

باطنها ، وفى جبالها وأوديتها وبحارها ، ويستخدم نعمة الله الأخرى عليه فى سبيل معاشه ، وهى نعمة النهار والليل ، فيسعى فى النهار ويسكن ويخلد إلى الراحة بالليل، حتى يستطيع أن يجدد نشاطه لفترة العمل التالية وهى فترة النهار فى غـده . وهو القرآن نفسه الذى ربط فضل الله فى إحياء موات الأرض بعمل الإنسان فيها ، وجعل هذا العمل الإنسانى جزءاً لا يتجزأ فى إخراج ما يخرج منها من طيبات هى رزق الإنسان .

وإنمـا يقصد القرآن بإضافة الرزق إلى الله أن يلفت نظر الإنسان إلى أن الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه . فليس فى الوجود كائن آخر ، من إنسان وخلافه ، يرزق الإنسان فى معاشه حتى يدين له بالفضل فيعبده ويشكره مع الله الخالق المنعم . . يقصد القرآن بإضافة الرزق إلى الله أن يشعر الناس بكرامتهم فى البشرية بالمساواة فيما بينهم ، فلا أحد يرزق آخر وإن ملك ما ملك : «والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » .

● ولـكن الذى ليس بصحيح فى اعتقاد المسلم عندما يقرأ ، أو يسمع القرآن يتحدث عن إضافة الرزق إلى الله ، هو أن يتواكل ويتراخى فى انتظار أبواب السماء ، تفتح وتمطر ذهباً أو فضة عليه .

*** التوكل على الله :**

● إن الإنسان أمام « المفاهيم » فى اللغة يختلف وضعه من القوة إلى الضعف ، ومن الضعف إلى القوة . فالأصل فى المفهوم أن يعطى مدلولا محدداً ، يمليه الجو الذى قيل فيه . ولـكن قد يسقط الإنسان هذا الجو المحيط بالمفهوم ، ويقف به عند اللفظ وحده . وعندئذ يكون قد انتقل المفهوم عن المدلول الأصيل لمدلول آخر ، وهو أقرب أن يـكون لفظياً ولغوياً ، أى أقرب إلى أن يـكون شكلا لا يحمل معنى إطلاقا .

والمفاهيم الدينية لا يختلف شأنها عن بقية المفاهيم الأخرى ، طالما الإنسان هو الذى يغير موقفه منها ، وطالما هو الذى ينقلها مما تحمله أصلا من طابع عملى .. إلى أشكال لا تحمل أى واقع إطلاقاً .

والقرآن بمبادئه من أجل ذلك قد يوجد فى حياة المؤمنين به : أن قوى ارتباطهم به ، وقد يرتفع من حياتهم العملية ويصبح ألفاظاً ومفاهيم ينطقون بهـــا ويتحدثون عنها ، ولـكن لا يجدون لها أثراً فى التطبيق والواقع الذى تسير عليهم حياتهم ، وذلك عندما يخف الإيمان به ، أو يتحول إلى شعار فقط .

• كثير من المفاهيم الدينية اليوم فى مجتمعات المسلمين تختلف عما يريده القرآن الـكريم لها ، وتختلف أيضاً عما طبق من قبل فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وحياة المؤمنين حقاً برسالة الله :

فالتوكل على الله ـ مثلا كما يفهم من جو القرآن الـكريم ـ هو قوة نفسية لها فاعليتها ، وتدفع فى غير تردد على ما يصمم المؤمن على تنفيذه . نقرأ قول الله تعالى فى قصة نوح عليه السلام فى مواجهته لقومه : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم ! : إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت (أى إن شق عليكم نفسياً وجودى فيما بينكم وترديدى لرسالة الله فى مواجهتكم فأنا رغم ذلك مستمر فيها ومتوكل على الله) فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يـكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلىّ ، ولا تنظرون . (أى ولـكم أن تتفقوا على الخطة فيما بينكم التى تواجهوننى بها ، وأن تتفقوا أيضاً على أن تستعينوا بشركائـكم ضدى ، على أن يكون الأمر فى ذلك واضحاً لكم ، ثم اقضوا بما تشاءون علىّ ـ ولو بالموت ـ وواجهونى بما تقضون به ، ولا ترجئوا لحظة واحدة تنفيذ ما حكمتم به)[1] » . فنوح فى موقفه من قومه الذى ينكر عليه رسالته يعلم تمام العلم مدى

---

(١) يونس : ٧١ .

تحديه له على هذا النحو ، ولـكن إيمانه برسالة الله ، وعزمه على الفناء فى سبيلها ، كان أقوى من تحدى قومه إياه . وقد أضاف إلى قوة إيمانه برسالة الله : توكله على الله واستعانته به . فزادت قوة مواجهته ، وتحدى الموت لو قضوا به عليه ، وطالب بعدم إرجاء ما يحكمون به عليه .

نهنا : التوكل على الله قد سبقه إيمان قوى ، وتصميم مؤكد على الاستمرار فى الدعوة لرسالة الله ، وهى رسالة ضد الباطل ، ورسالة الخير ضد الشر ، ورسالة الروحية ضد المادية الطاغية .

ويزيد فى توضيح هذا المفهوم للتوكل على الله ، وأنه نهاية لإيمان وعزم سابقين على تنفيذ أمر خير حق قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[1] ..

فهاتان الآيتان يوجههما القرآن الـكريم لرسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ناصحاً إياه :

أولا : فى أن لا يستمر فى غضبه على ذلك الفريق من المسلمين الذى تخاذل فى غزوة « أحد » ضد المشركين فى سبيل الإيمان بالله ، وانصرف إلى الغنيمة فور أن بدرت بادرة فى نصر المؤمنين عليهم ، وأن يعفو عنهم — جميعاً لصفوف الأمة — ويستغفر الله لهم .

وثانياً : فى أن يستشيرهم فى أمور الأمة ، فإذا خلص ـ من المشورة ـ إلى : رأى معين ، وعزم ، وصمم عليه ، فليتوكل على الله وليثق بنصره ومعاونته .

فالتوكل على الله ـ الذى طلبه القرآن هنا من الرسول عليه الصلاة والسلام ـ

(١) آل عمران : ١٥٩ .

هو خطوة تلى قيامه بمشورة أمته ، واستخلاصه الرأى المتفق عليه ، وعزمه وتصميمه على تنفيذه .

والتوكل على الله ـ أو الثقة فى الله وفى نصره ومعاونته ـ يكون مثمراً للإنسان المتوكل ، وذا إيجابية فى حياته ، إذا تقدمه إيمان قوى بالحق فى نفس من يتوكل على الله ، وتقدمه كذلك فى نفسه أيضاً : تصميم على تنفيذ ما يؤمن به . فهنا عنصران لجعل التوكل ذا فعالية وذا أثر فى حياة الإنسان ، وهى :

الإيمان بالحق وبالخير .

والعزم والتصميم .

فإذا انعدم الإيمان ، أو كان الإيمان بغير الحق وبغير الخير ، أو انعدم العزم والتصميم على تنفيذ الايمان ، فالتوكل على الله لا يفيد من يعلن توكله عليه. ولهذا : إعلان التوكل على الله غير مجد فى حياة من يعلنه ، إذا افتقد عنصراً من هذين العنصرين . وتوكل المسلمين اليوم على الله لا يصاحبه النجاح المؤمل فيه ، لأنه إعلان « لشعار » فحسب ، دون أن يكون فى نفس المعلن لهذا الشعار إيمان بما لله فى رسالته . وبذلك يختلف التوكل على الله ، الذى هو مصدر للعون فى النصر والرعاية ـ كما يتحدث عنه القرآن ـ عن التوكل على الله الذى يعلنه المسلمون فى حاضرنا شعاراً وقولا ، دون أن يكون له واقع فى نفس المعلن إياه « فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين ».. بهذا يعلل القرآن طلب التوكل على الله من رسوله صلى الله عليه وسلم .. يعلله بأنه على الحق المبين .. أى على الإيمان به وعلى العزم والتصميم فى الدعوة إليه .

إن التوكل على الله ليس لفظة سحرية ينطق بها الناطق فيجاب إلى مايرغب . إن التوكل على الله يستلزم قوة الإيمان بالله ، كما يستلزم صلابة العزم والإرادة على العمل : فى غير ضعف ، أو تردد ، أو انقطاع .

* **التوبة الى الله :**

• قد نرى كثيراً من الناس — فى حاضرنا اليوم — يعلنون التوبة إلى الله عن ذنب أو خطأ ارتكبوه فى سلوكهم مع أنفسهم أو مع الآخرين. ويعتقدون أنهم بإعلانهم التوبة إلى الله قد زالت آثار ذنبهم أو أخطائهم وأصبحوا مقبولين عند الله . ثم يستأنفون نفس السلوك الذى يتضمن الذنب أو الخطأ ، أو يرتكبون ماهو أشد قبحاً من سابقه ، ويعلنون بعده : التوبة إلى الله ، ويعتقدون كذلك : أنهم أصبحوا مطهرين من ذنوب الماضى وأخطائه . وهكذا ... تمر حياتهم بين أخطاء ترتكب، وتوبة إلى الله تعلن . وكأن إعلان التوبة ممحاة تمحى بها الذنوب والأخطاء فى أفعال الإنسان وتصرفاته ، التى تنطوى على سوء أو قبح للذات أو للآخرين .

والتوبة على هذا النحو أشبه بلعبة يلعب بها المذنب ولا يدرى : أن الذى يقبل التوبة من عباده هو الله الذى له ملك السموات والأرض ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الجبار المتعال . وهكذا تحولت التوبة إلى الله إلى « شعار » يردد ، دون أن تكون له حقيقة واقعة فى حياة التائب ، والذى حولها هو الإنسان المسلم عندما خف إيمانه وأصبح هذا الإيمان « شهادة » يتلوها بقوله : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » من غير أن يستجيب عمليا لدعوة الحق فى توجيه الإنسان ، وتصرفاته ، وهدايته إلى الصراط المستقيم .

• وإذا عدنا إلى القرآن لتحديد معنى « التوبة » إلى الله وجدنا : أن « التوبة » مقترنة بأمرين :

أولا : بتصفية الماضى كله وعدم العودة إليه نهائياً ،

ثانياً : بانتهاج المنهج السليم فى العمل والسلوك ، وفى المعاملة والعلاقات بين الناس ، طبقاً لمنهج الإسلام فى العقيدة والشريعة معاً .

فمن تصفية الماضى يقول الله تعالى للذين يتعاملون بالربا : « وإن تبتم فلكم

رؤوس أموالكم ، لاتظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون[١] » .. فيطلب القرآن لكى تتم التوبة من المرابين : أن يتنازلوا فى ديونهم عن جميع الزيادات الطارئة على رؤوس أموالهم التى أقرضوها ، بحيث لا يكون هناك ظلم لأحد : لا لهم .. ولا للمتعاملين معهم . ثم للتدليل على النوايا الطيبة والإخلاص فى التوبة .. يجب أن يؤجل المدين الى حين يساره ، إن لم يتنازل له كلية عن الدين . والتنازل عن الدين كله هو فى مصلحة أولئكم الذين كانوا يتعاملون بالربا ، قبل أن يكون فى مصلحة المتعاملين معهم وهم المدينون : « وأن تصدقوا (أى برأس المال والزيادة عليه) خير لكم إن كنتم تعلمون » . لأن هؤلاء المدينين لا تنطوى نفوسهم بسبب قسوة المعاملة وهم أصحاب حاجة ماسة ـ إلا على ـ الحقد لمن قسى عليهم . وساعة أن يتنازل لهم عن الدين يتبدل حقدهم إلى صفاء ، فمحبة ، والحقد شر ما يبتلى به الإنسان .

وعن الأمر الثانى وهو انتهاج المنهج السليم فى العمل والسلوك يقول سبحانه جلت قدرته : « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم »[٢] .. فيربط القرآن غفران الله وقبوله للتوبة .. بتوبة التائب عن عمله السيء الذى صدر عنه من غير قصد ، والتزم حين توبته فى عزم وإرادة قوية : بتغيير عمله ، فى نوعه وفى أسلوبه ، بحيث يكون عمله الجديد تعويضاً عن الماضى وإصلاحا لأخطائه . أما إذا أعلن التوبة واستمر على منهجه فيما قبل التوبة ، فتوبته عندئذ هى شعار فقط ، يرفع دون أن يثمر : «وليست التوبة للذين يعملون السيئات»[٣] . أى الذين يستمرون فى عمل السيئات ، سيئة بعد أخرى .

---

(١) البقرة : ٢٧٩ .
(٢) النحل : ١١٩ :
(٣) النساء : ١٨ .

وهكذا : نجد حقيقة : « التوبة إلى الله » مركبة من أمرين : من الندم على ذنب فات ووقع من غير قصد ، ومن مباشرة العمل المثمر الصالح الذى توحى به هداية الله تواً فى غير إبطاء ، وفى عزم أكيد : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم »(١) . والذين يعمدون إلى السوء ويقصدونه ، ثم يعمدون إلى إعلان التوبة ، قلما تقبل توبتهم : لأن قصدهم إلى السوء لا يحقق ندمهم على اقترافه .

وإن أمارات الضعف المسلمين هى فى أن تتحول مفاهيم دينهم إلى شعارات ، تظل بعيدة عن التطبيق فى حياتهم . وإن أمارات قوتهم وقربهم إلى الله هى فى أن تكون حياتهم العملية تعبيراً عن إسلامهم ، بدلا من أفواههم وأقوالهم التى لا مدلول لها .

* الشكر لله :

إذا رجعنا إلى القرآن الكريم لتحديد معنى : « الشكر » وجدنا أن شكر الله هو فى اتباع هدايته ، وفى الالتزام بالإيمان به وبرسالته : فمعناه تطبيقى وعملى ، أكثر منه نطقاً وترديداً للفظه .

فصاحب المال والثروة إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته فى المال . وهداية الله فى المال : أن يكون للآخرين منه نصيب ، وراء الزكاة ، حسبما يستطيعه صاحبه ، دون أن يلحق عطاءه بمنّ أو أذى ، ودون أن يشعر صاحب الحاجة بأن ما يأخذه هو من مال المعطى ، بل من فضل الله ورزقه : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون ؟ » .

---

(١) الأنعام : ٥٤ .

وصاحب العلم أو التوجيه إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في العلم والتوجيه. وهداية الله في العلم والتوجيه أن لا يكون العلم للرياء، أو يستخدم وسيلة للشر أو لإقلاق الآخرين وتهديدهم. وأن لا يكون التوجيه للإغراء والخداع والإفساد. وإنما يتجه العالم بعلمه — في أي موضوع — إلى خير الإنسانية ونفعها، ويتجه الموجه بتوجيهه إلى الحق، والعدل، والمحافظة على حرمات: النفس، والمال والعرض.

وصاحب السلطة؛ أو الوظيفة العامة إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في السلطة والوظيفة. وهداية الله فيهما: في تجنب الطغيان، والابتزاز، والاستغلال، والإنحراف عن طريق أية منهما.. في جعل السلطة والوظيفة للخدمة العامة، ولتيسير الأمر عن من يلتجىء إلى صاحب السلطة، أو الوظيفة.

والمتولى للقضاء إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في ولاية القضاء. وهداية الله فيه: في التزام العدل المطلق، حسب الطاقة البشرية، وتوخي البعد عن إثارة اللجاجة في الخصومة.

والعامل وصاحب العمل إذ يشكران الله يشكرانه باتباع هدايته في العمل. وهداية الله في العمل هي: في الأمانة في أدائه، وإتقانه من جانب من يباشره، وفي الوفاء بالأجر، ورعاية الرأفة والرحمة من جانب صاحب العمل وتجنب الاستعلاء، وتأكيد روح الأخوة في الإنسانية وفي الإيمان بين الطرفين.

وهكذا.. رب الأسرة بالنسبة لأسرته، وأم الأولاد بالنسبة لأولادها، إذ يشكر هو الله أو تشكر هي الله فشكر أي منهما في اتباع هداية الله في الأسرة وفي الأولاد. وهداية الله في ذلك هي: في الرعاية والإحسان، وحسن التهذيب.

وإذن شكر الله على نعمة ما هو في اتباع هداية الله في هذه النعمة عملا وتطبيقا. نقرأ قول الله تعالى: « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعا

بصيراً . إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً »[١] . . فالقرآن الكريم يتحدث أولا : عن تركيب الإنسان فى خلقه وإعداده . فإذا كان قد خلق من نطفة مختلطة بين الذكر والأنثى ، فإنه قد زود بمدخل العقل والتفكير ، وهو الحواس التى يتميز : السمع والبصر من بينها . ثم يتحدث ثانياً : عن أن الله لم يدعه لعقله وتفكيره فى شأن الهداية ، إذ قد تتغلب على عقل الإنسان وتفكيره نزعات الغرائز — بحكم تبكيرها فى مباشرة أهدافها للمحافظة على بقاء الإنسان ككائن حيوانى — مما يخل بالتوازن عندئذ : بين العقل .. والغرائز فى الانسان ، ويميل به بالتالى إلى الانحراف ، فالعبث عن طريق الهوى والشهوة . ولذا كانت الحاجة إلى هداية الله حاجة ماسة : « إنا هديناه السبيل » عن طريق الرسالة الإلهية . وموقف الإنسان — بعد تزويده بالعقل وبرسالة الله — يجب أن يكون موقف الشاكر على نعمة الله الممثلة فى : إعداده بالعقل .. وبتزويده بالهداية الإلهية . وذلك باستخدام العقل فيما خلق له وهو : التفكير السليم ، لصالح الإنسان وصالح البشرية ، وباتباع الهداية الإلهية فى مجالاتها المختلفة .

ولكن الإنسان قد لا يحس بهذه النعمة المزدوجة فيقف منها موقف الكافر بها . وعندئذ لا يلوم إلا نفسه : « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم »[٢] .

فشكر الإنسان لله إذن هو : فى اتباع هداية الله . وهداية الله ستوجه تفكيره ، وسلوكه ، وعمله ، بحيث لا يستهدف بأى منها : سوى الحق والخير والمنفعة العامة ، كما يستهدف تجنب الإيذاء والإضرار بالغير .

• ولكن هذا الشكر الذى هو اتباع ، أى تطبيق عملى لهداية الله ، قد تحول فى حاضر المسلمين إلى لفظ عدم المدلول العملى ، وإلى « شعار » ليس له

---

(١) الانسان : ٢ ، ٣ . (٢) النمل : ٤٠ .

أثر فى حياة الإنسان . وما أكده الله فى قوله : « وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم » .. لم يعد ذا صلة بما تحول إليه شكر الله فى حاضر المسلمين من شعار . فمهما عبر صاحب شعار الشكر ، ومهما كرره صباح مساء ، فلن تتغير حياته ، ولن يرى فيها مزيداً من فضل الله ونعمته . ذلك المزيد الذى وعد به هنا ، وهو مزيد الهداية والتوفيق ، والاطمئنان النفسى ، وستر الله .

* **الدعاء لله :**

كثير من المسلمين — فى حاضرنا — يتجهون إلى الله بالدعاء ، ويتضرعون إليه كى يحقق لهم رغبة أو رغبات من رغباتهم اليومية ، أو رغبات العمر . ثم ينامون على أمل . ويصبحون فلا يرون شيئاً تحقق . ثم تمر الأيام ولم يفقدوا الأمل بعد ، ويضيفون إلى دعائهم بالأمس ، وأمس الأول .. دعاء اليوم ، وغداً ، وبعد غد . وتظل النتيجة هى النتيجة . . تظل الرغبة فى حيز الرغبة ، ويظل الأمل فى حيز الأمل ، وواقع الحياة لا أثر فيه لرغبة أو أمل . وأخيراً يرجعون إلى قول الله تعالى : « وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم » . . وكذا إلى قوله :

١ — « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ،

٢ — « أجيب دعوة الداع إذا دعان ،

٣ — « فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »[(1)] ... ويقفون عند ذلك . وربما يجول بخاطرهم هواجس شك ، أو على الأقل تدور فى نفوسهم حيرة : هم سألوا الله سبحانه على نحو ما ذكر القرآن ، ولم يستجب لهم كما وعد ، أيضاً فيما ذكره القرآن . ولكنهم لم يسألوا أنفسهم أولا : هل هم عباد لله ؟ كما تنطق الآية الثانية ذاتها : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ؟ إنهم لم يسألوا أنفسهم . ولو سألوها ، ثم سألوا القرآن الكريم عن عباد الله لعرفوا حقيقة الأمر : لماذا كانت حيرتهم ؟ .. إذ يقول الله فى كتابه فى شأن عباده :

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

ياعبادِ ا: لا خوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين [١] .. فيؤمن الله عباده — فى الحياة — من الخوف ، ومن الحزن معا فعباد الله لايصل إليهم قلق نفسى بسبب الخوف من شىء ، ولاتترك هموم الحياة وما فيها من ابتلاء العسر والشدة : أثراً لحزن فى نفوسهم . وهذا :

لأنهم يؤمنون بالله ،

ويأخذون أنفسهم فى تطبيق مبادئه فى حياتهم .. فالإيمان الصادق بالله ، والتطبيق الواعى لمبادئه — كما جاء القرآن الكريم بهذه المبادىء — هو الأساس فى الوصف بعباد الله . وهو الأساس بالتالى فى استجابة الله لدعاء عباده .

وصدق الإيمان هو نتيجة امتحان واختبار لما فى الحياة التى نعيشها من فتنة وبلاء ، وإغراء وشدة معاً . سواء أكان إغراء الجاه والمال ، والولد ، والمرأة .. أوكانت شدة الضيق ، والفقر ، والمرض . ويصور الإيمان الصادق : مايحكيه القرآن عن تحدى الله سبحانه لإبليس فى أنه لايستطيع أن يكون له أثر على عباد الله ، لصدق إيمانهم بربهم وحسن ثقتهم فيه ، وتوكلهم عليه ، فيما يذكره بقوله :

«واستفزز من استطعت منهم (أى من الذين يخف إيمانهم فيتبعون الشيطان أو الهوى والشهوة) :

١ — « بصوتك (أى بصوت دعايتك ، ووعدك ، ووعيدك) ،

٢ — « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك (أى بكل ما أوتيت من أنواع القوة المادية) ،

٣ — « وشاركهم فى الأموال والأولاد (أى مشاركة شيوع) ،

٤ — « وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

---

(١) الزخرف : ٦٨ ، ٦٩ .

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا [1] »... فيعطى الله لإبليس الفرصة فى : أن يستخدم كل وسيلة للإغراء من : الأموال ، والأولاد ، والوعود الخادعة .. وكل وسيلة أخرى للإرهاب من القوة المادية فى العدد والعدة ومن قوة الإذاعة والإعلام ، وذلك للحيلولة دون الإيمان بالله . فمن عدا عباد الله عرضة لقبول تأثير الإغراء ، أو الإرهاب . أما عباد الله بإيمانهم بالله ، وتوكلهم عليه سبحانه . . فهم بمنجى من هذا التأثير .

والغرض من حوار إبليس — مصدر الشر — مع الله سبحانه وتعالى هنا هو تصوير : أن الدنيا بمفاتنها وإغرائها — وكذلك بما يقع فيها من إكراه ، وإرهاب من شأنها أن تؤثر على ضعاف الإيمان ، دون أقوياء المؤمنين .

« والتطبيق العملى الواعى لمبادىء الإيمان الصادق يحكيه قوله تعالى فى وصف سلوك عباد الله :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون « قالوا : سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ،

«والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها « ساءت مستقراً ومقاماً . والذين إذا أنفقوا (أى على أنفسهم وأهليهم) لم يسرفوا، « ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا « يقتلون النفس التى حرم الله ، إلا بالحق ، ولا يزنون ... إلى أن يقول : « والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا « بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون : ربنا ! هب لنا من «أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » [2] .. فعباد الله هم :

---

(١) الاسراء : ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) الفرقان : ٦٣ — ٧٤ .

- الذين لايزهون بأنفسهم خيلاء وكبراً ،
- والذين يغضون الطرف عن أخطاء الحمقى من الناس .
- والذين يحافظون على أن يكون ليلهم قربى إلى الله وعبادة إليه ، دون أن يكون لمؤامرة أو تدبير سوء ،
- والذين هم يعتدلون في إنفاق مالهم محافظة على ذويهم وأقربائهم من بعدهم ، ورعاية لأصحاب الحاجة عدام في وجودهم .
- والذين لا يباشرون الجرائم الاجتماعية من : قتل النفس التي حرم الله قتلها وهي نفس المؤمن بالله ، ومن الزنا والفحشاء ، ومن السرقة ،
- والذين لايشهدون الزور ،
- ولا يقضون قليلا أو كثيراً عند لغو القوم ،
- والذين إذا ذكروا بآيات الله في مشورة تقدم إليهم لم يغفلوا شأنها ،
- والذين يتجهون إلى الله في شئونهم الخاصة في : أن يسعدهم في بناء أسرهم ، وتوجيه أولادهم .

فمن ليس من عباد الله من المسلمين اليوم لا ينتظر استجابة الدعاء إلى الله . لأنه — من ليس من عباد الله — حول دعاءه إلى الله : إلى « شعار » فقط . والدعاء إلى الله هو : ختام عمل ، وليس بداية قول .

* ذكر الله :

يطلب القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون »[1] .. إلى المؤمنين جميعاً : أن يذكروه سبحانه وتعالى . كما يطلب إليهم عدم الطاعة — أو الإعراض — لمن شغل قلبه ونفسه

---

(١) البقرة : ١٥٢ .

بغير الله . . أى لمن شغلها بالهوى وبمتع الحياة الدنيا ، ولم يرد سواها ، فى قوله جل شأنه : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »(١) . . وفى قوله : «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا»(٢) . ولم يرد القرآن هنا من : الذكر لله : أن يكون ذكره أمارة إيمان به فحسب ، كما لم يرد من إغفال ذكره أن يكون إغفاله أمارة كفر به فقط . وإنما يريد : أن يجعل من شأن المؤمن أن يذكر الله سبحانه وتعالى ، فيتذكره فى كل عمل يعمله ، وفى كل سلوك يسلكه ، وفى كل تفكير يباشره : «فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لاتلهيهم تجارة ، ولا بيع ، عن ذكر الله ، وأقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار »(٣) . . ويناشد المؤمنين كافة : أن لا تلهيهم الدنيا بمفاتنها واغرائها : من أموال ، وأولاد ، عن ذكر الله ، عند ما يوجه إليهم النداء فى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله »(٤) .

كما يريد أن يجعل من شأن الكافر : أن لايذكر الله إطلاقا ، وأن من شأن المنافق أن يذكره قليلا : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا »(٥) . وذلك لأن الكافر يتبع هواه صراحة ، وهو واقع تحت تأثير الاتجاه المادى الذى يدفعه فى غير هوادة إلى الزلل والانحراف . وهو لايمكن أن يساير هواه — وكذا لا يمكنه أن يساير الاتجاه المادي — إلا فى تجاهل وإغفال الله ، فلايذكره بحال . والمنافق انتهازى إذا ذكر الله فلمصلحة خاصة ، وإذا أغفل ذكره فلمصلحة خاصة كذلك . وواقع الأمر : ذكر المنافق لله — إن ذكره — هو كعدم ذكره سواء . لأنه لا يتأثر بذكره فى عمل أو تفكير .

(١) الكهف : ٨ .
(٢) النجم : ٢٩ .
(٣) النور : ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) المنافقون : ٩ .
(٥) النساء : ١٤٢ .

• و « ذكر الله » هنا هو إذن تذكر للمولى سبحانه بصفة دائمة . وتذكر الله هو عملية عقلية تضم الإنسان المؤمن فى شعور ووعى واضح لجلال الله وعظمته، وللخشية منه . وأثر هذه العملية العقلية فى حياته هو : الاستقامة واتباع هداية الله ، وتجنب ما يسىء إلى الذات أو إلى الغير .

والإنسان المؤمن هو إنسان قبل أن يكون مؤمنا : يقع منه السهو ، وتقع منه الغفلة، ويقع منه أيضاً الخطأ الذى يجانب اتباع هداية الله . ولذا عليه إن سها ، أو غفل ، أو أخطأ : أن يذكر الله ، ويتذكره ليعود إلى نفس الخط الذى آمن بالسير عليه من قبل نسيانه ، وغفلته ، وخطئه . ويخاطب القرآن الكريم المؤمنين بقوله : «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء ، والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون»[1] .. فيجعل الجنة أيضاً جزاء لأولئك الذين إذا فعلوا فاحشة — أو ظلموا أنفسهم — ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم .. كما هى جزاء المحسنين .

والصلاة جعلت عبادة وقربى . لأنها تخلق المجال النفسى والعقلى فى الإنسان المؤمن لذكر الله . وعندئذ تحول دون أن يرتكب هذا الإنسان المصلى : فاحشة أو منكراً . وإذا صفت فيها نفس المصلى فإنه سيستحضر جلال المولى وقدرته وعزته فى صلاته . وعندئذ يكون امتناعه عن ارتكاب الجرائم الاجتماعية — وهى الفحشاء والمنكر ، من الزنا والقتل والسرقة — أشد وأقوى . يقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : « أتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم

---

(١) آل عمران : ١٣٣ — ١٣٥ .

الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر »[1] ..
فالصلاة فى حقيقتها لا توصل فحسب إلى الانتهاء من ارتكاب الفحشاء والمنكر :
وإنما توصل إلى استحضار جلال المولى سبحانه . واستحضار جلاله فى النفس :
أكبر أثراً فى حياة المصلى من انتهائه عن الفحشاء ، والمنكر . لأنه كذلك يحول
عندئذ دون السهو فى الصلاة ويجعلها عملا إيجابياً يحمل على الإنفاق فى سبيل الله
ومساعدة الضعفاء . وآنئذ لا يكون المصلى من الذين قال الله فيهم : « فويل
للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون
(أى يمنعون العون والمساعدة) »[2] .

وهكذا : « ذكر الله » .. عملية عقلية أو نفسية ، تحمل على سلوك إيجابى ،
هو تطبيق لما جاء فى « الذكر » عن الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون »[3] .. ذكر الله هو معنى قبل أن يكون لفظا ، وله فاعلية قبل أن
يكون « رمزاً » و« شعاراً » . « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

---

(١) العنكبوت ٤٥ . (٢) الماعون : ٤ — ٦ .
(٣) الحجر : ٩ .

هـ ـ فى دائرة الحياة الأخروية :

السـاعة :

• تأتى الساعة — فى تعبيرات القرآن الكريم — بمعنى : توقيت الجزاء الأخروى : « ولله ملك السموات والأرض ، ويوم تقوم الساعة ، يومئذ يخسر المبطلون »[١] .. أى يوم يأتى وقت الجزاء وموعده فى الآخرة يتبين خسران المبطلين ، وهم الضالون الظالمون لأنفسهم بالكفر والإلحاد .

فإذا قرنت : «الساعة» بكلمة العذاب .. قصد بالعذاب غالباً : عندئذ ما يقع من عقاب دنيوى ، كما فى قوله تعالى : «قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون : إما العذاب ، وإما الساعة ، فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً »[٢] .. وكذا فى قوله : « قل : أرأيتكم إن آتاكم عذاب الله ، أو أتتكم الساعة (أى أتتصورون إن حل بكم عذاب الله فى الدنيا ، أو أتى وقت الجزاء فى الآخرة) أغير الله تدعون إن كنتم صادقين »[٣] .

ولا تذكر كلمة : «الساعة» فى مقام الإنذار للوثنيين الماديين — فى كتاب الله — إلا عند ما يشتد استهتارهم بمن يدعون مع الله ، وتتضاعف سخريتهم بالإيمان بالله وحده . نقرأ قول الله تعالى فى سورة محمد[٤] : « فهل ينظرون إلا الساعة : أن تأتيهم بغتة ؟ »أى إلى متى يواصل المنافقون خداعهم : أينتظرون فى مواصلتهم الخداع حتى يأتى وقت الجزاء فيحل بهم فجأة ؟ وعندئذ لا تتاح لهم فرصة الخلاص من جريمتهم ، وهى جريمة إعلان الإسلام ظاهراً ، وتبييت العداء والمكيدة للإيمان والمؤمنين) . والمنافقون كافرون فى حقيقة أمرهم . وكفرهم أشد ضراوة على المؤمنين ، وأبعد أثراً فى حياتهم من أصحاب الكفر الصريح الذين لا يملون إعلان كفرهم لحظة بعد أخرى .

---

(١) الجاثية : ٢٧ . (٢) مريم : ٧٥ .
(٣) الأنعام : ٤٠ . (٤) محمد : ١٨ .

• وقد سبق هذه الآية الأخيرة فى السورة ذاتها : قول الله جل شأنه فى تحديد : أنهم المنافقون فيها : «ومنهم من يستمع إليك (أى من الكافرين الذين ستروا كفرهم خداعا ، بإعلان الإسلام) حتى إذا خرجوا من عندك (أى خرجوا بعد الانتهاء من الحديث إلى من يستمعون إليك جميعاً) قالوا للذين أوتوا العلم : (وهم أولئك الذين حفظوا واستوعبوا ما قلته فى حديثك إلى المستمعين ، وهم المؤمنون الخالصون) ماذا قال آنفا ؟ (أى ماذ كر فى حديثه الآن قريباً ؟ قالوا ذلك سخرية واستهزاء) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (أى هؤلاء المستفسرون سخرية واستهزاء . . صنعوا ذلك ، لأن الله أغلق قلوبهم دون الإيمان ، بسبب طاعتهم لأهوائهم ووقوعهم تحت تأثيرها) . والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (أما الذين استمعوا مخلصين إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الاجتماع به وأصبحوا أولى علم بما تحدث فقد انتفعوا بحديثه: زادت هدايتهم واستمرت تقواهم) فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها (أى أماراتها . ورسالة الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام واحدة من هذه الأمارات ، لأن بها ختمت الرسالة الإلهية ، وأصبح الإنسان يعتمد على استقلاله اعتماداً كلياً فى اتباع هداية الله أو عدم اتباعها ، ووضع الآن أمام مسئوليته التامة . وإذن لا يترقب جديداً من السماء . فقد انتهى أمرها فى شأن الهداية . ولا شك أن ختم الرسالة الإلهية ينطوى على إنذار للبشرية فى الوقت الذى تمثل خاتمة الرسالات : الدين الكامل للإنسانية . « ... اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً»)[1]. فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم (أى أين يكون وضعهم إذا حل وقت الجزاء بالفعل ، وأصبح حقيقة تذكر ولا تنسى ؟ إن وضعهم لا شك سيكون وضع

---

(١) المائدة : ٣ .

أصحاب النار ، إن هم آثروا الاستمرار فى الخداع ، والبقاء تحت تأثير المادية ، والكفر بالروحية الإنسانية التى هى هداية الله فى كتابه المبين) » .

● جـزاء الله :

● طالما كانت للإنسان مشيئة مبدئية فى الإيمان والكفر ، وفى مباشرة العمل الصالح أو السيء .. وطالما كان مسئولا مسئولية شخصية وفردية عن نوع اعتقاده ونوع عمله ، ولا يحمل مسئولية غيره مهما كانت صلة القربى به .. فإن جزاءه عن إيمانه وكفره ، وعن عمله المستقيم وعمله المنحرف يكون جزاء وفاقا لنوع اعتقاده ، وعمله : « ليس بأمانيكم (أيها المشركون الادبون) ولا أمانى أهل الكتاب (أى لا يتوقف المصير ولا ترتبط الأعمال فى الجزاء عليها : بالرغبات والأمانى ، وإنما يكون الجزاء على نوع العمل فقط) : من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل من الصالحات: من ذكر أو أنثى وهو مؤمن .. فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيراً (أى أقل القليل) »[1] .. والله عادل فيما يجازى به . « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون »[2].

● وعدل الله فى الجزاء أمر يقتضيه وضع الخالق بين عباده ومخلوقاته . وهو وضع الغنى بذاته عن المخلوقات والناس جميعا : « وربك الغنى ذو الرحمة : إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين »[3].. فلا تعود مصلحة شخصية عليه — جل جلاله — من إيمان بعض الناس ، أو كفر البعض الآخر منهم . وإنما أثر الإيمان يعود على من آمن ، وأثر الكفر يعود على

---

(١) النســاء : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢) يونس : ٤٤ .
(٣) الأنعــام : ١٣٣ .

من كفر منهم : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين »[(١)] .. « ولقد آتينـــا لقمان الحـكمة : أن اشكر لله (أى بالإيمان به) ومن يشكر (أى يؤمن معبراً بإيمانه عن شكره) فإنما يشكر لنفسه (أى تعود منفعة إيمانه على نفسه) ومن كفر فإن الله غنى حميد »[(٢)] . . ووضع الغنى بذاته بين المخلوقين له : يتعين أن يكون وضع العادل . . المتجرد عن الغرض والمصلحة الخاصة . ثم يوجب كذلك : أن يـكون الجزاء مرتبطا بنوع العمل وحـده ، الذى باشره ويباشره الإنسان فى حياته الدنيوية .

وهنا تؤكد آيات عديدة هذا الربط ، كما نقرأه فى قول الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً . . يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً .. يره »[(٣)] .. وفى قوله : « والذين كسبوا السيئات : جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم »[(٤)] .. وفى قوله : «ومن يعمل من الصالحات ، وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما »[(٥)] .

وما يتردد من القول : بسلب المشيئة من الإنسان فى علاقته بالله ، وبنسبة هدايته وضلاله إلى المولى جل شأنه وحده ـ دون تدخل من الإنسان ـ وبالتالى : بعدم فهم الجزاء من الله له المترتب على ضلاله .. هو قول لا يستند إلى فهم سليم لـكتاب الله . نقرأ قوله تعالى مثلا : «أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً (أى ليس كمن لم يضل ويخدع ، واهتدى بهدى الله فى كتابه) : فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون»[(٦)] .. فهذه الآية تنسب إلى الإنسان صنعاً وعملا فى خداع نفسه مرتين ، مرة عندما

---

(١) العنكبوت : ٦ .
(٢) لقمـان : ١٢
(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٤) يونس : ٢٧ .
(٥) طـه : ١١٢ .
(٦) فاطـر : ٨ .

تقول : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » .. فتسند إليه أنه رأى السيء فى واقع أمره ، حسناً فى نظره فجاراه ، وبذلك ضل ولم يهتد . ومرة أخرى عندما تعقب بقولها : « إن الله عليم بما يصنعون » .. أى بما يصنع أولئك الذين لم يروا الصواب على وجهه الصحيح . وإذن : الانسان له دخل وعمل فى إضلال نفسه أو فى هدايتها . ومع ذلك فإن لله أيضاً دخلا فى الهداية والضلال ، ولكن على معنى : صرف الإنسان أو عدم صرفه عن متابعة خط السير لما فى رسالة الله . فللإنسان دور فى تحديد نوع العمل الذى يقوم به، وفى نوع الاعتقاد الذى يعتقده، ولله أثر كذلك : فى التوجيه نحو هذا الاتجاه .. أو نحو ذاك .

وفيما يوصى به القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »(١) .. يوصيه أولا بمباشرة : العفو عن المخطئين فى غزوة « أحد » من المؤمنين بتطلعهم إلى الغنائم — وليس إلى المبادىء — فيها ، واستغفار الله لهم خطأهم ، وبمشاورتهم من جديد فى شئون الدفاع عن الأمة : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » .. ثم يوصيه ثانياً ـ بعد انتهاء المشاورة وترجيح الرأى نحو اتجاه معين ، وموقف معين : إزاء الأعداء — بالتوكل على الله .. أى بطلب العون والمساندة منه. فهنا : عمل من الإنسان ، وعون من الله .. هنا استنفاد مجهود الانسان وطاقته فى العمل ، ثم طلب المؤازرة بعد ذلك لمن يملكها وحده ، وهو الله سبحانه وتعالى . وكذلك فيما يأمر به المؤمنين بقوله : « قاتلوهم (أى قاتلوا الأعداء المنتهكين لحرماتكم) يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم (أى بسبب هزيمتكم لهم) وينصركم عليهم (أى بما لكم من إيمان قوى) ويشف صدور قوم

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم (أى بما تحرزون من نصر واضح)[١] .. يأمرهم بالقتال ، وعن إيمان قوى فيه : بحيث يكون النصر على الأعداد أمراً واضحاً ، فيطلب منهم : عملا .. وإيمانا .. يستتبعهما : نصر من الله .

والمزاوجة فى دائرة الإنسان فى صلته بالله .. وهى مزاوجة بين عمل الإنسان أولا ، عملا ناجحاً متفوقاً ، واقتران ذلك : برعاية الله وعونه : إن كان فى مجال الهداية والضلال ، أو فى مجال مقاتلة الأعداء ، أو فى مجال السعى فى الرزق والحصول على أسباب العيش فى الحياة . وإذن عمل الإنسان ، وسعيه وجده فى العمل والسعى . . مقدمة ضرورية لتتويج عمله بالنجاح برعاية الله وفضله . وبدون عمل للإنسان وبدون استقامة فيه : لا تكون رعاية . . ولا تكون معاونة . . ولا يكون نصر من الله . إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وإنما هو الإنسان وسعيه .. والله ورعايته .

الجنـــة :

« مثل الجنة التى وعد المتقون : فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم ، كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم »[٢] .

● إن منطق الدعوة الإسلامية فى القرآن الكريم يقوم على توضيح المفارقة بين المؤمن بالله ، والكافر به : فى الاعتقاد ، والسلوك ، ومدى التجاوب فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى نوع الحياة فى الدنيا والمصير فى الآخرة .

فإذا ما يضع مثلا مصير المؤمن والكافر فى الحياة الآخرة موضع الموازنة

---

(١) التوبة : ١٤ ، ١٥ .
(٢) محمد : ١٥ .

فى قول الله تعالى فى سورة محمد : « مثل الجنة التى وعد المتقون : فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيهـا من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم . . كمن هو خالد فى النـار ، وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم »(١) . . إذا ما يضع مصير كل منهما هذا الوضع المقارن ، إنما يفصل ما سبق أن ذكره فى هذه السورة، من : وعد قطعه الله على نفسه فى قوله : «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون (أى فى الدنيا) كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم (أى فى الآخرة)(٢) » .

فهذه الآية ذكرت : أن الـكافر فى الدنيا يسعى للاستمتاع بالحياة المادية ، والأكل مما تشتهيه النفس مما يؤكل فيها . . أكثر مما يستهدفه المؤمن فى سعيه فيها . بل إن الـكافر قد يبالغ فى الاستمتاع بمادياتها ، على نحو : لا يعرف فيه لنفسه ضابطاً ، ولا يعرف لغيره حرمة ووجوداً ، كما يصنع الحيوان سواء بسواء :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » . أما المؤمن — فلأن هدفه فى الدنيا : أن يباشر العدل مع غيره ، والإحسان فى صوره المختلفة إلى الآخرين — فهو لا يشغل نفسه بتحقيق شهوات النفس ومتعها المادية . بقدر ما يحقق المعانى الإنسانية الـكريمة فى العلاقات البشرية بينه وبين من عداه . ولذا : استمتاعه من ماديات الحياة الدنيا .. بقدر ما يـكون لديه الطاقة على تحقيق هدفه الأسمى .

● والحياة الدنيا هى مرحلة فى حياة الإنسان — من جهة نظر الإسلام والمؤمن به — تليها مرحلة ثانية وهى مرحلة الآخرة . ومرحلة الدنيا إذا كانت مرحلة اختبار لمن يسعى فيهـا لتحقيق شهوات النفس ومتعهـا وحدها — وهو ذلك

---

(١) محمد : ١٥ . (٢) السورة السابقة : ١٢ .

الكافر — ولن يسعى أيضاً ليشارك الآخرين ، وليكون معهم كما يكون مع نفسه ، وليقاسمهم حلوها ومرها على السواء وهو ذلك المؤمن . . فمرحلة الحياة الآخرة هى مرحلة جزاء لكل من النوعين . . هى مرحلة ثواب المؤمن ، وعقاب للكافر .

ولقد جاء فى وصف ثواب المؤمن هنا ، وهو ثواب الإقامة فى الجنة : « ... فيها أنهار من ماء غير آسن (أى غير راكد ولا فاسد) وأنهار من لبن لم يتغير طعمه (أى لا يعتريه التحول من حال إلى حال كما هو وضعه فى الدنيا) وأنهار من خمر لذة للشاربين (أى لا تؤدى إلى ذهاب العقل ، ولا تسبب صداعا ولا غثيانا ، بل هى متعة صافية لمن يشربها) وأنهار من عسل مصفى (أى ليست به شوائب غريبة عنه) .. ومعنى هذه الأوصاف فى تحديد الجنة : أن بها من المتع المادية ما يفوق متع الدنيا فى : الكم ، والكيف معاً . فهى تجرى فى أنهار ، وليست فى قوارير . وهى لا يعتريها أى فساد ، أو تحول فيما هى عليه ، كما لا تؤدى إلى أى ضرر على المدى القريب أو البعيد . كما هو شأن ما فى الدنيا من هذه المتع .

وبالإضافة إلى هذه المتع المادية الكثيرة فى حجمها ، والجيدة فى نوعها ، هناك متعة أخرى بعدها تفوقها فى كل مالها من خيرات ، وهى متعة معنوية . وتلك هى رضاء الله وغفرانه : « ومغفرة من ربهم » .

وجاء كذلك فى وصف عقاب الكافر وهو عقاب الإقامة الدائمة فى النار : « كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميا (أى أشربوا ماء شديد الحرارة) فقطع أمعاءهم» . فالكافر يعيش فى نار ، وفى داخل بطنه ما هو يشبه النار ، وهو الماء الشديد الحرارة .

وفى التقابل بين ثواب المؤمن فى آخرته — مع ما قد يتعرض له من حرمان فى دنياه من متعها المادية من جانب — وبين عقاب الكافر فى أخراه ، مع ما قد يستمتع به من متع الحياة الدنيوية المادية حتى يصل إلى مستوى الحيوان فى الإفراط من جانب آخر . . فى هذا التقابل بين الوضعين : يؤثر العاقل حتما من غير شك وضع المؤمن ، مهما كلفه إيمانه من مشقة فى حياته الدنيوية فى سبيل إيمانه . والوقوف بنفسه عند حسن المسعى ، ويعنى مع ماتعنيه الآية هنا : مثل الجنة التى وعد المتقون ليست كمثل النار التى يخلد فيها الكافرون .

الفصل الثانى

فى ســــلوك الإنسان

أ ـ فى دائرة الصراط المستقيم :

• **التقــوى :**

• التقوى فى كثير من آيات القرآن الـكريم تشير إلى معنى : الترك والتجنب ، لما هو : باطل فى الاعتقاد ، وسيء فى المعاملات والتصرفات وسيء فى السلوك . ولذا : الآيات التى تحكى دعوة الرسل السابقين لأقوامهم تطلب إليهم : التقوى أولا ، بمعنى الترك لما كانوا عليه ، كتمهيد لقبول الرسالة فى جانبها الإيجابى وهى العمل الصالح على أساس من الإيمان بالله وحده . فتقول هذه الآيات :

« إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ »(١) .

« إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ »(٢) .

« إذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ؟ »(٣) .

« إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ »(٤) .

« إذ قال لهم شـعيب : ألا تتقون ؟ »(٥) .

وفى حديث القرآن عن مهمة داود عليه السلام يقول : « ياداود : إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا ، يوم الحساب » .. إلى أن يقول : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين .. كالفجار ؟ »(٦) . فتقضى الآية الأولى من هاتين الآيتين : بأن جزاء الذين ينحرفون عن سبيل الله — وهو سبيل الإيمان بالحق — هو العذاب الشديد يوم الحساب ، أى فى الآخرة .. وتجيء الآية الثانية هنا لتوضيح : أن هذا

(١) الشـعراء : ١٠٦ .
(٢) الشـعراء : ١٢٤ .
(٣) الشـعراء : ١٤٢ .
(٤) الشـعراء : ١٦١ .
(٥) الشـعراء : ١٧٧ .
(٦) ص : ٢٦ ، ٢٨ .

الجزاء هو العدل بعينه ، ولـكن فى صورة منطقية ومقنعة . وهى صورة : التفرقة فى الجزاء بين المفسد فى الأرض ، والمؤمن الذى يعمل عملا صالحاً .. بين المتقى ، وهو الذى يترك الجرائم الاجتماعية كلها من : زنا ، وسرقة ، وقتل ، كما يترك الباطل فى الاعتقاد من الوثنية والخرافة ، وذلك الآخر الذى يقابله ، وهو : الفاجر الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فى السلوك والهداية معاً . فوضع المفسد فى هذه الآية : فى مواجهة المؤمن الذى يعمل صالحا .. هو وضع المتقى : فى مواجهة الفاجر المنحرف . ومن هـذا الوضع ، وهو وضع التقابل ، يفهم : أن التقوى هى ترك الانحراف والباطل . سواء فى الاعتقاد .. أو السلوك .

● ومن أجل ذلك : ترد فى آيات أخرى ، كلمة : التقوى ، بهـذا المعنى والمفهوم — وهو مفهوم الترك والتجنب للباطل — فى اقتران مع عمل إيجابى آخر طبقا للإيمان بالله وحده كشرط لرضاء الله سبحانه . نقرأ مثلا قوله تعالى : « وإن تؤمنوا ، وتتقوا فلكم أجر عظيم »[1] . وقوله : « وإن تحسنوا ، وتتقوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً »[2] . وقوله : « وإن تصلحوا ، وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما »[3] .. فالإيمان فى آية ، والإحسان فى آية أخرى ، والإصلاح فى آية ثالثة هنا ، فى مقـابل : التقوى فيها جميعها .. يشير إلى العمل الإيجابى ، بينما : التقوى تشير فقط إلى : الترك والتجنب . وقلما يكتفى القرآن فى حسن قبول الإنسان عند الله بالتقوى وحدها . بل يضيف إليها : العمل الصالح ، وهو العمل الإيجابى المثمر ، ممثلا فى الإيمان أو التصديق ، أو ممثلا فى الإحسـان ، أو ممثلا فى الإصلاح ، كما نرى هنا .

والمتقى إذن هو الذى يترك الموبقات ، والفحشاء والمنكر ، والاعتقاد الباطل ـ

---

(١) آل عمران : ١٧٩ . (٢) النساء : ١٣٨ .
(٣) النساء : ١٣٩ .

ولكى يكون مقبولا عند الله لابد أن يعمل — بجانب ذلك الإتقاء — عملا صالحاً قائماً على الإيمان بالله وحده ، ومتبعاً فيه هدايته .

ولكن لأن ترك الفحشاء والمنكر والاعتقاد الباطل يحتاج من يتركها إلى عزم قوى ، وإرادة نافذة ، وصبر وتحمل .. كان دور المتجنب لها دوراً أساسياً عند الله . ولذا : عظم شأن المتقى ، وشأن التقوى فى التقدير ، وفى العرف معاً .

● **العمل الصــــالح :**

● فى القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن : « العمل الصالح » وعن طبيعته أو حقيقته . وفيما يتجلى من هذه الآيات ، يقصد بالعمل الصالح تطبيق مبادىء الإيمان بالله وبرسالة الرسل ، وهى رسالة الإسلام دين الله : منذ إبراهيم . إلى محمد بن عبد الله ، عليهما الصلاة والسلام : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) .

فهذه الآية وضعت جميع الطوائف على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمام موقف واحد ، إذا ما طلبت أى منها : الاطمئنان على حياتها ، واللحاق بالمقربين الذين لم تفت عليهم فرصة النجاة . وهذه الطوائف هى : طائفة المؤمنين بالقرآن ، وطائفة اليهود ، وطائفة النصارى ، وطائفة الصابئة ، وهى تلك التى كانت تعبد النجوم والكواكب : فيما بين النهرين . وما وراءهما . والموقف الواحد الذى وضعت أمامه هذه الطوائف لتحقيق الهدف المرجو ، هو : الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح . وهو ذلك العمل الذى يكون وفقاً لهذا الإيمان ، وقائماً علية .

---

(١) البقرة : ٦٢ .

• وشرط أساسى إذن فى مفهوم العمل الصالح — كما جاء فى القرآن الكريم هنا — أن يكون مؤسساً على الإيمان بالله وحده ، وباليوم الآخر . فإذا كان هناك من يؤدى عمل المؤمنين فى استقامته ، دون أن يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر ، فلا يكون عمله عندئذ عملا صالحا . ولانطواء العمل الصالح على ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر ، قد يكتفى القرآن فى بعض آياته عن ذكر لفظ : الإيمان بالله واليوم الآخر، بذكر العمل الصالح وحده . كما جاء فى قول الله تعالى : « قل: إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى : أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه : فليعمل عملا صالحا ، ولايشرك بعبادة ربه أحدا »[1] .. فذكرت الآية صراحة : العمل الصالح ، كأمر يتطلب حتما : الإيمان بالله ، وباليوم الآخر مسبقاً ، ولم تذكر : الإيمان صراحة ومباشرة ، وإن كان يمكن أن يؤخذ الإيمان بالله من قوله : « ولايشرك بعبادة ربه أحداً » ، . . كما يمكن أن يؤخذ الإيمان باليوم الآخر ، من قوله : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ، ولكن بطريق غير مباشر . والاكتفاء بذكر العمل الصالح عن الإيمان : اعتماداً على : أن العمل الصالح يتطلب ضرورة تأسيسه على الإيمان المزدوج : بالله وحده ، وباليوم الآخر .

وإذا حكى القرآن نداء الله إلى الرسل ، بقوله : « يا أيها الرسل : كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم »[2] .. لم يذكر فى هذا النداء : طلب الإيمان ، مع العمل الصالح : فذلك ليس لأن من مهمة الرسل : الإيمان بالله واليوم الآخر أولا ، وبالضرورة . ولكن مع ذلك — بالضرورة أيضاً — لأن العمل الصالح لا يكون صالحا ومقبولا عند الله إلا إذا ارتبط بالإيمان ، وصار فى حركته طبقا لمبادىء هذا الإيمان .

---

(١) الكهف : ١١٠ . (٢) المؤمنون : ٥١ .

وقوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها »[1] . لاية بعد هنا بالعمل الصالح : العمل المستقيم فى ذاته ، كما لايقصد بالعمل السيء : العمل السيء فى ذاته . وإنما الإيمان ضرورة فى كيان العمل الصالح ، وإن كان له طابع الاستقامة . وعدم الإيمان ضرورة كذلك فى مسمى العمل السيء .

● إن ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر فى مفهوم العمل الصالح ، ن من لم يؤمن بالله وباليوم الآخر ، مع العمل الصالح.. يستحيل أن يكون ما أتى به من عمل ، على طول الزمن : لمصلحة الآخرين ، كما هو لمصلحته . إذ طبيعة عدم الإيمان بالله كمركز للقيم العليا — وهى قيم يتقرب إليها المؤمنون وتحقق المصالح العامة للناس جميعا — قد تدفع إلى الإيمان بالذات ، وبالسعى فى سبيلها : إما وحدها ، أو مع قسط ضئيل جداً فى سبيل الآخرين معها لفترة ما . وهنا يتجه عمل المؤمن بذاته وبأنانيته .. إلى أن يكون عملا ذاتياً ، أو أنانياً . ومثل هذا العمل لا يكون صالحاً . بل يكون عملا سيئاً .

.. يستحيل على غير المؤمن بالله أن يكون غير مادى . ومن يكون مادياً يقوم عمله على المقابلة ، والمبادلة المادية وحدها ، وينكر كل علاقة بينه وبين الآخرين لاتقوم على هذه المبادلة ، حتى علاقته بالأسرة ، وبالوالدين فيها . ومن ينكر الروابط الإنسانية فى العلاقات ، وينشد الجانب المادى وحده فيها ، ينكر : كل معنى إنسانى ، وكل قيمة من القيم العليا . وادعاء : أن مثل هذا المنكر للروابط الإنسانية : أنه يسلك فى عمله ، طريق المصلحة العامة له وللآخرين معه ، إنما هو كادعاء اجتماع النقيضين ، كالماء والنار فى مكان واحد وفى وقت واحد .

الإيمان بالله هو تحول فى واقع الأمر من الأنانية إلى الجماعية الإنسانية .

---

(١) فصلت : ٤٦ .

وبقدر عمق الإيمان بالله واليوم الآخر فى نفس المؤمن ، بقدر تمشى عمله مع الخط المستقيم لصالح الجماعة والأمة .

والعمل الصالح إذن ، هو : تعبير مجسد عن هـذا الإيمان العميق فى نفس المؤمن . ولذا : أصحاب العمل الصالح : لاخوف عليهم ، ولاهم يحزنون . ليس فى آخرتهم فحسب ، وإنما مع ذلك فى دنيـاهم . إذ هم يعيشون لغيرهم قبـل أن يعيشوا لذواتهم .

● سـبيل الله :

إن المتتبع لآيات الله فى كتابه الكريم ، فيما عبرت به هذه الآيات : عن « سبيل الله » .. يجد : أن الكفر بالله وعدم الإيمان به ابتعاد عن سبيل الله: « أم تريدون أن تسألوا رسولكم ، كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل »(١) . فالآية قد جعلت تحدى الماديين الوثنيين بمكة على عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — لرسالته ، وكفرهم بوحدانية الله، ضلالا وانحرافا عن سواء السبيل . وسواء السبيل — أو السبيل السوى المستقيم — هو سبيل الله ... ويجد أيضاً : أن اتباع هوى النفس وشهوتها ضلال وبعد أيضاً عن سبيل الله . ففى نداء الله لداود عليه السلام بقوله : « يا داود : إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»(٢) .. ففى نداء الله هذا : يربط بين اتباع الهوى والضلال عن سبيل الله.. أى يربط بين السلوك الأنانى ، والانحراف عن الخط المستقيم الذى هو سبيل الله .

.. ويجد كذلك : أن الشرك بالله وجعل أنداد له ، ابتعاد عن سبيل الله :

---

(١) البقـرة : ١٠٨ .   (٢) ص : ٢٦ .

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ... إلى أن يقول: وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ، قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار »[1].

.. ويجد أيضاً : أن اتباع الظن والكذب فى السلوك والمواقف ، انحراف عن سبيل الله : « وتمت كلة ربك صدقاً وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون »[2] . فإذ ينهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن مخالفة كتاب الله إلى رأى اتباع الناس مهما كثر عددهم ، فإنما يربط بين رأيهم، واتباع الظن أو الكذب فيه . واتباع الظن أو الكذب هو تجنب للصراط السوى، وهو صراط الله .

وهكذا : الكفر بالله . واتباع الهوى والأنانية . . والشرك بالله . . واتباع الظن أو الكذب : انحراف وابتعاد عن سبيل الله . وسبيل الله إذن هو : سبيل الهداية ، وسبيل الإيمان ، وسبيل التضحية من أجل الإيمان ، وسبيل المصلحة العامة .

سبيل الله هو السبيل الإنسانى المهذب الذى يرتفع فيه الإنسان فى معاملة الآخرين عن : النفاق والانتهازية ، وعن الأنانية والاستغراق فى الشهوات والمتع المادية ، وعن التخمين والتصورات التى قد لا تصيب الواقع . والذى يسلك سبيل الله هو : من يحب غيره كما يحب نفسه .. وهو من يصارح غيره ويكون مرآة له يرى فيها عيوبه .. وهو من يتبع العلم واليقين فى مواقفه من الآخرين . . وهو — قبل ذلك كله — من يؤمن بالله وحده ، دون أن يشرك معه أحداً سواه : فى

---

(١) ابراهيم : ٢٨ — ٣٠ . (٢) الانعام : ١١٥ — ١١٦ .

الاحترام ، والتقديس ، والعبادة . إذ من يؤمن بالله وحده لا ينافق إنساناً آخر معه ، ولا يخدعه ، ولا يؤثر ذاته بالحب وحدها ، دون الآخرين في محيط وجوده .

سبيل الله هو : هداية الله التي سجلها في كتابه الكريم ، وأوحى به إلى رسوله محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .. هو رسالة الإسلام ، الذي هو السلام بين الناس على هذه الأرض .

العــــدل :

إن هدف رسالة الإسلام — منذ إبراهيم . . إلى محمد ، عليهما الصلاة والسلام — أن يكون المجتمع البشرى في سلام واطمئنان في العلاقات التي بين الناس . وذلك بأن يمارس العدل في قوة بنائه وتماسكه : إن في القول ، أو في الحكم ، أو المصالحة ، أو في الشهادة ، أو في المعاملة ، بجانب استخدام القوة المادية التي الحديد في المنعة ضد الاعتداء ، واستخدام منافعه في صالح التعمير والرخاء . وتقول الآية الكريمة في توضيح هذا الهدف : « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات :

١ — « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (أى بالعدل) » .

٢ — « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز »(١) .. فكما أن الله جعل الحديد مصدر القوة المادية ، جعل كذلك كتاب الله مصدر القوة المعنوية ، وهي العدل . وباقتران القوتين معاً قيما عبر عنه القرآن بالإنزال هنا : « وأنزلنا » . لا يتحقق سلام في

---

(١) الحديد : ٢٥ .

مجتمع بشرى ، ولا اطمئنان فيه إذا وجدت فيه إحدى القوتين دون الأخرى .
فإذا وجد « العدل » وحده — دون القوة المادية التى للحديد فى استخدامه واستخلاص منافعه — لا يأمن المجتمع وقوع الاعتداء عليه من خارجه، كما لا يأمن الأفراد فيه وقوع التنازع والتخاصم فيما بينهم ، بسبب التخلف فى الجوانب الاقتصادية ، التى لا يساعد فيها إلا منتجات الحديد ذات الأهمية فى التطور الصناعى .
وإذا وجد الحديد وحده — دون « العدل » — كان الطغيان وكان الظلم ، تسنده قوة لا تعرف التوجيه فى ذاتها . وإنما تعرف فحسب أن توجه . ويتوقف الانتفاع بها على أن توجه : من مرشد ، هو الإنسان العادل .

وأيا وجدت إحدى القوتين دون الأخرى ، فإن كتاب الله — الذى أنزل مع الحديد — لا يكون مطبقاً تطبيقاً كاملا ، ويكون المجتمع الذى يأخذ بواحدة من هاتين القوتين دون الأخرى قد آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر . وعندئذ يبتعد المؤمنون فيه أن يكونوا قريبين من الله القوى ، العزيز . فتعقيب الآية بقول الله : « إن الله لقوى عزيز » : يرشد المؤمنين بالله إلى أن يلتمسوا القوة ، والعزة التى هى فى مباشرة العدل ، والانتفاع بالحديد معاً . فإذا ما التمسوها وأصبحوا أقوياء ، كانوا عابدين حقاً لله الذى هو القوى العزيز . فالله لا يرضى عن عباده الضعفاء . وإنما يرضى فقط عن أولئك الذين يحاكون صفاته عن طريق عبادتهم إياه فى : سلوكهم ، وفى مواقفهم ، وأفعالهم . ومن صفاته : القوة والعزة .

- والعدل فى ضروبه المختلفة تشير إليه آيات القرآن ، فيما يقوله الله عز وجل :

(١) فيقول فى شأن العدل فى القول : « وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى »[١] .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(ب) ويقول فى شأن العدل فى الحكم : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[١] .

(ﺟ) ويقول فى شأن العدل فى المصالحة : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين »[٢] .

(د) ويقول فى شأن العدل فى الشهادة : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله »[٣] .

(ﻫ) ويقول فى شأن العدل فى المعاملة المالية : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط »[٤] . ويقول أيضاً : « وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم »[٥] .

وفى الوقت الذى يأمر فيه القرآن بالعدل ـ وعلى الأخص فى هذه الجوانب ـ ينهى أيضاً عن أن يتأثر الإنسان فى مباشرته العدل :

(ا) بالغضب فيقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(ب) وبالهوى والرغبة فيقول : « فلا تتبعوا الهوى ، أن تعدلوا »[٦] .

(ﺟ) وبالتحيز بسبب العقيدة فيقول : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبروهم وتقسطوا إليهم »[٧] .

---

(١) النساء : ٥٨ .
(٢) الحجرات : ٩ .
(٣) الطلاق : ٢ .
(٤) الأنعام : ١٥٢ .
(٥) الاسراء : ٣٥ .
(٦) النساء : ١٣٥ .
(٧) الممتحنة : ٨ .

• ولكن لا يستطيع الإنسان أن يباشر العدل بين الناس فى ضروبه المختلفة : فى القول ، والحكم ، والمصالحة ، والشهادة ، والمعاملة ، ولا يستطيع كذلك أن يتخلى عن الغضب ، والهوى ، والتحيز فى مباشرته إياه ، إذا لم يكن هو « عادلا » فى نفسه بين مقتضيات بدنه ، وتوجيه حكمته وعقله . . إذا لم يكن معتدلا فى سلوكه وتصرفاته . . إذا لم يكن متوازناً بين ذاته من جانب ، والآخرين معه فى المجتمع من جانب آخر .. لا يستطيع ذلك إذا كان « أنانيا » أو « انتهازياً » أو « ماديا » أو « منفعياً ومصلحيا » .

إن مباشرة العدل بين الناس تحتاج إلى إنسان عرف العدل ، وطبقه فى حياته الخاصة أولا . والعدل — كقيمة من القيم العليا — لا يختلف عن « الحكم » و « الدين » إن دخل أى منهما مجال الاحتراف فإنه يكون أسوأ ما تمنى به البشرية . وهنا كان أمر الله لرسوله الكريم : « وأمرت لأعدل بينكم »(١) .

الاحســـان :

• يروج بين المسلمين فى معنى « الإحسان » : أنه العطاء للمال لصاحب الحاجة . وانتهى أمر الإحسان فى التطبيق بين المتأخرين منهم .. إلى : أنه منح القليل للعاجز ، أو لصاحب العاهة . وأصبح أمره فى تقدير المجتمع المعاصر ينطوى على مهانة ومذلة لمن يمنح هذا القليل . ومن أجل ذلك يعمد هذا المجتمع المعاصر إلى التشريع ، فالتنفيذ بالقوة الإلزامية فى سد حاجة المحتاج بإسم : «الضمان الجماعى» أو بأى إسم آخر . ويفاخر هذا المجتمع المعاصر كذلك بأنه يحتفظ للمواطن بكرامته الإنسانية عن طريق هذا التشريع . ولكن إذا قرأنا قول الله تعالى فى سورة الليل : « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى : فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »(٢) .. إذا قرأنا هذه

---

(١) الشورى : ١٥ .   (٢) الليل :١ — ١٠ .

الآيات نجد أن الإحسان ، أعم من العطاء للمال . نجده هنا : يشمل العطاء والتقوى ، كما تذكر الآية : (فأما من أعطى واتقى) . وقول القرآن بعد ذلك : (وصدق بالحسنى) هو تعقيب على العطاء والتقوى معاً . وهذا النوع من الناس الذى يعطى المال ويتقى — مع تصديقه وإيمانه بالإحسان — أمره ميسر فى حياته وفى آخرته . لا يحقد عليه إنسان معه فى حياته . وعمله مقبول عند الله فى آخرته . لأنه امتثل لما أراده الله منه فى شأن السلوك الإنسانى معاً .

وفى مقابل هذا النوع : الآخر الذى يمسك عن العطاء ، ويستغنى بماله عن تقواه وعمله الصالح ، مع تكذيبه وإنكاره لمبدأ الإحسان ، فإن أمره يصير إلى العسر والشدة فى حياته وآخرته : « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » . . أى سقط فى أزمة فى حياته ، أو انتهى أمره إلى الموت فى آخرته . فالحقد يحيط به من كل جانب ، والمذلة من أجل جمع المال تسقط كرامته فى دنياه . ثم هو فى آخرته لا ينال الحسنى من الله ، لأنه خالف ما أمره به فى المال والسلوك .

● وكذلك إذا قرأنا بعض آيات القرآن التى تصف عملا المؤمنين بالإحسان ، كما فى قوله : « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »(١) .. فإن هذه الآية تعقب بقوله : «والله يحب المحسنين » وتقصد بالمحسنين أولئكم المؤمنين الذين يتصفون بالإنفاق فيما يسر وفيما يدفع الضر والشدة ، وبأنهم يكظمون غيظهم عندما يساء إليهم شخصياً من غيرهم ، وبأنهم يعفون ويتسامحون عن هفوات هؤلاء . فأدخلت الآية : كظم الغيظ ، والعفو عند المقدرة عن الناس ، بجانب الإنفاق فى سبيل المصلحة العامة : فى صفات المحسنين . وهنا شمل الإحسان ما ليس بعطاء من المال . . شمل موقفاً كريما مهذبا للإنسان المؤمن ، وهو موقف الكاظم لغيظه من إساءة غيره ، وموقف الذى يتسامح للآخرين ، مع قدرته على الجزاء ورد الإساءة بالإساءة .

---

(١) آل عمران : ١٣٤ .

وكذلك الشأن إذا قرأنا ما يوجهه القرآن إلى المؤمنين فى قوله :

١ — « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون .

٢ — « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين .

٣ — « واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[1] .. نرى هذه الآيات الثلاث تصف: موقف المؤمنين من أعدائهم بما يجب عليهم : من عدم الركون إليهم والثقة فيهم ، ومن مباشرة الصلاة فى أوقات مختلفة من النهار والليل . . ومن الصبر والتحمل على مناوشة الأعداء إلى أن يتمكنوا من دفعهم .. تصف هذا الموقف من المؤمنين : بالإحسان .. تصفه مرة فيما تقول آية : « إن الحسنات يذهبن السيئات » .. وتصفه مرة أخرى الآية : «فإن الله لايضيع أجر المحسنين » .

ومع ذلك ليس أداء أى عمل من هذه الأعمال عطاء للمال إلى محتاج إليه . وإنما ما يطلب من المؤمنين هنا فى هذه الآيات الثلاث : هو موقف نفسى ـ كعدم الركون ، وعدم الثقة بالأعداء ، والصبر والتحمل لمناوشتهم — أو عبادة يتصل بها العابد بربه ، كإقامة الصلاة فى بعض أوقات النهار والليل .

● وإذا انتقلنا إلى نوع آخر من الآيات التى تدعو إلى الإحسان فى التعبير، كما فى قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا : التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا »[2] .

. . أو إلى الإحسان فى الجدل والنقاش كما فى قوله : « ولا تجادلوا أهل

---

(١) هود : ١١٣ ـ ١١٥ . (٢) الاسراء : ٥٣ .

الـكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليـكم ، و إلهنا و إلهـكم واحد ونحن له مسلمون »[1] ،

. . أو إلى الإحسان فى رد التحية على نحو ما تذكر الآية : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »[2] .. إذا انتقلنا إلى مثل هذه الآيات : نجد الإحسان عبارة عن تهذيب فى القول ، والمنطق ، والوجدان ، وليس عطاء للمال، فى قليله أو كثيره .

• وهـكذا لو تتبعنا معنى الإحسان فى آيات أخرى ، كتلك التى تحـدد المعاملة فى الأسرة ، مثل الآية التى تطلب من الأولاد أن يحسنوا إلى آبائهم فى قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا : إما يبلغن عندك الـكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقـل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل : رب ارحمهما ، كما ربيانى صغيرا»[3] . أو الأخرى التى تطلب من الزوج : الإحسان إلى الزوجة عند طلاقها فى قول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »[4] . . لو تتبعنا مثل هذه الآيات لوقفنا على أن معنى : «الإحسان» إلى الوالدين هو ماشرحته بقية الآية التى طلب فيها الإحسان إليهما فى قوله : «إما يبلغن عندك الـكبر : أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقـل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما ، كما ربيانى صغيراً » . ومضمون ما طلب هو : رعاية الشعور النفسى ، وتوفير الاحترام لهما ، أكثر من إنفاق المال عليهما .. ولوقفنا أيضاً على أن معنى «الإحسان» إلى الزوجة عند طلاقها ومفارقتها نهائياً هو: معاملتها معاملة إنسانية كريمة فى الاحتفاظ بكرامتها وتوفير معنى الاحترام

(١) العنكبوت : ٤٦ .
(٢) النســاء : ٨٦ .
(٣) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) البقـرة : ٢٢٩ .

لها، أكثر من تقدير « المتعة » لها، وهى النفقة القصيرة الأجل بعد طلاقها.

وهكذا « الإحسان » . . المطلوب من المؤمنين فى القرآن الكريم يتعدى عطاء المال إلى : التهذيب فى المعاملة، وفى النطق، وفى المخاصمة، وفى المواقف التى تتخذ قبل الآخرين .. نجده : السلوك الإنسانى فى مستواه الرفيع .

ولذا كان الإحسان درجة فوق العدل، ومأموراً به لتماسك الجماعة وبقائها على الصفاء النفسى :

إنه الإعطاء حقاً،

ولكنه إعطاء من الإنسانية، قبل الإعطاء من الماديات،

وإنه التزام من المؤمن لنفسه، وليس إلزاماً من سلطة وراء ذاته .

● **الوسيلة :**

● يفهم بعض المسلمين مما جاء فى قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله، وابتغوا إليه الوسيلة، وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون »[1] .. يفهم من تعبير الآية بـ : « الوسيلة » : أن الوسيلة هى : « الوساطة » بين الإنسان والله . . وأنها وساطة مجسّمة فى شخص حى يرزق، أو ميت : يقصد بالزيارة فى قبره، فى المناسبات أو فى فترات متقطعة . وكأن المؤمنين يتوسل بعضهم ببعض إلى الله، وأنه يكفى فى القربى إلى الله : أن يتوسط إنسان لإنسان .

● ومعنى الوسيلة على هذا النحو، من : الوساطة، يتعارض مع قول القرآن الكريم فى آية أخرى : « من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد »[2] . إذ هذه الآية تبرز معنى المسئولية الفردية . أى تبرز : أن عمل الإنسان هو الذى يقربه إلى الله إن كان عملا صالحاً، وهو نفسه الأمر الذى يبعده عن الله إن كان عملا سيئاً . والقربى إلى الله حينئذ لا تكون إلا بالعمل الصالح

(١) المائدة : ٣٥ .

(٢) فصلت : ٤٦ .

المستقيم لمن يباشره ، دون أن تتحقق بوساطة شخص آخر ، مهما كانت درجته في التقوى والإيمان : «ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ، فأولئك لهم الدرجات العلى »(١) .

والإسلام يحارب الشرك والوثنية ، لأنه يقصد من محاربتها إلى رفع : « الوساطة » بين الله والناس ، ويريد أن يسوي بينهم جميعاً في موقفهم : أمام الله. والناس جميعاً : كما هم متساوون في الإعتبار البشرى ، هم أيضاً متساوون في المسئولية الفردية عن أعمالهم . إذ على أساس من هذه المسئولية الفردية يكون جزاء الله لهم . وهو جزاء متنوع بين : رضاء الله وجنته ، وغضبه وجحيمه . وفي تنوع جزاء الله حسب تنوع أعمال الناس . . لا يكون الله ظالماً لأحد ممن يقع عليه جزاؤه ، إن بالرضى ، أو بالغضب عليه . لأن نوع الجزاء مرتبط بنوع العمل :

« وما ربك بظلام للعبيد » .

والوسيلة التي جاءت في هذه الآية — كما جاءت في آية أخرى في الكتاب الكريم — هي العمل الصالح وحده الذي يأتي به المؤمن ، والذي هو مسئول عنه . والآية هنا ، وهي قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » .. تطلب إلى المؤمنين ، أولا : أن يتقوا الله ، أي يتجنبوا غضبه . وذلك بترك المحرمات . وبالأخص : ترك الجرائم الإجتماعية منها ، وهي : القتل ، والسرقة ، والزنا ، وثانياً : أن يبتغوا إليه الوسيلة ، بأن يباشروا العمل المستقيم ، وهو العمل الإنساني الذي يفيد الإنسان والآخرين معه ، ولا يؤذي أحداً منهم ، والذي من شأنه أن يعود على الأمة بالترابط وبالقوة وبالعزة والمنفعة ، وعلى وجه أخص : يباشروا الجهاد في سبيل الله : بدفع الاعتداء عن الأمة ، وعن قيمها العليا التي آمنت بها .

---

(١) طه : ٧٥ .

وعلى هذا النحو لمفهوم « الوسيلة » : ما جاء فى الآية الأخرى من قول الله تعالى : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون : يبتغون إلى ربهم الوسيلة — أيهم أقرب — ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً »[١] . الآية الثانية فى هاتين الآيتين : تندد بمن يعبدون غير الله من أفراد الإنسان . فبينما يتجه هؤلاء العابدون لغير الله بعبادتهم إلى بعض أفراد الإنسان ، إذا بذلك البعض الآخر الذى يتجه إليه بالعبادة يسعى هو بالعمل الصالح إلى ربه ، ويبتغى إليه الوسيلة ، وهى القربى بهذا العمل الصالح . وهذا معنى قوله : « أولئك الذين يدعون (أى هؤلاء الذين يتجه إليهم بالعبادة) يبتغون إلى ربهم الوسيلة (أى يسلكون إلى الله طريق العمل الصالح) ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه » . فأى الفريقين هنا أقرب إلى الله ؟ : أذلك الفريق الذى عبد من غيره ، وهو نفسه يتقرب إلى الله بالعمل الصالح ؟ أم ذلك الفريق الآخر الذى وقف بعبادته عند بعض أفراد الإنسان ، دون الله ؟ : « أيهم أقرب ؟ » .

وهكذا : الوسيلة هى العمل الصالح — وليست الاستناد إلى شخص آخر — فى القربى إلى الله .

● **الجهـــاد :**

إن مفهوم الجهاد — فيما تذكره آيات عديدة من القرآن الكريم — مرتبط بسبيل الله . . مرتبط بنشر مبادىء الدين ، أو بالدفاع عنها . يقول الله تعالى :

« إنما المؤمنون : الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله (أى عملوا جاهدين عن طريق إنفاق أموالهم ، أو بذل طاقاتهم البشرية فى تأييد الدين ونشره) أولئك هم الصادقون (أى فى إيمانهم) »[٢] . .

---

(١) الاسراء : ٥٦ ـ ٥٧ . (٢) الحجرات : ١٥ .

يقول الله ذلك فى توضيح : أن من نتائج الإيمان الصادق .. بذل ما يملك المؤمن من مال ، أو جهد إنساني : ابتداء من أى مستوى .. إلى التضحية بالنفس ، فى سبيل الدعوة إلى الدين وقيمه .

ويقول أيضاً فى سبيل الدفاع عن الدين وقيمه عندما يعتدى عليها : « أذن للذين يقاتلون (أى أذن للمؤمنين الذين يقاتلهم أعداؤهم بسبب تمسكهم بالإيمان بالله .. أن يقاتلوهم ويردوا اعتداءهم) بأنهم ظلموا (أى وسبب إذن الله لهم برد الاعتداء عليهم : أنهم ظلموا بالاعتداء عليهم ولم يكونوا هم البادئين به) وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس : بعضهم ببعض لهدمت صوامع (وهى أماكن الرهبان) وبيع (وهى أماكن العبادة للنصارى) وصلوات (وهى أماكن العبادة لليهود) ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض : أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »[1] ... فهذه الآيات تأذن للمؤمنين بالقتال — كمرتبة من مراتب الجهاد — لرد الاعتداء ، والدفاع عن مبادىء الدين ورسالته ، وفى الوقت نفسه تستهدف ممارسة الحياة الإسلامية وفق تلك المبادىء ، إن مكنوا وانتصروا على أعدائهم .

فشرط أساسى فى الجهاد : أن تكون الغاية منه هى الدين ومثله العليا : دعوة ، ودفاعاً ، وتطبيقاً . واسترداد المؤمنين أرضهم وديارهم التى أخرجوا منها ، عن طريق الجهاد ، ليست لذاتها ، وإنما ليباشروا عليها حياتهم الإسلامية من جديد ، ويحققوا فوقها قيمهم العليا التى أتى بها الدين . ومعنى ذلك : أن وجوب الجهاد وعده من صفات الإيمان ، إن تعلق بأرض الوطن . يتعلق بها

---

(١) الحج : ٣٩ — ٤١ .

لأنها موطن المسلمين ، ولأنها أرض يعلن المؤذن فوقها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، من قبل ومن بعد .

« وإذا كان الدين هو المستهدف أساساً فى فريضة الجهاد .. فإن الجهاد ليس بلازم أن يكون قتالا ، إلا إذا فرض القتال . . فرضه العدو لرد اعتدائه بالحرب أو ما يشبه الحرب : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »(١).

.. يكون الجهاد بالكلمة والدعوة ،

.. ويكون الجهاد بالقدوة الطيبة ،

.. ويكون الجهاد بإعلان إنكار المنكر ،

.. ويكون الجهاد بالسيف والقتال .

وفيما يقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »(٢) — فى خطاب موجه إلى جميع المؤمنين — فيما يقوله الله هنا يؤذن بأن الجهاد له مستويات متنوعة : فضلا عن أنه بالمال والنفس .. فإن درجات المال ، مختلفة وطاقات النفس عديدة . وإذا كان المال يختلف بالقلة والكثرة فى أيدي المؤمنين ، فإن طاقات النفس بينهم تتعدد من : اللسان والقدرة على البيان .. إلى القلب وما يملك من المحبة والكراهية .. إلى اليد وما تستطيع من ضرب وقتل .. إلى العقل وحكمته وإبداعه . . كل تلك جوانب متعددة ومختلفة لدى المؤمنين . ونوع الجهاد كفريضة عليهم يتحدد بالنسبة لكل مؤمن ، حسب ما هو بارز فيه من طاقة ومقدرة .

أما بالنسبة للمؤمنين كأمة فنوعية جهادها فى سبيل الله يختلف باختلاف أوضاعها وعلاقاتها بالآخرين . فقد تفرض على الأمة الإسلامية من الآخرين حرب

---

(١) البقرة : ١٩٤ .   (٢) الصف : ١٠ ، ١١ »

إيديولوجية ومذهبية رداً لتشويه مغرض ودعاية مسمومة ضد الإسلام ، وهنا : يكون من اللسان والقدرة على البيان ، وتكون حكمة العقل فى السياسة . وقد تفرض على هذه الأمة حرب اقتصادية ، وهنا : يكون المال فى جمعه من القادرين واستثماره عن طريق من لهم خبرة فى شئون استثماره والانتفاع به فى سبيل مصلحة عامة . وقد تفرض عليها حرب تسفك فيها الدماء ، وهنا يكون إبداع العقل فى القيادة ، ومال القادرين فى العدّة ، وشجاعة الأقوياء فى لقاء العدو فى ميدان القتال . وقد يفرض عليها لون من ألوان استعمار القوى ـ والأمة ضعيفة لا تستطيع المواجهة الصريحة — وهنا تكون كراهية القلوب وبغضاؤها ، وعدم قبول النفوس لأى نوع من أنواع التعاون مع المستعمر .

● ومشروعية الجهاد إذن هى الطريق إلى الحياة : كيف يحتفظ المؤمنون بحياتهم ؟ .. كيف يصونون استقلالهم وكرامتهم ؟ .. ـ واستقلالهم وكرامتهم : فى عدم تبعيتهم لغيرهم فيما يعتقدون ، وفيما يسلكون ـ كيف يكونون آمنين غير مهددين فى أوطانهم ؟ - كيف يكونون أعزاء وسعداء بثرواتهم ؟.. كيف يكون بناؤهم لمستقبل مجتمعهم وهم أحرار ؟

إن الجهاد ضرورة الحياة . وإن ارتباط الجهاد بالإيمان بالله وبسبيل الله ، هو الطريق لبقاء حيويته ولنجاحه أيضاً فى آثاره .

● ولى الله :

● هناك أولياء لله .

وهناك أيضاً أولياء للشيطان .

وهناك أولياء للكافرين أو الأعداء كذلك .

إن القرآن فى حديثه عن أولياء الله يذكر قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله

لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون »[1] . . كما يشير فى آية أخرى إليهم بقوله : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لايعلمون[2] » .. فيحكم على أولياء الله بأنهم «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . ويصفهم بأنهم : المتقون . . وفى الوقت نفسه ينفى عن المشركين أنهم أولياء الله ، ويحكم عليهم بأن عذابه لاحق بهم لا محالة بسبب عداوتهم للإيمان وصدهم عن المسجد الحرام .

ولكي نعرف « المتقين » الذين هم أولياء الله ، والذين هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. نتابع النقل عن القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ليس البر (أى ليست الهداية ولا اتباع الحق) أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر :

١ — «من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ،

٢ — « وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ،

٣ — « وأقام الصلاة ،

٤ — « وآتى الزكاة ،

٥ — « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ،

٦ — « والصابرين فى البأساء ، والضراء ، وحين البأس ،

« أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »[3] .. ففى هذه الآية يصف

---

(١) يونس : ٦٢ ، ٦٣ . (٢) الأنفال : ٣٤ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .

القرآن التقوى بست صفات ، هى : الإيمان ، وإنفاق المال مع الرغبة فى إنفاقه لصالح الأهل وأصحاب الحاجة فى حياتهم اليومية أو فى حياتهم الإنسانية كالمكرهين على أمرهم فى شئونهم وحريتهم ، وإقامة الصلاة ، وإخراج الزكاة ، والوفاء بالعهد إن أعطوه ، والصبر فى الشدائد ووقت الأزمات .

فالتقوى هى إيمان وسلوك . . هى إنسانية تتجلى فى الإيمان بالله ، وفى رعاية الغير والآخرين ، رعاية نفسية ومادية . . هى حد من الأنانية لإفساح مجال المشاركة فى المساندة والمعاونة . . هى طاقة فى النفس تحملها دائماً على التفكير والعمل من أجل الغير ، كما تفكر وتعمل من أجل الذات . والمتقى إذن هو ولى الله والمنحرف عن طريق التقوى هو ولى الشيطان ، أو ولى الكافرين . والمتقون أو أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . لأن أساس الخوف هو الحرص على متع الحياة المادية من الضياع . ولأن الحزن نتيجة لما ضاع فعلا من متعها . وولى الله — كما وصفته الآية هنا — يعطى من نفسه ومن ماله ، وهو راغب ومحب للعطاء ، وهو صابر فى البأساء والضراء ، لأنه يعلم أنه يعيش لهدف ، هو : الايمان بالله ، والبقاء على هذا الإيمان . ومن ثم لا تلعب متع الدنيا فى حياته إلا دور عدم الحرص عليها . فإن جاءت فهى للآخرين معه . وإن ولت فلا أسف على ذهابها . وهنا لا يخاف ضياعها ، ولا يحزن على فواتها . وكذلك لا يخشى عليهم . لأنه يخشى عليهم من ماذا ؟ . هم يعطون الآخرين ، ويعاونوهم على التحرر من : الجوع ، ومن إذلال العبودية فى أية صورة من صور الإذلال . والآخرون من أجل ذلك لا يحقدون عليهم . وبالتالى لا يضمرون الانتقام منهم . فهم لاخوف عليهم . ولا يخشى عليهم أيضاً ، لأنهم أوفياء بعهدهم ، وأمناء على غيرهم فى أعراضهم ، وحرماتهم ، وأماناتهم . ولذا هم مطمئنون . ولا يخشى عليهم من إذلال أعداء الله لهم ، إن وقعوا فى أزمة وفى شدة ، لأنهم أقوياء ، وأصحاب قدرة

على التحمل والاستمرار فيه ، حتى تمر الأزمة . فهم ليسوا قابلين للإذلال بسبب الشدة والضيق .

● وإذا كان ولى الله هو المتقى ، وإذا كانت التقوى صفات تحدد السلوك والاتجاه فى الحياة : على أساس من هدى الله وكتابه . . فالولاية لله مفتوحة لمن يتقى ، ويتبع كتاب الله وهدايته . وأولياء الله بالأمس لا يتميزون على أولياء الله اليوم .. أو فى الغد ، إلا فى مستوى التقوى . فأكرمهم عند الله أتقاهم ، أى أكثرهم تقى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وولى الله إذن ليس هو من يخرج عن هداية الله ، ويسقط تكاليفه ، بدعوى: « التميز » والاتصال بالحقيقة ، وعـدم الحاجة إلى هذه التكاليف الظاهرة !! . فرسول الله عليه الصلاة والسلام كان الإمام بين أولياء الله ، ومع ذلك فهو : « القدوة » فى تطبيق هداية الله والعمل بتكاليفه . وولى الله إذن كذلك : ليس «صاحب الضريح والقباب» .. وليس «صاحب الرداء المزركش» .. وليس «المدعى للـكرامات » .. ولا « المتحدث عن النفحات » . إن أولياء الله هم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » . إن أولياء الله هم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وهم الذين يقون المسلمين من شر الأعداء ، ويقون الإسلام من مادية الشرك وإلحاده ، هم : « الذين آمنوا ، وكانوا يتقون » :

● **العفو .. والصفح :**

● العفو ـ كصفة ممدوحة ـ ليس هو التنازل للآخر عن خوف أو جبن ، وإنما هو التنازل عن قدرة على البقاء على عدم الصفح فى مواجهة من يعفى عنه . يقول الله تعالى ـ متحدثاً عن نفسه جل شأنه ـ فى كتابه الكريم : « إن تبدوا خيراً أو تخفوه ، أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً »[1] .. فإنه يصف

(١) النســاء : ١٤٩ .

نفسه بالعفو ، مقترناً بوصفها بالقدرة فى اللحظة ذاتها : « فإن الله كان عفواً قديراً» .. ليشير إلى أن صفة العفو فى الإنسان ـ وقد طلبه هنا : « أو تعفوا عن سوء » ـ لا تعد فضيلة له أو محل اعتبار وتقدير ، إلا إذا جاء العفو نفسه عن استطاعة فى البقاء على عدمه ، مع تحمل مسئولية التشدد فى الموقف .

● وإذا كان العفو هو التنازل عن قدرة فلا يكون الدافع إليه : هوى النفس . بل يجب أن تدفع إليه اعتبارات تتصل بالمجتمع ، أو بظروف من يقع منه العفو :

(١) فمن الاعتبارات التى تتصل بالمجتمع : حاجة من وقعت منهم الإساءة إلى معاونة من وجهت إليهم هذه الإساءة . يقول الله تعالى :

«ولا يأتل (أى يحلف) أولو الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ،

« ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »[١] .. فقد نسب القرآن إلى بعض أصحاب الحاجة من الأقرباء ، والمهاجرين فى سبيل الله ، ومن عداهم : أنهم شاركوا فى إساءة تتصل بأصحاب الفضل واليسار فى الأمة ـ وفى مقدمتهم أبو بكر رضى الله عنه ـ فبيت هؤلاء العزم وعقدوا اليمين على عدم مشاركة أولئكم فى أموالهم ، وسد حاجتهم منها . فجاءت الآية تتطلب العفو والصفح عن الإساءة التى وقعت ، وتطلب بالتالى : العودة إلى العلاقة التى كانت قائمة قبل . وهى علاقة المعاونة والمساعدة لاعتبار إنسانى ، هو الرحمة بأصحاب الحاجة فى المجتمع ، وفى ذلك مصلحة الأمة كلها .

وكان التعقيب فى الآية هو : لفت أنظار من وجه إليهم طلب العفو إلى أنهم من غير شك إذا أخطأوا — وهم من بنى الإنسان وليسوا فوقهم —

---

(١) النور : ٢٢ .

يودون أن يغفر الله لهم . ثم من جهة ثانية شمل هذا التعقيب لفت أنظارهم لما عليه الله من صفة : المغفرة والرحمة : «وكان الله غفوراً رحيما » . والمؤمن بالله هو من يتقرب إلى ذاته الكاملة : بالعمل على أن يتخلق بأخلاقه ، وأن يحاكى صفاته فى السلوك والمواقف .

(ب) ومن الاعتبارات التى تتصل بالمجتمع أيضاً ، فى شأن العفو : الإبقاء على التماسك فيه ، والمحافظة على قوته فى البناء . يخاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[1] .. ويطلب إليه العفو عمن تولى وهرب من المسلمين فى « أحد » يوم التقى الجمعان ، حفاظاً على وحدة الأمة وقوتها فى مواجهة أعدائها ، رغم أن هذا البعض الذى دفعه إلى التولى : التعجل بالغنائم من الأعداء . ولم يطلب القرآن إلى رسول الله : العفو فقط ، بل طلب مع ذلك منه استغفار الله لهم ، وإشراكهم فى الرأى فيما يتصل بشئون الأمة ، إشعاراً لهم باعتبارهم وقيمهم فيها ، وتطميناً لنفوسهم. وقد سبق لله تعالى : أن عفا عنهم فيما تحكيه آية أخرى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

وتعقب الآية بوصف الله : بأنه حليم ، بعد وصفه بأنه غفور ، لتفيد : أن هؤلاء الذين أخطأوا يوم « أحد » بالانصراف إلى الغنائم وعدم الثبات فى أماكن القتال التى حددت لهم قبل انتهاء الموقعة .. يجب أن تعطى لهم فرصة أخرى لاختبار قوة إيمانهم ، ولا يؤخذون بقبولهم لإغراء الغنائم بعد الجولة الأولى فى الميدان . وللمصلحة العامة إذن أن يعفى عنهم .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(ﺟ) ومن هذه الاعتبارات كذلك عدم التفريط فى حق عام . فقد وجه القرآن لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما تذكره الآية : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين »[١] .. أن الله قد عفا عنه، وأنه ما كان ينبغى له أن يجيب بعض المؤمنين — وهم فى حقيقة أمرهم من المنافقين — إلى ما طلبوا من القعود عن القتال . فالعتاب الذى يوجهه القرآن إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — خاص بسياسة الأمة ومصلحتها فى وقت الحرب والقتال . والسياسة الحكيمة فى هذا الوقت : هى التعرف على العناصر الإنهزامية فى الداخل التى تضمر العداء للإيمان بالله فى الواقع ، وتتستر وراء إعلان الإيمان ، ولا تتردد فى هذا الوقت أن تتآمر ضد الأمة وسلامة أمنها . والتعرف على هذه العناصر : من حق الأمة والمصلحة العامة ، قبل حق القائد فيها . ولذا لا ينبغى السماح بما يعوق هذه المصلحة .

فعفو الله إذن عن الرسول لهؤلاء الانهزاميين بالقعود عن المشاركة فى القتال .. كان تطميناً لخاطره فقط . ولكنه أكد حق المصلحة العامة بعتابه ، وبتوضيح خطورة الأمر ، فيما لو عدل عن السياسة الواجبة الاتباع فى هذا الوقت . وقد كشف أمرهم فى قوله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم، والله يعلم : إنهم لكاذبون »[٢] .

أما الاعتبارات التى تتصل بظروف من يقع منه العفو فترجع إلى الرغبة فى « رده الصدع » وعدم اتساع شقة الخلاف ، والعودة إلى العلاقة التى تقوم على صفاء النفوس . ومن يعفو عندئذ فهو من المحسنين ، أصحاب التهذيب فى إنسانيتهم. وقد جاء فى وصف أصحاب الإحسان من المؤمنين قوله تعالى : « الذين ينفقون فى

---

(١) التوبة : ٤٣ . (٢) التوبة : ٤٢ .

السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين[1] » .. فعد العفو عن الناس إحساناً ، كالإنفاق فى السر والعلن ، وكضبط النفس عندما يوجب انفعالها من الآخرين .

ثم — كمبدأ عام — جاء قوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين »[2] .. فوعد بمثوبة من عفا عن الإساءة ، ولم يباشر جزاء مماثلا إلى صاحب الإساءة ، مع قدرته عليه ومع أنه من حقه . وفى الوقت نفسه توعد القرآن هنا المعتدى والمسىء : بأنه بعيد عن رضاء الله وحبه : « إنه لا يحب الظالمين» . والآية بذلك تحقق الصفاء والسلام فى العلاقات بين الأفراد .

وإذن : ليس العفو تنازلا عن عجز . وليس تفريطاً فى مصلحة عامة . وليس العفو لشهوة النفس وهواها . العفو عمل إنسانى لمصلحة الفرد ، ولمصلحة الأمة ممن يستطيع أن يقدمه .

● **القنـــاعة :**

لا يمل الطفل السؤال لوالديه — وحتى الأجنبى عنهما — لحاجة أو لغير حاجة. فمن خصائص طفولته حب الذات ، أو الأنانية . والأنانية من شأنها أن تسعى إلى اقتناء ما يقع عليه النظر وإلى جمعه وتحصيله ولو كان مكرراً ، ولو لم تكن هنالك حاجة تدفع إلى تحصيله . وأنانية الطفولة من أجل ذلك : هى المصدر فى كثير من الأحايين لبكائه أو لصياحه ، أو لاشتباكه مع أطفال آخرين معه يسعون كذلك إلى الاقتناء والتملك فى الدائرة التى يعيشون معاً فيها .

وظاهرة : الشره فى التحصيل والاقتناء — بغض النظر عن الحاجة أو عدم الحاجة — التى تبدو واضحة فى الطفولة ، تستمر كذلك بعد الطفولة ، ولكن فى

---

(١) آل عمران : ١٣٤ . (٢) الشـورى : ٤٠ .

صورة مقنعة . ولا يضع لها حداً فى تطور مراحل الإنسان إلا تكوين عادات أخرى عن طريق الدين والخشية من الله ، والتقرب إليه كذلك . وعبادتا الصوم والزكاة لهما دورهما الواضح فى الحد من أنانية الإنسان ومن دفعه إلى وعى « الوجود المشترك » بينه وبين غيره فى مجتمعه وأمته . وعن هذا الوعى بالوجود المشترك لا يخفف الإنسان من أنانيته ، بالإمساك عن « خطف » ما بيد الغير فحسب — كما يفعل الطفل — وإنما يسلك سلوكا آخر مقابلا لمسلك الأنانية ، وهو : أنه يعطى لغيره ، دون أن يأخذ بديلا عما يعطى .

و « الغضب » الذى يباشره الإنسان الذى تجاوز مرحلة الطفولة هو ظاهرة « الشره » الأنانية التى تبدو فى سن الطفولة ، والتى بقيت رواسبها متمكنة فى نفس الغاضب . لأن هذا الغاضب لم يعود على عادات أخرى ، تحمله على الوعى بالوجود المشترك بينه وبين غيره .

و « القناعة » التى يوصف بها الإنسان « القنوع » هى : « الرضى » بما يقع فى يد الإنسان القانع وبما يقسم له من متع الحياة . فإذا تطورت « القناعة » إلى الرضاء « عما يفى الحاجة » من مال القانع كانت القناعة عندئذ خلقاً إنسانياً كريماً .. كانت فضيلة .. كانت أمارة قربى إلى الله تعالى . فرضاء الإنسان بما قسم له فى الحياة أو بما وقع فى يده مما يدفع به الإنسان حاجته فى الحياة من أجل العيش ، هو فى واقع الأمر : رضاء « بقدر الله » جلا جلاله : « وأنه هو أغنى وأقنى »[1] .
والرضاء بقدر الله هو طاعة الله وقربى إليه فى الوقت نفسه . ولكن الرضاء بما يفى بالحاجة مما يملك القانع مع القدرة على ما فوق الحاجة .. أى مع القدرة على الترف ، هو رضاء عن إرادة ومشيئة ، وليس رضاء عن عجز أو فقر . فهو أكثر قربى إلى الله . وهو أدخل فى إنسانية الإنسان ، إذا أنفق ما زاد عن حاجته فى سبيل الآخرين .. فى سبيل حاجاتهم المتنوعة .

(١) النجم : ٤٨ .

وهنا لا يعد البخيل أو المقتر على نفسه وأهله ورحمه « قانعاً » أى صاحب رضاء بما يفى بحاجته مع القدرة فوق الحاجة . لأن البخيل يمسك مازاد عن الحاجة لنفسه ـ وربما لنفسه فقط ـ فهو أنانى يشبه ذلك الطفل صاحب « الشره » فى جمعه لنفسه كل ما يقع عليه بصره ، وإن لم تكن به حاجة .

أما ذلك الذى يأخذ قدر حاجته من ماله ويترك الباقى منه لغيره فهو إنسان تمكنت منه الإنسانية التى تتمثل فى الوعى بوجود الآخرين معه، وبحقهم فى الحياة . وهنا الآن ثلاث صور للإنسان فى علاقته بما يحيط به من متع الحياة وإغرائها :

الصورة الأولى :

للطفل فى مرحلة طفولته . وهى صورة الأنانى الشره فى تحصيل ما يستمتع به ، لحاجة أو غير حاجة .

والصورة الثانية :

للإنسان الذى تجاوز مرحلة الطفولة ، ويرضى بما قسم له فى الحياة وبما يصيبه من متعها . فهو إنسان طيع لله وراض بقدره .

والصورة الثالثة :

للإنسان الذى يرضى بما يفى بالحاجة من المال الوفير الذى يملكه ، على أن يترك الزائد لغيره . فهو لا يرضى عن عجز وفقر ، وإنما عن قدرة وإرادة . . وإنما عن تقرب إلى الله وعن مزيد فى طاعته .

وهذه الصورة الثالثة تعكس الإنسانية وقيمها . لأنه إذا كان الإنسان الطفل لم يزل بأنانيته وهواه وغرائزه فى دائرة الحيوان فلا يعرف إلا نفسه وذاته ، فهذا الإنسان الذى يشرك غيره فيما يملك : يوجد الآن فى دائرة الإنسانية ، التى تقابل تماماً دائرة الحيوان فى فصائله المختلفة .

ومن هنا كانت « القناعة » عن مقدرة : تقرباً للإنسان لما عليه المولى جل جلاله فى غناه . فإذا وصف سبحانه نفسه بالغنى ، على نحو مايذكر القرآن الكريم

فى قوله : « واعلموا أن الله غنى حميد » وفى قوله : « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . . فغناه جلت قدرته غناء ذاتى ، أى أنه اكتفى — ويكتفى — فى وجوده بذاته ، وليست له حاجة إلى غيره .

والذى يقنع عن إرادة بما يفى بحاجته من ماله ، على أن يترك الباقى لغيره ، هو أشبه بأن يحقق لنفسه اكتفاء ذاتياً . إنه يوم تكون له حاجة يحاول أن يستغنى عن تلك الحاجة ، ولا يسأل غيره . وهو إذ يحاول الاستغناء عن الحاجة وعدم سؤال الغير يستعين بالصبر و بالتحمل . فهو كريم على نفسه ، ولا يتركها لمذلة السؤال إن إحتاج ، حين يعطى غيره إن ملك .

● **المعـــروف :**

● تأتى كلمة : « المعروف » فى آيات عديدة فى القرآن الكريم ؛ وتأتى وصفاً : لقول ، أو فعل ، أو سلوك . ومعناها المشترك فيما تأتى به ، هو : غير المنكر فى عقول الناس . فإذا وصف بها القول على نحو ما تذكر الآية : « ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ، فأولى لهم . طاعة ، وقول معروف ، فإذا عزم الأمر ، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »(١) . . فإن المراد عندئذ بالقول المعروف : القول غير المنكر وغير المستهجن فى عقول الناس ، وهو القول الصدق . ولذا كان التعقيب فى هذه الآية : « فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » . إذ عندما سأل المنافقون : سورة فى القرآن يحدد فيها طلب القتال من المؤمنين ، كانوا كاذبين مع أنفسهم فيما طلبوه . بدليل أنهم عندما طلب القتال بالفعل — عن طريق الوحى — ذهلوا ونظروا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام نظرة الخائف المرتعد من الموت : « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر

---

(١) محمــد : ٢٠ ، ٢١

فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض (وهم المنافقون) ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » . ولذا : كان نصح القرآن إليهم : أن يلتزموا الطاعة فيما يؤمرون به ، إن كانوا مؤمنين حقاً ، كما يحرصوا على أن يكون قولهم معروفاً ، أى غير منكر فى عقول الناس . وهو القول الصدق المعبر عن الحقيقة : « فأولى لهم : طاعة ، وقول معروف » .

وإذا جاءت — كلمة المعروف — وصفا لفعل ، كما فى قول الله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا[1] » .. فالقصد بالأكل بالمعروف، هو : الأكل غير المنكر فى عقول الناس، وهو الأكل المعتدل ، البعيد عن الاستغلال . إذ نهى الآية فيما تذكر : « ولا تأكلوها إسرافاً ، وبداراً ، أن يكبروا (أى لا تأكلوا أيها الأوصياء أموال اليتامى منتهزين فرصة صغرهم فى السن عند مباشرتكم لاستثمارها ، بسبب إسرافكم ووقوعكم تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة) » . إذ نهى الآية عن عدم المساس بأموال اليتامى على هذا النحو . . يجعل الأصل فى الوصاية على هذه الأموال : صيانتها وإبعادها تماماً ، عن أن تكون نهباً للضياع فى أية صورة . وهذا معناه : أن الوصى لو كان فى إشرافه على مال اليتيم ، فى حاجة لأن يأخذ منه نظير جهده فى المباشرة — وليس له من مال خاص ما يعوضه عن هذه الحاجة — فإن أخذه من هذا المال عندئذ : يجب أن يكون أخذاً غير منكر فى عقول الناس : « ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » . وغير المنكر فى

(١) النساء : ٦ .

عقول الناس فى الأخذ من مال اليتيم هو الأخذ بالاعتدال ، بحيث يبتعد فيه عن معنى الاستغلال .

وإذا أتت — كلمة المعروف — وصفاً لسلوك وموقف ، كما فى قوله جل شأنه : « وإذا حضر القسمة : أولو القربى ، واليتامى ، والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم : قولا معروفا »[1] .. فموقف أصحاب التركة هنا تجاه الأقرباء ، واليتامى والمساكين ، إذا ما حضروا قسمتها ، هو : إعطاؤهم شيئاً من الإرث ، مصحوباً هذا الإعطاء بلين القول لهم . أى مصحوباً بتعبير لا تنكره ولا تستهجنه عقول الناس . وهو التعبير اللطيف ، البعيد عن الإيذاء المعنوى . إذ العطاء المادى لمن هو فى حاجة إليه ، لا يدل على طبيعة خيرة من المعطى ، ولا على إنسانية فيه ، إن المعطى آذى بالقول النابى : صاحب الحاجة ، حين يقدم له عطاءه .

● وإذا أحال القرآن الحكم على كثير من تصرفات الناس ، ومواقفهم ، وسلوكهم ، إلى : المعروف .. فإنما يحيله إلى العقل العام فى الناس .. أى إلى ما تتفق العقول على عدم إنكاره . ولا شك أن هناك قدراً مشتركا بين الناس جميعاً يحدد معالم المنكر ، وبالتالى يحدد معالم المعروف ضده . والمعروف والمنكر إذن أمران متقابلان : أحدهما مرغوب فيه ، والآخر مرغوب عنه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[2] .. فجمعت الآية هنا بين المتقابلين ، مما يمكن أن يحدد مفهوم أحدهما بالضد من مفهوم الآخر .

● الصبر :

● يتحدث القرآن الكريم فى صفات المؤمنين عن صفة « الصبر » فى قول الله تعالى :

---

(١) النساء : ٨ .   (٢) آل عمران : ١١٠ .

« إنما يتذكر أولو الألباب :

١ — « الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق .

٢ — « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ،

٣ — « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ،

٤ — والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ،

٥ — « وأقاموا الصلاة ،

٦ — « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ،

٧ — « ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . »[1] .. فجعل القرآن الصبر – ابتغاء وجه الله – فى مستوى الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق ، وفى مستوى صلة الرحم والأقارب والجيران ، وفى مستوى الخشية من الله فى كل عمل يعمل وفى نية تنتوى ، وفى مستوى إقامة الصلاة ، وإنفاق المال فى سبيل الله سراً وعلنا ، وفى مستوى دفع الإساءة بالإحسان والتهذيب وكرم النفس . وجعل الذى يرعى هذه الصفات ويتعود عليها من أولى الألباب ، وأصحاب الحكمة فى السلوك الإنسانى ، ثم له فى الآخرة الجزاء الأوفى .

● هل الصبر ابتغاء وجه الله هو الاستسلام للمذلة والمهانة ؟ .

هل هو السكوت عن عدم فاعلية ، وعدم استطاعة بشرية ؟

أم هو ضبط النفس والتحمل فى سبيل أداء ما يجب أداؤه ؟ . . أم هو الصبر ابتغاء وجه الله فيتحمل صاحب الرسالة فى سبيل أداء رسالته ، ورب الأسرة فى رعاية أسرته وتوجيهها ، وصاحب الوظيفة فى أداء واجب وظيفته ، والقاضى فى سبيل تحرى العدل ، والحاكم فى سبيل إحقاق الحق وإقرار الطمأنينة والأمن ،

---

(١) الرعد : ١٩ — ٢٢

الفرد فى سبيل سيطرة حكمته على هواه ، والأم فى سبيل رعاية أولادها وسلامة صحتهم وعقولهم . . وهكذا ؟ .

إن التعامل مع الآخرين فى مجال الحياة المشتركة كما يحتاج إلى التروى يحتاج إلى الهدوء والسيطرة على الأعصاب ، كى يكون أسلوب المعاملة غير ضار بأحد. والصفة أو الطبع الذى يوفر للإنسان الهدوء والسيطرة على الأعصاب هو الصبر ابتغاء وجه الله . . أى هو التحمل فى سبيل النفع العام وتحقيق المصلحة العامة المشتركة . وعندئذ يكون الصبر صفة فى مستوى الصفات الأخرى التى أشادت بها الآيات السابقة ، والتى لاتوجد فعلا إلا إذا كان المتصف بها يحد من أنانيته ، ويحد كذلك من مطالب ذاته فى مصلحة الآخرين .

وهنا الاستسلام للمهانة ، والسكوت عن عجز وعدم فاعلية . . لا يتصل أى منهما بصفة الصبر ، ولا بالطاقة على التحمل .

● الصبر ـ كصفة فاضلة ـ يتطلب القدرة .. القدرة على الاحتمال وضبط النفس . يتطلب ممارسة وتدريباً على السيطرة على هوى النفس وانفعالاتها ، وعلى الرجوع إلى العقل والتروى فى مواجهة الشدة والأزمة أو فى مواجهة المشاكل ، لتحليلها والوقوف على النتائج التى تترتب على كل اتجاه أو موقف فيها . ولذا كان توجيه القرآن للرسول ، عليه الصلاة والسلام عند مباشرته الدعوة للإسلام ، يقوم على أمرين :

أولا : على العمل على صفاء النفس بقيام الليل وتلاوة ما نزل من القرآن فيه.

وثانياً : بالصبر على المعارضين لرسالته والمتنكرين له ، فى تهذيب وإنسانية . على نحو ما جاء فى سورة المزمل : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا (وهو الوحى بالقرآن) . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا».. ثم يقول : « واصبر على

ما يقولون (أى على ما يقول الأعداء) واهجرهم هجراً جميلا (أى ليس فيه إيذاء لك ولا لهم)» .

فمنذ بدء الدعوة إلى الرسالة كان «الصبر» مطلوباً من الله لرسوله الكريم ، ومأموراً به إياه · لأنه عامل رئيسى فى النجاح ، وفى دفع الهزيمة . ولكى يؤكد القرآن أهمية الصبر فى النجاح ، يأتى قوله مخاطباً المؤمنين : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » .. فصفة الصبر لا تجعل العدد القليل عند اللقاء والمواجهة يساوى فى القوة : العدد الكثير ، بل تجعله يتفوق عليه . ولذا يكون النصر للجانب الذى صبر مع قلة عدده ، ضد الجانب الآخر مع كثرته العددية .

إن القوة المعنوية هى أشد فعالية من القوة المادية ، لأنها فى حقيقة الأمر هى قوة الإنسان . والقوة الإنسانية هى دائماً قوة نافذة ومستمرة لغدها . وفى كل ما ينصح به الإسلام فى سبيل القوة يركز على القوة المعنوية والإنسانية فى الدرجة الأولى : « يا أيها الذين آمنوا : استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله ، أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون »(١) . فهو ينصح بالصبر والصلاة فى القتال فى مواجهة الأعداء .. وينصح بالصبر والصلاة فى مواجهة أزمات الحياة والشدة ، التى تطرأ بسبب الخوف ، والجوع ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . . ثم يعد بالنصر فى القتال ، وباجتياز الأزمات والشدائد فى سلام ، لأولئكم الصابرين . ويخص الصبر بالذكر هنا لا لأن أهميته تفوق أهمية الصلاة فى الإنجاح ، ولكن فقط ليؤكد أهمية الصبر ودوره فى الإنقاذ فى النجاة ، ثم الاستمرار فى الحياة .

---

(١) البقـرة : ١٥٣ ـ ١٥٦ .

إنه ينصح المؤمنين بالصبر والصلاة ، لأن فى كل منهما شد للعزيمة فى المواجهة : فى الصلاة يذكر المؤمن : الله والإيمان به . وفى الصبر يتذكر : أنه ابتغاء وجه الله . فلا دنيا تتسلط عليه .. ولا بدن يشده إلى مطالبه . وإنما الإنسانية فى قوتها تواجه القتال ضد أعداء الإنسانية ، وتواجه الأزمات المادية .

إن الصبر قوة احتمال . وعزم على الاستمرار فى الاحتمال ، وإيمان بغايته وهدفه . وهو ابتغاء وجه الله ، ونصرة الحق ودين الله : « يا أيها الذين آمنوا : اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون(١) » .

● **الابتـــلاء :**

● خلق الإنسان فى هذه الدنيا لرسالة خاصة . وليست هذه الرسالة فى : أنه يوجد فترة من الزمن ثم ينتهى أمره .. وليست : أنه يحيا ويموت ، دون أن تكون له مهمة وراء خلقه ، ووراء حياته وعيشته فى الحياة فى دنياه : « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا(٢) » .. فهيئت للإنسان أسباب الحياة .. ثم أسباب الموت بعدها ، ليمارس الإنسان نشاطا معيناً فى حياته — غير نشاط المحافظة على بقائه بالأكل والشرب ، والنسل ـ هو نشاطه الإنسانى ، كى يمكن أن يظهر تفاوت الأفراد والمجتمعات فى مباشرة هـذا النشاط وأدائه ، ودرجة مستواه : « ليبلوكم : أيكم أحسن عملا » .

وفيما تذكره سورة الإنسان فى قول الله تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً ، وإما كفوراً(٣) » .. يتضح تكوين الإنسان وطبيعته فى خلقه ، كما يتضح الهدف

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ . (٢) الملك : ١ ، ٢ .
(٣) الانســان : ٢ ، ٣ .

الحقيقى من تكوينه على نحو معين . وهو يختلف فيه عن الطبائع الأخرى المخلوقة معه فى كون الله ، سبحانه جل شأنه . فالآية الأولى من هاتين الآيتين تشير إلى نمط تكوين الطبيعة الإنسانية ، وأنها تكونت أولا : تكويناً مادياً من نطفة مختلطة مما للذكور والأنوثة الإنسانية معاً .. وأنها ثانياً : أعدت بوسائل الإدراك لما يحيط بها من وجود وعالم خارجى عن ذاتها ، وفى مقدمة هذه الوسائل : السمع ، والبصر . وبهذا التكوين الثنائى : المادى ، والعقلى . كانت طبيعة الإنسان طبيعة وحيدة فى عالم المخلوقات . ولتفردها عما سواها : أعطيت للإنسان الخلافة والقيادة فى عالم الوجود الذى يعيش فيه .. والآية الثانية منها تشير لكى يؤدى الإنسان خلافته ، ويسير بقيادته لعالم ما يعيش فيه : فى هدى ، وفى غير حيرة — تشير إلى هداية الله له فى رسالة رسله ، بعد ما تبين من التجربة التى مر بها آدم وحواء فى الجنة : أن العقل البشرى وحده غير كاف فى التبصير بطريق الحق والصواب دائماً . إذ مع إعداد الإنسان بالعقل فى طبيعته ، ومع معاونته بعد ذلك بهداية الله فى رسالته ، قد يجنح الإنسان ، ويضل عن الحق كما قد يتجنب الصواب تحت تأثير الجانب المادى فى خلقه وتكوينه : « إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً » .

وإذن الإنسان فى حياته الدنيا : مطلوب منه أن يسلك السبيل الذى يليق بإنسانيته ، ويتميز به عن المخلوقات الأخرى .. مطلوب منه : أن ينشد الحق فى ذاته ، والصواب فى ذاته ، وأن يجنب ذاته طغيان ماديته التى تتمثل : فى هواه ، وشهوته ، على عقله . . مطلوب منه : أن يسترشد بهداية الله ، مع عقله ، نحو الحق ، ونحو الصواب . ومع ذلك ليس معصوماً عن الخطأ فيهما . ولكنه يبذل جهده فى السعى نحوهما ، والوصول إليهما .

وهنا : كان الإنسان فى حياته فى الدنيا . . إلى موته ، فى وضع الممتحن ،

والمختبر ، والمبتلى ، الذى قد يخفق فى امتحانه واختباره وابتلائه ، وقد ينجح فيها :

١ — فى حياة الإنسان بوضع الإنسان أمام المغريات التى تجذبه نحوها ، وهى الخير والنعم .

٢ — ويوضع كذلك أمام الشدائد والأزمات التى تثير اليأس وفقدان الأمل ، وهى الشر ، والفقر والحرمان . وهو إذ يوضع أمام الخير والنعم ، يطلب منه : أن لا يطغى بخير الله ونعمه من : مال ، وأولاد ، وجاه ، ورياسة فى قومه .. كما يطلب منه أن يراعى حق الآخرين معه فى الحياة ، كما يرعى حق ذاته من هذه النعم والخيرات ، سواء بسواء . وإذ يوضع أمام الشر والمصائب،والفقر والحرمان، يطلب منه : الصبر وعدم اليأس من رحمة الله . كما يطلب منه : أن يرعى من معه فى وجوده وعلى نحو من وضعه ، فلا يشيع بينهم : الجزع والقلق ، ولا عدم الثقة فى تدبير الله .

والإنسان إذن مبتلى بالشر والخير : على السواء : « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير ، فتنة ، وإلينا ترجعون »(١) .

قد يبتلى الله الأنفس بالحرب والقتال ، ليظهر مدى تضحيتها وتحملها فى سبيل الإيمان ، وليوضح درجة كل نفس فى مستوى التضحية والتحمل : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ، والصابرين ، ونبلو أخباركم »(٢) . والحرب شر ، والقتال شر . على معنى أن النفوس لا تقبل عليه ، كما تقبل على نعم الدنيا ، وأنها تتهرب منه بوسيلة أو بأخرى . ولكن لا مفر من أن يوضع الإنسان أمامه ، اختباراً لقوة إيمانه ، وجديته فى الحياة ، وامتحاناً لتحمله فى سبيله .

وفى القتال من أجل الإيمان بالله ، كان يمكن للمولى جلت قدرته أن يكون

---

(١) الأنبياء : ٣٥ . (٢) محمد : ٣١ .

فى صف المؤمنين ، وأن يجعل النصر حليفهم ، لا يهزمون أبداً . ولكن عندئذ لا يكون القتال ابتلاء وامتحانا لإيمان المؤمن . لأن النجاة مضمونة فيه للمؤمن آنئذ ، والهزيمة مكفولة فيه للأعداء كذلك . وبما أن الإنسان وضع فى حياته أمام : الخير والشر : سواء ، لتتميز الأفراد والجماعات فى موقفها من كل منهما ، وفى نوع السلوك الذى تسلكه : أهو سلوك يتلاءم مع إنسانية الإنسان ، أم هو سلوك ينزل بالإنسان إلى درجة المادية والحيوانية فيه . . من أجل ذلك كان نصر الله مكفولا لحسب لأصحاب اليمين .. أصحاب المستوى الإنسانى الكريم : «..ولو يشاء الله لانتصر منهم (أى من الأعداء) ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم »[1] .

● وقد يبتلى الله الأنفس كذلك بصور أخرى من صور الشر . فيبتليها بضياع الأموال ، أو بموت النفوس العزيزة التى يحرص الناس عليها كحرصهم على الأموال ، أو بإيذاء الأعداء إيذاء معنوياً تضعف الطاقة الإنسانية على تقبله . ومن شأن هذه الصور من الإبتلاء بالشر : أن تزحزح النفوس عن ثباتها ، وتخلق فيها القلق على الحياة فى غدها ، قبـــل يومها . فالذى يضيع ماله بسبب حادث من الأحداث يتصور : أن مستقبله قد ضاع ، لأنه فقد سنده فى الحياة . والذى يتولى الموت خطف عزيز عليه كان يوصل إليه منفعة ، أو تترقب فيه المنفعة العاجلة أو الآجلة ، قد يغلب عليه الوهم والتخيل فيعتقد: أنه نفسه قد ضاع ، وأصبح بلا أمل. والذى يؤذى فى إيمانه ، وفيما يتمسك به من عقيدة أعز عليه من نفسه ، إن كظم غيظه فقد لا يجد السبيل القريب للتفريج عن ألمه وحزنه ، وإن لم يكظم هذا الغيظ فقد يلجأ إلى الحمق والتهور فى التصرف ، تجاه مصدر ألمه وحزنه .

وموقف الإنسان من أى من هذه الصور للشر ، هو: الصبر ، والاتجاه إلى

---

(١) محمد : ٤ .

الله وحده ، باتباع هدايته فى السلوك ، والاستقرار فى طريق الحق ، دون غيره . ومن يصبر ينل . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ولو بعد حين : « لتبلون فى أموالكم ، وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا ، فإن ذلك من عزم الأمور »[١] .. والصبر والتقوى من الأمور التى تحتاج إلى عزم وإرادة قوية ، ونية صادقة ، يتعود عليها الإنسان المؤمن بأداء عبادة : الصوم ، وممارستها عدة مرات فى حياته .

● وقد يبتلى الله الأنفس بزينة الدنيا ، وما هيأه على الأرض من أسباب النعم والرخاء ، والقوة ، والسيادة ، ليبين للناس أنفسهم : إلى أى نوع يكون موقفها منها : أهو موقف الأنانيين ، أصحاب الهوى والشهوة ؟ . أم هو موقف أولئكم الذين يشكرون الله على نعمه ، بإشراك المعدومين ، والمحرومين ، والضعفاء ، فيما أنعم به الله عليهم ؟ : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم : أيهم أحسن عملا ؟ »[٢] .

وقد يكون ابتلاء الله بما أنعم به على فريق من الناس ، لأولئكم الآخرين الذين كان حظهم من متع الدنيا أقل شأناً ، وأدنى منزلة : أهم سيقفون من حظ من أنعم الله عليهم بوفرة ، وفضلهم بنعمهم على من عداهم : موقف الحاقدين والحاسدين ؟. أم سيمارسون الصبر والتحمل ، إزاء ما قسم الله لهم من حظ أدنى ، ويبقون على إيمانهم فى ثبات ، وعلى توكلهم على الله فى ثقة ؟ : «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات : ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم »[٣] ... فهنا ثلاث قضايا :

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .
(٢) الكهف : ٥
(٣) الأنعام : ١٦٥ .

الأولى : خلافة الإنسان على الأرض ، فى أداء رسالة الله فى مجتمعه عليها .

والثانية : تفاوت بعض الناس فى الرزق ونعم الله ، ومتع هذه الحياة الدنيا .

والثالثة : أن هدف هذا التفاوت هو : اختبار لمن أعطى وأنعم عليه كثيراً ، وكذلك اختبار لمن أعطى أقل ، أو حرم من العطاء .

وهذا الاختبار ينتهى أمره : إما بعقاب الله إن طغى بعطائه الكثير ، أو قلق ويئس ، بسبب حظه القليل : « إن ربك سريع العقاب » . وإما ينتهى أمره بزيادة فضل الله لمن شكره على نعمته بإشراك الآخرين معه ، وتفريج كربة المأزوم ، وكذلك من أعسر فى فترة حياته إن صبر وتحمل وبقى على ثقته فى الله .

● ولكن موقف الطبيعة البشرية عادة من ابتلاء الله — قبل الأخذ بهداية الله — هو موقف الأنانية : يظن الإنسان إن حباه الله بنعم وفيرة : أنها أعطيت له لشخصه . ولذا لا يجعل للغير نصيباً فيها . وإن قدر عليه ، وقتر فى رزقه يظن كذلك — أو يعتقد — أن الله : استهدف ذاته ، فينعى حظه ، ويسلك مسلك الناقين والحاقدين : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه (أى قتر عليه فى الرزق) فيقول: ربى أهانن »[١] .

إن الإنسان فى هذه الحياة لابد وأن يواجه نعماً ، وخيرات ، وعطاء من الله : إن فى الأموال ، والأولاد ، والصحة ، والجاه ، والقوة . وإما أن يواجه مصائب ، وفقراً وحرماناً ، وشروراً فى صور عديدة .

فإن واجه الأولى فليشكر الله باقتسام هذه النعم على أصحاب الحاجة ممن معه فى أمته ، وتسخيرها فى الصالح العام . وإن واجه الثانية فليصبر ،

(١) الفجر : ١٥ ، ١٦ .

وليتحمل فى سبيل الضيق والحرج : « فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسرا » . ولا يفقد ثقته فى الله أبدا . وهو فى كلتا الحالتين حامد لله على أن هداه للإيمان ، وإلى الصراط السوى .

والخير والشر هو بحسب تقدير الإنسان وحده . أما الله جلت قدرته فلا يبنى فى واقع الأمر مما يسمى خيراً أو شراً ، سوى خير الإنسان . وحكمته فوق تقدير الإنسان وفوق نظرته فى أمور الدنيا .

ب — فى دائرة الانحراف .. و الفساد :

* **الفحشــاء ، والمنكر :**

• إذا ذكرت فى القرآن الـكريم كلمة : « المنـكر » — دون ذكر الفاحشة — فإنه يراد بالمنكر : كل جريمة اجتماعية . أى كل جريمة تتجاوز آثارها الشخص الذى ارتكبها ، إلى المجتمع الذى يعيش فيه . فإذا قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمة (أى جماعة) يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »[1] .. فإن المنكر الذى يجب أن تنهى عنه الأمة هنا ، هو : جرائم : الزنا ، والقتل ، والسرقة . وهى الجرائم الاجتماعية التى حددت لها حدود خاصة ، فيما جاء فى كتاب الله .

وإذا اقترنت : الفاحشة ، بالمنكر ، كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشــاء ، والمنكر »[2] .. إذا اقترنت الجريمتان ببعضهما — على هذا النحو — كان القصد من الفحشاء أو الفاحشة : جريمة الزنا وحدها ، كما جاء وصفه فى قوله: « ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا »[3] . أما المنكر فيبقى عاما ، يشمل الجريمتين الأخيرتين : القتل ، والسرقة .

• وهذه الجرائم الثلاث جرائم اجتماعية ، وليست شخصية أو فردية ، وإن باشرها فرد . فجريمة : الزنا ، جريمة : عرض ، ونسل ، ومسئوليــة . فإن وقعت من شخص مع آخر ، فإن أثرها يتعدى الشخصين اللذين اشتركا فيها ، إلى النسل الذى قد يأتى منهما ، بأن يظل الولد غير معروف الأب على سبيل الحقيقة ، أو فى المجتمع نفسه . وعدم معرفة الولد لأبيه يكون سبباً فى عدم تحـديد المسئولية فى شأن رعايته والقوامة عليه . وهنا ينمو طفل فى المجتمع فى غير ظل رعاية أبويه ،

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .   (٢) النــور : ٢١ .
(٣) الاسراء : ٣٢ .

وفى غير مسئولية معينة من أحد عليه . ولذا يتكون لديه إحســاس نحو المجتمع ، يختلف عن أحاسيس الآخرين الذين جاءوا إلى الحيــاة معه ، ولــكن جاءوا فى صراحة وعلن وفى غير خفية وتستر ، وفى رعاية أب معروف ، وفى قوامته طوال فترات نموه . وهذا الإحساس المختلف عنـد الطفل الذى لايعرف أبًا له ، هو : إحساس المنبوذ . أو المشرد . ومن هنـا يبتلى المجتمع المعافى حتى الآن ، بمرض اجتماعى ، هو مرض الطفولة المنبوذة ، أو المشردة . والسبب فى هذا المرض إذن ، هو : الزنا . ولذا : كانت جريمته جريمة اجتماعية .

وجريمة القتل جريمة : اعتداء على حياة فرد ، وحياة أمة معًا . فالفرد الذى يعتدى عليه بالقتل ليس هو آخر الأفراد الذين يقتلون . وإنما التهـديد بالقتل قائم بالنسبة لكل فرد فى المجتمع . والمجتمع — ككل — مهدد بالفناء ، إذا انتشرت هذه الجريمة ، واتخذت وسيلة للقضاء على الخصومة ، أو لاقتناص فرص الحيــاة ، أو طريقًا للاستيلاء على مال الغير .

وجريمة السرقة اعتداء على مال فرد من جهة ، وعلى منفعة الآخرين عداه ، فى هذا المــال الذى يسرق من جهة أخرى . إذ نظرة الإسلام إلى المــال : أنه ، إن أقر فيه الملــكية الخاصة ، فإنه يربط بهذه الملــكية الخاصة ، أداء المــال لوظيفته الاجتماعية ، وهى المنفعة العامة للآخرين . على نحو مايذكر الله جل شأنه فى كتابه الـكريم : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فمــا الذين فُضلوا برادّى رزقهم على ما ملــكت أيمانهم ، فهم فيه سواء (أى فمن يملك ومن لايملك ، سواء فى مال المالك له : من حيث الانتفاع به . ولذا لايمتن صاحب المال على من انتفع بماله ، عن طريق الأجر بالعمل فيــه ، أو طريق التبرع له منه) أفبنعمــة الله يجحدون ؟ (أى إذا لم تؤد المنفعــة العامة للمال ، وكانت قاصرة على مالك

المال وحده، عد ذلك : نكراناً لنعمة الله، ممن حباه الله بها) »[1].

والسارق ، إن باشر جريمة السرقة الآن ، يحرم صاحب المال من ماله ، ويحرم الآخرين الذين لا يملكون المال ، ولكن ينتفعون بملكية المالك له. وهنا كانت السرقة جريمة اجتماعية .

ومن أجل أثر هذه الجرائم الثلاث على المجتمع كان تعبير القرآن عنها — تنفيراً منها ، وحملا على عدم ارتكابها — بالفحشاء ، والمنكر ، أو بالمنكر فقط ، والفحشاء ليس أمراً مستقبحاً فحسب . وإنما مستوى القبح فيه بلغ نهايته . والمنكر لا ينكره صحيح العقل والبدن وحده . وإنما أمر نكرانه لا يخفى على أحد ، يفرق فقط بين : الضوء والظلام ، والليل والنهار .

وكان تحديد الحدود التي جاء بها القرآن الكريم لهذه الجرائم الاجتماعية ، أمراً على سبيل القطع . حتى لا يكون هناك مجال للاختلاف فيها حسب العهود . والأمكنة ، طيل حياة الإنسان . فإن وقع اجتهاده فليس في نوع الحد المقرر . وإنما في الظروف التي تكتنف مباشرتها . « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون »[2].

● **الجاهلية :**

● يأتي مفهوم : « الجاهلية » في آيات القرآن الكريم يحمل في كل آية منها صفة من صفاته التي تميزه بأنه ظاهرة اجتماعية إنسانية ، قبل أن يكون وقتاً وزمناً خاصاً . فإذا قيل : إن ماقبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام يمثل عصر الجاهلية .. فمعنى ذلك : أنه كانت هناك ظاهرة اجتماعية تغلب على المجتمع

---

(١) النحل : ٧١ .

(٢) النحل : ٩٠ .

البشرى ، هى ظاهرة القبلية فى علاقات المجتمع ، وظاهرة الأنانيـة فى علاقات الأفراد . وإذا كان معنى « الجاهلية » يشير إلى ظاهرة اجتماعية خاصة . . فإنها تتكرر فى وقت لاحق لبعثته عليه السلام ، فى كل مجتمع تتوفر فيه عناصرها .

• وعناصر مفهوم : « الجاهليـة » التى تتجمع من خلال عرض القرآن الكريم فى آياته تشكل :

أولا : إتباع الهوى ، وعدم العـدل فى الحكم . . أى مراعاة الأحسـاب والأنساب ، والتفرقة بين الناس حسب منازلهم . يقول الله تعالى : « وأن احكم بينهم (أى بين قبائل العرب جميعاً — وبين الناس كافة) بما أنزل الله (وما أنزل الله هو العـدل المجرد) ولا تتبع أهواءهم (أى لا تسر فى الحكم وفق ميولهم ، فميولهم متأثرة بالمعانى والعادات القبلية) واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك (وذلك باتباع أهوائهم) فإن تولوا (أى وإن أعرضوا وغضبوا لأنك لم تتبع أهواءهم) فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون (أى أيريدون أن تقضى بينهم وفقـاً للعادات القبلية ، وهى تلك العادات التى تفرق فى الحكم بين منازل الناس الاجتماعية) »[1].

وثانياً : مسلك الأنفـة والغضب ، وعدم الاحتكام إلى العقل والمنطق . يقول الله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً ... إلى أن يقول: إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية . . حمية الجاهلية (أى الغضب والحمق) فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة : التقوى »[2] . . ففى صلح الحديبية

(١) المـائدة : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) الفتح : ٢٤ — ٢٦ .

بعد أن اقتنع المشركون بقوة المسلمين المتزايدة ، ووافقوا على أن لا يقفوا فى سبيلهم فى العام القادم .. إلى الحج بمكة ، جاءوا عند كتابة العهد بينهم وبين المسلمين . وأظهروا حمقاً فى حذف بعض الصيغ التى كان يمليها المسلمون ، بينما كان مسلك المسلمين : التأنى وضبط النفس واتقاء الإثارة ، وتجنب كل مايؤدى إلى الفشل ، طالما لا يضار الهدف من عهد الصلح ، وهو الوصول إلى مكة فى حج لمناسكها فى أمان ، فى وقت لم يأن الأوان بعد لفتحها بالقوة وإخلاء بيت الله الحرام من الشرك والمشركين . فسمت الآية مسلك المشركين عند كتابة العهد : بحمية الجاهلية وهو مسلك الحمق وعدم تحكيم المنطق ، بينما مسلك المسلمين : بالسكينة أى بالهدوء وبالتقوى أى تجنب الإثارة .

وثالثاً : خاصة الجبن القائم على تخيل باطل للحياة والموت . وهو أن الخروج إلى ميدان القتال يقرب أجل الإنسان إلى الموت ، بينما الاحتماء بعيداً عنه يحول دون ذلك . يقول الله تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم (ضيق النفوس وقلقها بسبب ماحدث للمؤمنين فى غزوة أحد) أمنة (أى اطمئناناً) نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم (وهم المنافقون بين المؤمنين) يظنون بالله غير الحق .. ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ (أى ليس لنا فيما وقع سبب) قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا (أى لو أخذ رأيهم لما نصحوا بالخروج إلى القتال فى : « غزوة أحد » وبالتالى ما قتل من قتل) قل: لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم (أى قل أيها الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وبلغهم ، وبلغ الناس جميعاً : أن قضاء الله لا يرد ، ومن كتب عليه الموت فسيلقاه حتماً ، مهما احتاط وحافظ على حياته . فالخروج إلى ميدان القتال لا يقرب من أجل الموت ، وكذلك البقاء فى حماية الدار لا يبعد

شبحه) »[1] .. وخاصة الجبن هذه إنما تعود إلى الأنانية وحب النفس . وإذا سادت فى المجتمع فإنه يكون مجتمعاً قبلياً أو جاهلياً .

ورابعاً : تمثل الدعوة السافرة من جانب المرأة لإغراء الرجل بها . يقول الله تعالى : « يانساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً . وقرن فى بيوتكن (أى امكن فى منازلكن واحتمين بها من أولئكم مرضى النفوس من الرجال ، خير لكن من أن تتعرضن لهم) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (أى لا تبرزن مفاتنكن لتغرين بها الرجال . فإن ذلك سمة الجاهلية التى لا تعرف تهذيباً ولا سمواً فى الإنسانية ، ولا ترفعاً عن دنايا الشهوة وانحطاطها) »[2] .

وباتباع الهوى فى الحكم بين الناس .. وبعدم الاحتكام إلى العقل والجنوح إلى الحمق فى المعاملة .. وبالجبن القائم على التصور الباطل فى شأن الحياة والموت .. وبتفسخ المرأة فى عرض نفسها . . تحدد مظاهر : « الجاهلية » فى المجتمع . فأى مجتمع تسود فيه هذه الخصائص هو مجتمع جاهلى — فى المستوى الإنسانى — ولو كان مجتمعاً متقدماً فى العلم والصناعة . وأى مجتمع آخر يرعى العدل . ويحكم أفراده العقل فى معاملة بعضهم لبعض ، ولا يتهيب أعضاؤه الموت فى سبيل الدفاع عن قيمهم العليا ، وتحافظ المرأة فيه على حيائها وكرامتها . . هو مجتمع حضارى فى الإنسانية ، ولو كان مجتمعاً زراعياً لم يدخل بعد فى عصر التصنيع .

● السفه :

● ترد كلمة :«السفه» فى كثير من آيات القرآن الكريم وصفاً للمنحرفين فى الاعتقاد عن الصراط السوى . ففى قصة هود : يرميه زعماء قومه بالسفاهة ، فيما يحكيه قوله تعالى : « قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ،

---

(١) آل عمران : ١٥٤ . (٢) الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣ .

وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم: ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين »[1] . . فقد رماه زعماء قومه بالسفاهة اعتقاداً منهم : أنه ضال ومنحرف في دعوته الجديدة ، وهي دعوة التوحيد . إذ هي دعوة تناقش تماماً ما عليه مجتمع من وثنية مادية وشرك . ولذا في رده على الزعماء في المجتمع : نفي السفاهة والضلال عنه ، وأعلن أن دعوته هي دعوة رب العالم كله ، وليست دعوة لصنم أو لجملة من الأصنام ، كما هو اعتقادهم .

ويعزز : أن السفه يأتي مرادفاً للضلال في القرآن الكريم : ما تحكيه قصة نوح في قول الله تعالى : « قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم : ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين »[2] . . فقد وضع الضلال هنا موضع السفه . والضلال هو الانحراف في الاعتقاد .

وفي الحديث عن المنافقين في إيمانهم — وهم في حقيقة أمرهم كافرون — يحكي القرآن الكريم بعض خصائصهم في قوله : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس (أي كأولئكم الذين آمنوا بالفعل بالرسول عليه الصلاة والسلام) : قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء (فاستنكروا أن يكون وضعهم في الاعتقاد كوضع هؤلاء المؤمنين . إذ يرونهم في ضلال وحيرة) ؟ ألا : إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون (ولذا جاء رد القرآن على استنكارهم بأنهم : هم — وليس المؤمنون — على سفه وضلال في الاعتقاد ، بكفرهم وتشبثهم بوضعهم الذي هم فيه » .

● ويأتي السفه أيضاً وصفاً للمنحرفين في تصرفاتهم المالية . وللحيلولة دون الاستمرار في الانحراف في إنفاق المال لمن يملكونه : يأمر الإسلام بوضع أموالهم تحت وصاية المسلمين . لأن الملكية الخاصة للمال لا تبرر في نظرته : الانحراف في إنفاقه . إذ هو حريص على أن تكون منفعته منفعة عامة ، كما هو حريص على

---

(١) الأعراف : ٦٦ ، ٦٧ . (٢) الأعراف : ٦٠ ، ٦١ .

المحافظة على الملكية الخاصة . جاء هذا فى قول الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً »[1] .. فيطلب القرآن عدم تمكين المنحرفين فى إنفاق أموالهم : من مباشرة استثمار هذه الأموال والتصرف فيها . وتعلل الآية ذلك : بأنها أموال المسلمين كافة ، التى ارتبط بها كيان وجودهم ومعيشتهم ، وإن كانت هى ملكاً لهؤلاء السفهاء : « أموالكم ، التى جعل الله لكم قياماً » ..

والانحراف فى الإنفاق الذى بسببه سمى المنحرف فى إنفاق ماله .. سفيهاً ، هو انحراف يشبه ماعليه الضال فى اعتقاده ، فى أثره السلبى على الأمة الإسلامية . ومعنى ذلك : إذا لوحظ فى وصف الضال فى الاعتقاد : بالسفه .. عداوته للمسلمين فى إيمانهم وتمسكهم بدين الله ، فيلاحظ كذلك فى المالك المسلم الذى يوصف بالسفه لانحرافه فى إنفاق ماله .. أثر تصرفه فى ماله : على إضعاف المسلمين فى إيمانهم ودينهم . ويستوى إذن : السفيه بكفره . والسفيه فى ماله .. فى الأثر السلبى على الأمة الإسلامية . والفرق بينهما عندئذ هو : أن السفيه بكفره عدو خارجى ، بينما السفيه فى ماله عدو داخلى ، وإن لم يكن على وعى ويقظة بعداوته الحقيقية لأمته ولدينه .

فالمسلم الذى ينفق من ماله لمعاونة عدو خارجى ، أو لمحاربة دين الله بنشر عقيدة ضارة به .. هو سفيه فى ماله ، مهما قل ماينفقه فى هذا السبيل ، أو فى ذاك .

والسفيه إذن هو المنحرف فى إنفاق ماله ، بما يضر أمته فى قوتها ، أو فى دينها وإيمانها . ويكون عندئذ وصف تصرفه بالسفه ، قريباً من وصف الكافر بالسفه فى ضلاله وفى عداوته لدين الله والمؤمنين به . وإذا كان المبذر للمال هو المنفق إياه فى الفساد والعبث مهما قل ما ينفقه ، فالسفيه هو المتصرف فى ماله بما يؤذى أمته ويضر ما لها ، من : دين وقيم عليا ، يترابط أفرادها على أساس منها ، مهما قل ما ينفقه كذلك .

---

(١) النساء : ٥ .

● **التبـــذير :**

● يهتم القرآن الـكريم بأداء المـال لوظيفته الاجتماعية . وهى : أن ينفق فى سبيل المصلحة العامة ولخير الناس جميعاً ، وإن كانت ملـكيته ملـكية خاصة . إذ الملـكية الخاصة للمال لا تجعل منه — فى نظر الإسلام — مبرراً لإنفاقه فى الأغراض الخاصة وحدها . وقول الله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملـكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون »(١) . . يجعل من صاحب الملـكية الخاصة الذى يرى : أن منفعتها قاصرة عليه وحده ، وأنه إذا أعطى غيره منها فإنه يعطيه مما يملك ، ومما هو له . . يجعله جاحداً وكافراً بنعمة الله : « أفبنعمة الله يجحدون » . وإنما الوضع الذى يرضى الله فى شأن المال ، هو : كما تذكره الآية هنا : وهو أن الذى يعطى من مال يملكه ، غيره ممن لا يملك شيئاً . . إنما يعطيه حقه فى واقع الأمر الذى له فى مال الله عنده ، المستخلف فيه من الواضعين يدهم عليه : « فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملـكت أيمانهم (أى فما الذين فضلهم الله بملـكية المـال إن هم أعطوا أتباعهم الذين لا يملـكون شيئاً وأنفقوا عليهم . . لا يعطونهم مما لهم هم فى واقع الأمر ، ولا ينفقون عليهم من ملك لهم . إنما يعطونهم من مال الله فى حقيقته ، وقد استخلفوا فيه فقط . ويدهم على المال عندئذ هى يد الوكيل أو المفوض الذى يجب أن يكون تصرفه طبقاً لما يأمر به موكله ومفوضه) » .

● ومن أجل نظرة الإسلام هذه إلى المـال : فى ملـكيته ، ووظيفته — وهى أن ملـكيته ملـكية خاصــة ، بينما منفعته منفعة عامة — يرى الإسلام أن الخروج فى إنفاق المال عن المنفعة العامة ، ولخير الأمة ، ولمعاونة أصحاب الحاجة فيها : أمر يجب أن يوضع له حد ، بفرض وصاية على صاحب المال الذى انحرف فى

---

(١) النحـــل : ٧١ .

توجيه الإنفاق ، لضمان بقائه فى طريق المصلحة العامة وحدها . ومن جوانب هذه المصلحة : رعاية صاحب المـال نفسه فيما كان تحت يده من مال : فى معيشته ، وسكناه .

وقد ورد فى القرآن الـكريم فى التعبير عن الانحراف فى إنفاق المالك فيماهو تحت يده من مال : إسم التبذير مرة ، وإسم السفه مرة أخرى . وسمى المنحرف فى ماله : بالمبذر ، أو بالسفيه .

• ففى شأن التبذير جاء قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً »(١) . . فأمر بأمر ، ونهى عن آخر ، فأمر بإعطاء القريب وبالأخص الوالدين ، والمسكين — وهو الذى لا يتوفر له من سعيه سد حاجته فى الأكل والمشرب والمسكن والملبس — وابن السبيل وهو الذى تطرأ عليه الحاجة أثناء سفره . . أمر بإعطاء كل من هذه الأنواع الثلاثة ما عبر عنه القرآن بالحق . وصاحب القرابة إذن إن أخذ معاونة من موسر قريب له فهو يأخـذ حقه منه . والمسكين إن أخذ ما يسد حاجته من الموسرين فهو يأخذ حقه منهم . وابن السبيل إن أخذ ما يعينه على إتمام سفره إلى غايته فهو يأخذ حقه من القادر على الإعطاء .

أما ما ينهى هنا عنه فهو التبذير : « ولا تبذر تبذيراً » . ويفهم منه الآن : أنه الإنفاق فى غير هذه الأوجه وما يشبهها مما من شأنه أن يعود بمضرة على المصلحة العامة . وبما أن الآية الثانية هنا بعد النهى ألحقت المبذرين بالشياطين ، وجعلت الشيطان كافراً بالله ، فالمبذرون إذن هم من أنفقوا من أموالهم : فى المفاسد ، والمظالم ، قل أو كثر ما أنفقوه . لأن عمل الشيطان يقاس بنوعه ، وليس بكميته . وكذلك من يخاون على الشيطان ممن ينفقون الأموال فى المفاسد يقاس عملهم

(١) الإسراء : ٢٦ ، ٢٧ .

بنوعه ، وليس بمقدار ما ينفقون . ولذا يحكى الزمخشرى فى تفسيره الكشاف ، عن مجاهد : أن المنفق فى ماله ، لو أنفق مداً فى باطل كان تبذيراً . والمد هو أدنى وحدة فى المكيال .

فإلحاق المبذر بالشيطان — فى وصف الشرية — يحدد تصرفه فى ماله بما يعود بمضرة وفساد على المصلحة العامة . وهذا مايعطيه كذلك: التقابل بين الأوجه التى أمر القرآن بالإنفاق فيها هنا ، وبين ماعداها من المقابل لها مما عد تبذيراً .

وليس التبذير إذن هو الإنفاق الكثير . لأنه قد يكون حينئذ فى أوجه الخير وفى المصلحه العامة . وليس بالتالى أيضاً : مقابلا للبخل والشح والإمساك . إنما المقابل لذلك هو : البسط كما جاء فى آية تالية : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً »[1] .

والمبذر إذن هو المفسد ، والعابث ، والماجن بماله ، ولو بقدر ضئيل منه .

• **الاسراف :**

• تأتى كلمة الإسراف ، فى القرآن الكريم — فى كثير من دلالتها — بمعنى : الخروج عن حد الاعتدال فى معارضة الإيمان بالله . والمسرف بهذا المعنى الكثير الشائع فيه ، هو : من يتشدد فى معارضته للإيمان ، ويبالغ فى الكفر بالله .

نقرأ قول الله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم : أن يفتنهم (أى يصيبهم بأذى) وإن فرعون لعال فى الأرض (أى لمتكبر ومتعاظم ومتجبر فى حكمه وسلطانه) وإنه لمن المسرفين »[2] .. والمعنى: أن السبب فى أن الذين آمنوا بموسى من بنى إسرائيل الذين هاجروا إلى مصر واستوطنوها ، كانوا قلة : هو الخشية من طغيان فرعون وعصابته فى الحكم .

---

(١) الاسراء: ٢٩ . (٢) يونس : ٨٣ .

وقد كان طغيانه يعود إلى أنه من المسرفين ، أى المبالغين فى تحدى الله ورسالته .

.. ونقرأ أيضاً قول الله تعالى فيما يحكيه عن دعوة صالح إلى ثمود فيما تقصه هاتان الآيتان : « فاتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون »[1] .. ولاشك أن الذى يفسد فى الأرض ولا يصلح فيها : هو متحد لرسالة الله للإنسان على هذه الأرض . والمتحدى لدين الله ، مبالغ فى كفره بالله .

.. كما نقرأ ما جاء فى قصة الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه فى قول المولى جل شأنه : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم (يشير القرآن بذلك إلى تهديد فرعون لموسى ، فيما يحكيه قبل ذلك ، بقوله : « وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد »[2] . وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب »[3] . فالحكم هنا بأن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب : يتناول فرعون أولا وبالذات ، ثم من هو على شاكلته وبين ملئه . وفرعون وملؤه كانوا من أشد المعارضين لرسالة موسى وللإيمان بالله .

.. وهكذا : فيما يحكيه الله عن بنى إسرائيل فى خضوعهم للاتجاه المادى فى حياتهم ، مما كان يحول بينهم وبين الإيمان بالله ، رغم تعدد الرسل والأنبياء إليهم : « ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون (أى ثم إنهم رغم كثرة الرسل إليهم فإن عدداً غير قليل منهم مبالغ فى تحديه للإيمان بالله : فى السلوك والتصرفات) »[4] .

---

(١) الشعراء : ١٥١ ، ١٥٢ .　　(٢) غافر : ٢٦ .
(٣) غافر : ٢٨ .　　(٤) المائدة : ٣٢ .

.. وعلى هذا النحو ما جاء فى قصة يوسف : « ولقد جاءكم يوسف من قبل (أى جاء بنى إسرائيل من قبل موسى) بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك (أى حتى إذا مات يوسف) قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »[1] . والمسرف المرتاب هنا : هم أولئكم الذين لم يؤمنوا برسالة يوسف من بنى إسرائيل ، وما زالوا فى بعد عن رسالته إلى أن توفى .

● وإذا كان الشائع فى الاستعمال القرآنى : أن الإسراف هو الخروج عن حد الاعتدال فى الكفر بالله .. أى هو التحدى والاستمرار فى المعارضة لدين الله فإنه قد يأتى — وهو الأقل القليل — بمعنى : عدم الاعتدال فى الإنفاق . وعندئذ توجد قرينة دالة على هذا المعنى فى كلام الله عليه . كما فى قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا (ويقصد بهم عباد الرحمن) لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .. فالإسراف هنا بمعنى عدم الاعتدال فى الإنفاق : وقرينة ذلك : التعبير بأنفقوا ، ولم يقتروا (أى يمسكوا ويبخلوا) وقواما (إذ القوام هو العدل والتوازن) وكما فى قوله : « يا بنى آدم : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » .. فالإسراف هنا هو عدم الاعتدال فى الزينة ، وفى الأكل والشرب ، بقرينة التعبير بهذه الكلمات الثلاث .

.. وعلى هذا النحو يفسر الإسراف فى قوله تعالى فى شأن اليتيم : « وابتلوا اليتامى (أى اختبروا القصر . والخطاب للأوصياء) حتى إذا بلغوا النكاح (أى بلغوا سن الرشد) فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم (أى التى هى تحت وصايتكم) ولا تأكلوها إسرافاً ، وبداراً ، أن يكبروا (أى ولا تبددوا الأموال التى تحت أيديكم لليتامى : بالتبذير وعدم الاعتدال فى الإنفاق منها على

(١) غافر : ٣٤ .

أنفسكم مستغلين صغر سنهم) ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأ كل بالمعروف (أي والمبدأ الذي ينبغي أن يتبع في الإنفاق منها مقابل رعاية استثمارها هو : أن الغني من الأوصياء يترفع عن الأخذ منها ، وأن الفقير يأخذ حاجته فقط كشأن الأموال العامة واستغلالها) فإذا دفعتم إليهم أموالهم (أي بعد بلوغهم الرشد) فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً »[1] .. فالجو في هذه الآية هو جو مال. وهو من أجل ذلك قرينة على أن الإسراف هنا : بمعنى عدم الاعتدال في إنفاق المال .

والآن نتيجة استعمال القرآن لمفهوم الإسراف وما اشتق منه : أن الإسراف في الكثير الغالب من استعمالاته بمعنى : التحدي والمعارضة في الكفر بالله وعدم الإيمان به .. وفي الأقل القليل بين هذه الاستعمالات : بمعنى : عدم الاعتدال في الإنفاق . وهو بذلك يساوي : التبذير .

---

(١) النساء : ٦ .

ج - في الدائرة الأسرية :

● الزواج - والنكاح :

● يأتى تعبير القرآن « بالزواج » توضيحاً لنوعية الذكورة والأنوثة فى خلق الإنسان ، والثنائية بينهما ، إمتناناً على الإنسان بهذا التنويع . لما فيه من جو الاطمئنان ، ولما يحمل من بث المودة والرحمة المتبادلة . يقول الله تعالى : « ومن آياته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً (أى من الذكورة والأنوثة) لتسكنوا إليها (أى لكى يطمئن بعضكم إلى بعض ، ويهدأ كل نوع بسبب وجود النوع الآخر معه فى الحياة) وجعل بينكم مودة ورحمة (أى وزيادة على الإطمئنان والهدوء : فإن هذا التنويع بين الذكر والأنثى فى خلق الإنسان يبعث على المودة المتبادلة ، وعلى الرحمة المتبادلة) إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (أى إن فى خلق الإنسان على هذا النحو من ثنائية وازدواج لتحقيق الأهداف المرتبطة بهذا الازدواج . . لأمارات واضحة على وحدانية الله فى الوجود كله ، كمعبود يستحق وحده - دون شريك له - العبادة : من الإنس ، والجن على السواء . ولكنها أمارات واضحة فى دلالتها لأولئكم الذين يحكمون عقولهم ومنطقهم الإنسانى ، والذين يمارسون التفكير فى كل ما يرونه أو يواجهونه فى الحياة) »[1] .

● ويأتى تعبير القرآن أيضاً بالزوج : فى الأسرة . . بعد أن ورد فى خلق الإنسان على العموم . يقول تعالى : « وإن أردتم (أيها الأزواج) استبدال زوج مكان زوج (أى إن أردتم أن تأتوا بزوجة جديدة موضع زوجة أخرى قائمة وموجودة بالفعل) وآتيتم إحداهن قنطاراً (أى وأعطيتم مهراً كبيراً له شأن لتلك الزوجة التى يراد استبدالها) فلا تأخذوا منه شيئاً أى مما أعطيتمونه) ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً (لأنكم إن أخذتم أدنى شىء منه ، فقد أخذتم فى واقع الأمر ماليس لكم . . أخذتم ما هو زور وباطل ، وارتكبتم بذلك : معصية

---

(١) الروم : ٣١ .

واضحة فى مخالفتها لما أمر به الله فى حدوده التى حددها للأسرة — ومن تلك الحدود : أن المهر للزوجة مهما بلغ)[١] .

فالزوج — كما ورد فى هاتين الآيتين — هو الطرف المقابل لطرف آخر يشترك معه فى خصائص الإنسان ، أو يشترك معه فى معاشرة أسرية .. وفى بناء وحدة إنسانية ، هى وحدة الأسرة .

• وللتعبير عن قيام وحدة الأسرة يؤثر القرآن ذكره بلفظ النكاح ، دون لفظ الزواج . والحديث إذ يكون بلفظ الزواج ، والزوجية : فى القرآن إنما يأتى بعد عقد النكاح وإتمامه بالفعل . يقول الله تعالى : « وإن خفتم : أن لا تقسطوا فى اليتامى (تقصد الآية باليتامى هنا : أولاد الذين قتلوا من المسلمين فى ذلك الوقت فى غزوة : أحد . وقد طلب إلى المسلمين إذ ذاك : أن يؤثروهم بالزواج — تضميداً لجراح أسرهم — على شرط أن يكونوا واثقين من حماية مصالحهم وأموالهم بالعدل . والمعنى : وإن خفتم أن لا تعدلوا حين طلبكم إتمام عقد النكاح مع اليتامى فانصرفوا عنهم إلى غيرهم . وعندئذ :) فانكحوا ما طاب لكم من النساء : مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى أن لا تعولوا (أى أن الاقتصار على واحدة — فى حال عدم ثقتكم بمباشرة العدل بين أكثر من واحدة — هو أقرب السبل للحماية من الوقوع فى الإنحراف وعمل ما ليس بعدل) »[٢] . والنكاح إذا كان تعبيراً عن قيام الزوجية .. فالزواج هو التعبير عن تواجد الزوجين فى حياة مشتركة بينهما . والزوج هو التعبير عن أحد طرفى هذه الحياة : ذكراً ، أم أنثى على السواء . ويبقى لكل طرف : هذا الوصف — بعد الطلاق أيضاً — حينما يوجه إليه القرآن النداء بأداء ما يجب من التزام عليه نحو الطرف الآخر ، تسوية للوضع الذى

---

(١) النساء : ٢٠ .   (٢) النساء : ٣ .

كان قائماً بينهما معاً . كما جاء فى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا .. يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً »[1] .. فسمى المتوفى عنها زوجها .. زوجاً ، بعد أن انتهت الحياة الزوجية بينهما بوفاة الزوج .

● **العفــة :**

● تعرض آيات القرآن الكريم : للعفة . . بالتعبير عنهـا بالاستعفاف . وتعرض لها فى مجالين : مجال المال . . ومجال علاقات الرجال بالنساء .. أو النساء بالرجال .

ففى المجـال الأول ، يقول الله تعالى : « وابتلوا اليتامى (أى اختبروا القصر من الأولاد) حتى إذا بلغوا النكاح (أى حتى إذا وصلوا إلى سن البلوغ الجنسى) فإن آنستم منهم رشداً (أى فإن أحسستم منهم عندئذ رشداً وحكمة فى تصرفاتهم) فادفعوا إليهم أموالهم (أى فسلموا إليهم أموالهم التى هى تحت أيديكم للمحافظة عليها ولإنمائها) ولا تأكلوها : إسرافاً ، وبداراً أن يكبروا (أى ولا تستولوا على هذه الأموال وهى تحت أيديكم : مرة بسبب الإسراف والتبذير فى الإنفاق منهـا . . ومرة أخرى بسبب الإسراع فى أخذها قبل تسليمها إياهم فى الوقت المعلوم ، وهو وقت الرشد والصلاحية لمباشرة إنماء المال والمحافظة عليه) . ومن كان غنياً فليستعفف (أى ومن كان غير ذى حاجة إلى المـال والسعى إليه فليكن ذا عفة . . أى ليكن ممسكا عن الوقوع فى أكل أموال اليتـامى ، بأية وسيلة) »[2] .. فالاستعفاف — أو العفة — أتى هنا بمعنى الإمساك عن الوقوع فى خطأ .. فى حرام .. وفى جريمة . وهى جريمة أكل مال الضعيف ، والاعتداء على حقه فى وجوب المحافظة على ماله من مال .

---

(١) البقـرة : ٢٣٤ .   (٢) النسـاء : ٦ .

وفى مجال علاقة الرجال بالنساء يقول جل شأنه مخاطباً الرجال : « وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً (أى ليمسك ذلكم الرجال الذين لا تتوافر لديهم إمكانيات الزواج .. عن الوقوع فى جريمة الاتصال الجنسى ، وهى جريمة الزنا) حتى يغنيهم الله من فضله (أى .. إلى أن يمكنهم الله من الزواج بفضل ماينعم عليهم من إمكانيات تساعدهم عليه) »[١] .. ويقول أيضاً مخاطباً النساء : « والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحاً (أى والعجائز من النساء اللاتى لايتوقعن زواجاً لكبر سنهن وفوات الوقت عليهن) فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، غير متبرجات بزينة (أى لايلمن : إذا ماتحين ثيابهن الخارجية جانباً .. غير خليعات ، وغير عارضات لزينة أبدانهن) وأن يستعففن خير لهن (أى والأحسن لهن : أن تكن محتشمات .. فتمسكن عما يثير الفضول فى النظر إليهن ، وتكن بذلك سبباً فى ارتكاب محرم هو النظر إليهن فى إثارة) »[٢] .

• فالعفة — أو الاستعفاف ، كما جاء به آيات القرآن — هى إمساك عن الوقوع فى خطأ .. هو تجنب ارتكاب جريمة اجتماعية : فجريمة أكل مال اليتيم — وهو الضعيف — جريمة اجتماعية .. وجريمة الزنا والتحريض عليه جريمة اجتماعية . كلتاهما تتعلق بحق المجتمع وحرمة الاعتداء عليه . والاعتداء على مال اليتيم — وهو الضعيف — ليس فى نظر الإسلام جريمة اجتماعية ، لأنه اعتداء على ضعيف فيه . بل لأن مال اليتيم تتعلق به منفعة عامة لآخرين فيه ، ممن حرموا ملكية المال ، هو : حق الزكاة .. والإحسان فيه . وجريمة الزنا يتعلق بها حق المجتمع ، لأنها تتصل بالأنساب والمحافظة عليها . والمحافظة على الأنساب ضرورة اجتماعية لوقاية المجتمع ذاته من الطفولة المشردة ، وعبث أصحابها وميلهم إلى الانتقام من مجتمعهم الذين يعيشون فيه ، كجزاء على وضعهم الذليل فيه .

---

(١) النور : ٣٣ .　　(٢) النور : ٦٠ .

• وهكذا : العفة — أو الاستعفاف — فضيلة من الفضائل الرئيسية . لأنها تتطلب فى أدائها أولا .. مجهوداً نفسياً .. هو مجهود حماية النفس مما يغريها ويشدها إليه شداً عنيفاً : من شهوة المال .. وشهوة الاتصال الجنسى ، ثم ثانياً لأنها تحقق للمجتمع مصلحة عامة ، وهى الوقاية من الأضرار الاجتماعية .

• **قوامة الرجـل :**

• جاء فى قول الله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط »[1] .. تعبير الآية بكلمة : « قوامين » فى أمر المؤمنين برعاية دين الله والمحافظة عليه . إذ المعنى : يا أيها الذين آمنوا . . كونوا رعاة لدين الله ، وحفظة عليه ، كما تكونوا ذوى عدالة فى شهادتكم .

ومادة الحروف التى تتكون منها كلمة : « قوامين » .. تتـكون منها كلمة أخرى ، ولـكن بعد تحويل حرف الواو ، إلى ياء . كما جاء فى قول الله تعالى : « جعل الله الـكعبة البيت الحرام (قياماً) للناس » .. أى ملجـأ وحصناً آمنـاً للناس . وكما ذكر أيضاً فى قول الله جل شأنه : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيـاماً » . . أى جعل لكم حق رعايتها ، والمحافظة عليهـا ، والاستناد إليها .

• فكلمة : قوام ، أو: قيام ، تنطوى على معنى السند ، والحفظ ، والوقاية ، والرعاية . وعلى هذا الأساس تفسر قوامة الرجل على المرأة ، فى قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء »[2] . ومعنى هـذا التركيب إذن : الرجال : رعاة ، وحفظة ، وسند للنساء .

وتستطرد الآية — بعد هذه الجملة — فتقول : « .. بما فضل الله بعضهم على بعض » .. أى أن كون الرجل سند المرأة فى العـلاقة الزوجية يعود إلى ما ميز

---

(١) المـائدة : ٨ (٢) النسـاء : ٣٤ .

الله به الرجال والنساء بعضهم على بعض . وذلك : فى تكوين الجسم ، والإعداد لمواجهة مشقة الحياة ، وتحديات مشاكلها التى قد تدفع إلى القتال فى الحروب . ولاشك أن الرجل أكثر صلاحية وإعداداً من الطبيعة — سواء بتكوين بدنه ، أو بتمرسه على السعى فى معترك الحياة من أجل الرزق — لمواجهة المشاكل الخارجية ، والتى قد يكون من بينها : الاعتداء على المرأة فى أية صورة من صور الاعتداء عليها .

... ثم تستمر الآية فى الاستطراد ، فتقول : « .. وبما أنفقوا من أموالهم » .. أى وأيضاً : كون الرجل وكل إليه أمر الرعاية للمرأة فى العلاقة الزوجية لا يرجع فقط إلى اختلاف تكوين الطبيعة البشرية لكل من الرجل والمرأة ، ولكن يعود مع ذلك إلى عامل يترتب على اختلاف التكوين : لطبيعة كل منهما . وهو عامل الإنفاق والتكفل بالحياة الزوجية . وهو عامل : طلب إلى الرجل وحده أن يباشره ، دون المرأة . لأنه أقدر عليه ، وليس له من طبيعته ماقد يحول : لفترة تطول وتقصر ، دون القيام به . كما هو شأن المرأة فى فترات : الحيض ، والحمل ، والرضاعة ، والحضانة .

وهنا يكون مجمل هذا الجزء من الآية ، وهو قول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » .. أن الرجل فى الحياة الزوجية المشتركة بينه وبين زوجته مكلف من قبل الله جل شأنه برعاية الزوجة ومسئولية الحياة المشتركة بينهما .. ومسئوليته هذه تتفق مع خصيصته التى هى له بحكم تكوينه . وهى خصيصة لا تشاركه المرأة فيها . إذ أنها خصيصة بناء جسمه : فهو لا يحمل ولا يرضع ما يأتى من ولد : منه ومن زوجته . وهو كذلك — لعدم استطاعته الحمل والإرضاع — أقدر من زوجته على مواجهة

المشقات ، إن طلب إليه السعي في سبيل الرزق للحياة المشتركة مع زوجه .

فتكليف الرجل بمسئولية الحياة الزوجية ، وبرعاية الزوجة فيها ، وبحمايتها من الاعتداء عليها ، أمر طبيعي ، من وجهة نظر الإسلام — وليس فيه — لذلك ، عنت عليه ، ولا على الزوجة أيضاً . إذ لو كانت الزوجة وحدها بهذه الرعاية للحياة المشتركة بينها وبين زوجها ، لشق عليها — على الأقل في بعض فترات حياتها : في فترات الحيض ، والحمل ، والرضاعة ، والحضانة — أن تباشر هـذه المهمة . ولو كلف الإثنـان معاً بها لاختلفا فيما بينهما اختلافاً مستمراً : في تحديد النصيب الذي يقوم به كل منهما ، أو في تقديره . وعندئذ تخرج الحيـاة الزوجية عن أن تكون : حياة سكنى واطمئنان ، ولانتقلت المرأة حينئذ من دور الزوجة إلى دور الشريكة التعسة ، والحاقدة على مايصيبها من : ضعف ومن هموم ، في سبيل تحديها لزوجها بشأن قيامها بالنصيب المطلوب منها .

إن الزوج إذا لم يقم بهذا الدور الطبيعي ، وهو دور الرعاية للزوجة ومسئولية الحياة الزوجيـة : أي دور سيكون له في حياته سوى التبطل ، والتراخي ، على حساب الضعفاء وتعاسة الزوجات ؟

● وبهذا الوضع الطبيعي لقوامة الرجل في الحياة الزوجية ، لا تحتمل هـذه القوامة : معنى الاستعلاء والترفع ، ولا معنى السيادة والتـكبر . إن الرجل بهذه القوامة يؤدي دوراً طبيعياً ، كما تؤدي الزوجة دورها الطبيعي في الحمل والولادة ، والإرضاع ، والحضـانة سواء بسواء ، في غـير استعلاء وترفع ، أو في غير سيادة وتكبر .

والمنحرف من الأزواج هو الذي يتخـذ من مسئوليته عن الحياة الزوجية سبيلا إلى الاستعلاء ، ومركزاً لإهانة الزوجة . والمنحرفة من الزوجات هي التي تحول دون وضعها ، ودورها الطبيعي في الحياة الزوجية ، فتمتنع عن إنجاب الأولاد ،

أو عن إرضاعهم ، أوعن حضانتهم . إنها إن فعلت ذلك تسىء إلى طبيعتها كأنثى، قبل أن تسىء إلى علاقتها بزوجها ، وبأسرتها ومستقبل الأمة .

والخير — إذن كل الخير — فى أن يحافظ كل من الرجل والمرأة فى الحياة الزوجية على أداء الدور الخاص بكل منهما . لأنه دور طبيعى وفيه تحقيق هدف الحياة الزوجية ، وهو مايعبر عنه قول الله تعالى : « ومن آياته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » . وقوله : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » .. فجعل هدف الزوجية : الاستقرار ، وراحة النفس ، والمعاونة على دفع مشقة الحياة ، ثم النسل فى استمرار الإنسانية ، ودوام رسالتها .

● الاصــلاح :

● إذا تجاوز الشأن .. الفرد .. إلى غيره فى علاقته معه ، فمن المتوقع أن يجد خلاف بينهما .. وربما إلى درجة الخصومة .. وربما كذلك إلى درجة المقاتلة . وعندئذ : للإبقاء على علاقة المودة ، ثم على علاقة الاستمرار فى الحياة المشتركة .. كان : « الإصلاح » بين المتخاصمين — أو المتقاتلين — ضرورة اجتماعية . وبالأخص إذا كانت العلاقة الثنائية هى علاقة بين الزوجين فى الأسرة ، أو بين طائفتين — أو مجموعتين — فى الأمة الواحدة .

وكتاب الله جاء ليوصى بما يبقى للإنسان خصائصه الإنسانية فى سلوكه ، ويدفع عنه الانحراف فيما يتميز به عن غيره . ومن أهم خصائص الإنسان : ميله الفطرى إلى الاجتماع : إن فى بناء الأسرة ، أو فى كيان الأمة . ولذا جاءت وصايا القرآن بالإصلاح فى شأن الأسرة إذا أضحى الخلاف بين الزوجين يهدد بالقطيعة النهائية . فما أوصى به : قوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما (أى إن خفتم بين الزوجين .. والخطاب موجه إلى المؤمنين ، ممثلين فى أولياء الأمر) فابعثوا حكماً

من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا »[1] .. فالحكم المشترك من أهل الزوج وأهل الزوجة ، هو المسعى الحميد لإعادة العلاقة بين الزوجين إلى وضعها من : المودة ، والرحمة ، والسكن. وتوفيق الله فى نجاح إصلاح الحكمين بين الزوجين : كفيل بالرغبة الصادقة بين جميع الأطراف المعنية ، وهى : الحكمان ، والزوجان معاً .

وكذلك يعطى القرآن الأولوية : لجانب الزوج ، عندما يراجع زوجته فى طلاق رجعى — وهو الطلاق مرة واحدة ، لم تنته عدته بعد — ويستهدف مصلحة الزوجة فى ذلك وعدم الإضرار بها : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك (أى وأزواجهن أولى بردهن وإرجاعهن فى تلك المدة . ومعنى أن الأزواج أولى بذلك : أنه تستجاب رغبتهم ويؤخذ بها فى العلاقة بين الزوجين) إن أرادوا إصلاحاً (ولكن هذه الأولوية للأزواج مرهونة بالرغبة الصادقة لديهم : فى الإصلاح ، وعدم إلحاق الضرر بالزوجات) »[2] .

.. والإصلاح المطلوب فى الأسرة — كما يعبر عنه القرآن هنا — هو تجنيبها الضرر بسبب الفرقة : سواء باشر الزوج هذا الإصلاح بمفرده عند رد زوجته إليه فى الطلاق غير البائن .. أو باشره الحكم المشترك باتفاق أهل الطرفين . وليس للإصلاح وضع فى العلاقة الزوجية ، إذا لم يكن هناك خلاف يهدد بالفرقة والانفصال .

• ويوصى كتاب الله أيضاً : بالإصلاح بين جماعات الأمة وطوائفها إذا هددت الفرقة بينهما بالقتال وخروج بعضها على بعض . والإصلاح هنا محاولة كذلك لتجنب الأمة خطر : الانقسام ، والحرب الأهلية ، والصراع الطائفى .

(١) النساء : ٣٥ .   (٢) البقرة : ٢٢٨ .

والطالب بمباشرة الإصلاح عندئذ : هو الأمة كلها ، وفى مقدمة صفوفها : أولياء الأمر فيها . يقول الله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (أى بالفعل ، أو هدد وضعهم القائم بالقتال : كشح الأغنياء وإمساكهم عن الإنفاق ، مع ازدياد حال الفقر والحرمان للمحرومين) فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين »[1] . والتهديد بالحرب الأهلية ، والانقسام الطائفى : لايكون سببه فقط : الاعتداء على سلطة الحكم . بل قد يكون فى مقدمة أسبابه : ثورة أصحاب الحاجة والضعفاء فى الأمة . بسبب عدم وفاء الأغنياء والموسرين بحقهم فى مال الله الذى استخلفوا عليه . والإصلاح بالعدل بين طوائف الأمة عندئذ : يكون بتوصيل هذا الحق إليهم ، وإعادة النفوس إلى صفائها ، والروابط إلى تماسكها .

ومفهوم : « الإصلاح » — فى القرآن الكريم — يرتبط إذن بأمرين : الأمر الأول : خشية وقوع الضرر بسبب الفرقة : إن فى الأسرة أو فى الأمة . والأمر الثانى : محاولة إزالة هذا الضرر ، ورد الأمر فى العلاقات إلى الوضع المرجو منها .

زينة المرأة :

● يقول الله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن (أى يقصرن أبصارهن على مايحل لهن رؤيته من الرجال والنساء . وهو ما فوق السرة ..وتحت الركبة ، كما يقول الفقهاء) . . ويحفظن فروجهن (أى يسترنها) . ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها »[2] .. ويذكر بعض المفسرين — كصاحب الكشاف مثلا — أن : « زينة » المرأة ما تتزين به . وما تتزين به : إما ظاهر يجوز للمرأة

---

(١) الحجرات : ٢٩ .   (٢) النور : ٣١ .

إبداؤه : كالحلى ، والكحل ، والخضاب . وإما خفى لا يجوز لها ابداؤه كالسوار ، والخلخال ، والقلادة ، والقرط . والمقصود — كما يقول الكشاف بإبداء الزينة الظاهرة هو إبداء مكانها من الجسم ، وبعدم إبداء الزينة الخفية هو عدم إبداء مكانها من الجسم أيضاً . فمكان السوار من معصم اليد ، ومكان الخلخال من الرجل ، ومكان القلادة من العنق ، ومكان القرط من الأذن . . لا يجوز للمرأة أن تظهره . والنهى عندئذ عن عدم إظهار زينة المرأة هو نهى بالأولى عن عدم إظهار مكانها .

● ولكن إذا استرسلنا فى قراءة بقية الآية عندما يقول الله جل شأنه : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن (أى لأزواجهن) . . إلى آخر الأنواع التى استثنيت فى الآية : من المحارم ومن عداهم ، ربما نفهم : أن « زينة » المرأة ليست هى الأماكن من البدن وحدها التى تزين ، زينة ظاهرة أو خفية . وإنما كان بدن المرأة يعتبره الإسلام زينة لها . . أى يعتبره مصدر فتنة وإغراء الرجل . ثم من البدن ما هو عورة .. ومنه ما ليس بعورة . فإذا أوجب على المرأة أن تستر زينتها بالنسبة للأجانب منها ، فمعنى ذلك : أنه يجب عليها أن تستر بدنها إلا ما تدعو إليه الضرورة ، مما يعينها على أداء وظيفتها فى الحركة ، والأخذ ، والعطاء ، وأداء واجبها فى الشهادة ، وإتمام العقد ، كعقد الزواج مثلا . وإذا أباح الإسلام لها أن تبدى زينتها لزوجها ولمحارمها فمعنى ذلك : أن تظهر من بدنها ما لا يقع فى دائرة العورة منها لزوجها ، ولمحارمها ، وغيرهم ممن نصت عليهم الآية . أما عورتها فهى لها ، ولزوجها وحدها .

ويرجح مفهوم الزينة للمرأة على هذا النحو : ما جاء فى آية[1] أخرى فى سورة النور أيضاً فى قوله تعالى : «والقواعد من النساء (والمراد بقواعد النساء : العجائز

---

(١) النور : ٦٠ .

اللائى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن فى السن) اللاتى لا يرجون نكاحاً (أى، أولئكن اللاتى لا يطمعن فى الزواج ولا يتوقعنه) : فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، غير متبرجات بزينة (أى غير متعمدات وقاصدات أن يكشفن عن زينتهن)».. فأية زينة للنساء العجائز اللاتى لا يطمعن ولايتوقعن الزواج ، واللائى فات عليهن الوقت لتقدم سنهن .. سوى بدنهن ؟. إن أى مكان فى بدنها كانت تزينه ـ زينة ظاهرة أو خفية ـ أصبح فى كبر سنها الآن لايوحى إطلاقا بأى إغراء للرجل . بل على العكس : أولى لها الآن أن تستره ، بدلا من أن تكشف عنه .

• إن اعتبار الإسلام بدن المرأة كله . . زينتها الخاصة بها : يعود إلى وزنها فى حياة الرجل ، وقيمتها فى سلوكه ومواقفه . . يعود إلى ما تستطيعه هى بحكم تكوين أنوثتها من تأثير سلبى ، أو إيجابى عليه .

الإسلام لا يجزىء المرأة ولا يصنف بدنها إلى أصناف تختلف قيمتها : بعضها عن بعض فى جذب الرجل وشده إليها : فبعض منها تافه مثلا فى تأثيره على الرجل لضآلة جماله . . وبالتالى لا يعير التفات نظره . وهنا يجوز لها أن تكشف عنه وهى فى مأمن من نظرته الوالهة .

المرأة فى نظر الإسلام كل ، ووحدة . . هى زينة الرجل فى حياته ، ومن ثم : تطلب فتمهر ، ولا تطارد ولا تساوم ، وتحترم ولا تبتذل ، ويصان عرضها وتصان رغبتها من فحش القول ، كما يصان بدنها من فجر النظرة ، وتتبعها .

فإذا لم ترض المرأة بنظرة الإسلام إليها . فلها : أن تختار نظرة أخرى تؤسس عليها : ما ينبغى ، وما لاينبغى لها أن تكشفه من بدنها وتعرضه لإغراء الرجل بها . ولكن ليس لها أن تلوم الإسلام إذا بقى على نظرته من أنها كلها : زينة ، وجمال ، ومصدر إغراء وفتنة : كل ما لها من بدن ، وأنوثة .

● **التبـرج :**

● يقول الله تعالى موصياً نساء الرسول محمد : صلى الله عليه وسلم — وهو قول يوجه إلى جميع المؤمنات الأخريات — احتفاظا بكرامتهن ، وصوناً لهن من التعرض لأذى الكلام ، أو إيذاء النظرات : « يا نساء النبي : لستن كأحد من النساء (أي لأنكن قدوة في السلوك لغيركن) : إن اتقيتن (أي إن كنتن تقيات ومطيعات لما يأمر به الله ورسوله) فلا تخضعن بالقول (أي لا تلن ولا تتخنثن في الحديث) فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً (أي مهذباً لطيفاً دون أن يثير سوء الفهم في استغلال لطفكن) . وقرن في بيوتكن (أي ولحماية أنفسكن من عبث العابثين يجدر بكن أن يكون لكن بالأولى والأفضل استقرار في مساكنكن) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (كما يجدر بكن أن لا تسلكن إن خرجتن من منازلكن.. مسلك العارضات لأنفسهن في الطرقات على الرجال كما تصنع النساء اللائي استغرقن في التبعية للإتجاه المادي وحده) وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله (أي كن مؤمنات صادقات) إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت (أي يذهب قذارة النفوس في مسلكها وموقفها) ويطهركم تطهيراً »[1] . . فنصحهن بأمرين :

أولا : بالحرص على التهذيب واللطف في الحديث ، والبعد في الوقت نفسه عن الميوعة والتخنث فيه — كما تصنع المريبات — كي لا يساء فهمهن ممن به مرض النفس والقلب من الرجال .. ممن هم من أصحاب العبث والفجور. وهؤلاء يوجدون في كل وقت .

وثانياً : بحماية أنفسهن — بقدر الإمكان — وذلك بالاستقرار في مساكنهن من تطاول العابثين والفجار . على أنهن إذا خرجن يخرجن مبتعدات عن التبرج ...

---

(١) الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣ .

مبتعدات عما يشير إلى عرض أنفسهن على الرجال فى الطرقات . . مبتعدات عن مسلك العابثات المائلات . . عن مسلك أولئكن اللاتى يقصدن إلى إغراء الرجال وشدهن نحوهن ، بطريق ، أو بآخر .

فمفهوم التبرج للمرأة هو محاولتها بما تصنعه بنفسها : إغراء الرجال ودعوتهم إليها . وما تصنعه بنفسها قد يكون فى ملبسها . فقد تلبس مايكشف أو يحدد بدنها تحديداً دقيقاً . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم نهيه عن أى منهما : فيروى أبو هريرة عنه قوله: « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات ، عاريات، مائلات ، مميلات ، ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس»(١). كما يروى عن أسامة بن زيد قوله : « كسانى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبطية كثيفة (والقبطية ثوب رقيق معروف فى مصر قبل الفتح الإسلامى كان لايستر البشرة عن رؤية الناظر ، بل كان يصفها) فكسوتها امرأتى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرها أن تجعل تحته غلالة (والغلالة ما يلبس تحت الثوب) قال (أى فى سبب الأمر بلبس الغلالة :) أخاف أن تصف حجم عظامها »(٢) . وقد يكون طريق التبرج ما تصنعه فى خلقها من تغييره ، أو فى حركتها فى السير مما يثير الريب حولها .

• وتبرج المرأة بهذا المعنى — وهو خروجها فى الطرقات ذات فتنة فى صورة ما ، قصداً إلى إغراء الرجال، وذات دعوة مقنعة إليهم بطريق أو بآخر — يختلف عن مفهوم التجميل وهو أن تزين المرأة وتجمل نفسها . وإذا كان ينطوى تجميل امرأة لنفسها على إبراز أنوثتها . . فإن ذلك منها لإغراء زوجها وحده ، وليس لجذب الأجانب عنها . . نحوها .

---

(١) فى رواية احمد ومسلم : نيل الأوطار حـ ٢ . ص ١٢٠ .
(٢) فى رواية احمد : نيل الأوطار حـ ٢ . ص ١٢٠ .

والإسلام يدعو الزوجة إلى تجميل نفسها لزوجها ، ويريدها : أن تكون دوماً ذات إغراء له . يروى عن عائشة رضى الله عنها : «أن امرأة عثمان بن مظعون كانت تخضب وتطيب (أى تضع الخضاب فى يديها وقدميها ، كما تستخدم الطيب فى ثيابها وبدنها) فتركته (أى تركت الخضاب والطيب) فدخلت علىّ (أى دخلت على عائشة) فقلت (بعد أن لاحظت : أنها لم تعد تجمل نفسها) : أمشهد أم مغيب ؟ (أى تتركين تجميل نفسك وزوجك موجود معك الآن ، أم هو غائب عنك ؟) فقالت : مشهد (أى هو حاضر معى وغير مسافر) قالت : (أى ثم عللت تركها التجميل مع أن زوجها غير غائب عنها بقولها) : عثمان لا يريد الدنيا ، ولا يريد النساء (أى هو منصرف عن متع الدنيا ، وعن متعة المرأة) . قالت عائشة : فدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك . فلقى عثمان فقال : يا عثمان : تؤمن بما نؤمن به ؟ قال : نعم يارسول الله . قال (أى قال الرسول عليه الصلاة والسلام) : فأسوة ما . لك بنا (أى فالك أسوة بنا فى عدم هجر الدنيا والنساء »[1] . . فحمل الرسول عليه الصلاة والسلام صحابياً من أصحابه على العودة إلى الإستمتاع بالدنيا ، وعلى معاشرة زوجته .. هو دعوة — ضمناً — إلى زوجته كذلك : فى الاستمرار فى تجميل نفسها لزوجها حتى يسعدا بحياة زوجية طبيعيـة .

فالنهى عن تبرج المرأة هو نهى عن ابتذالها ومذلتها فى طلب الرجال الآخرين. والدعوة إلى تجميل الزوجة هو لصون العلاقة بين الزوجين من التفكك والفرقة .

* * *

ولكن هل ترضى المرأة المعاصرة : أن لا تتبرج ؟ . إنها تنادى بثورة « التحرير » لتفعل ما تشاء أن تفعله بنفسها وشد الرجال إليها :

---

(١) نيل الأوطار جـ ٦ . ص ٢٠٥ .

• فقد كان من نتائج الحرب العالمية الثانية تزعزع القيم الإنسانية العليا فى نفوس المجتمع الأوربى ، وبالأخص تلك القيم التى تدعو إليها المسيحية ـ كدين ـ وهى قيم : الأخوة ، والمحبة والسلام . فانقسام المجتمع الأوربى فى هذه الحرب إلى معسكرين ماردين : يحاول كل منهما أن يفنى الآخر — أو على الأقل يحاول أن يلحق به أشد الإضرار فتكا بالأموال والأنفس والثمرات — ذهب بمعنى الأخوة المسيحية فى هذا المجتمع ، كما ذهب بمعنى المحبة والسلام بين أفراده .

هذه النتيجة للحرب العالمية الثانية بالإضافة إلى الخصومة السياسية للكنيسة منذ عصر النهضة الأوربية ، التى لبست ثوب الخصومة العقلية أو العلمية للدين ومبادئه : زادت من ضعف الدين والتقاليد على « جيل ما بعد الحرب » وأصبح هدف هذا الجيل هو أن يتحلل من الدين وتقاليد المجتمع الأوربى التى توارثت فيه قروناً عديدة كى يعيش لوقته أو لآونته ، ولا يفكر فى غده .

• وساعد على تحقيق هذه النظرة : «الوجودية» ـ وهو أن يعيش الإنسان لآونته وليس لغده ، وأن يستمتع بوجوده الحاضر ما وسعت له الإمكانيات التى تتيح له ذلك — التقدم الاقتصادى فى المجتمع الأوربى ، كنتيجة للتقدم الصناعى والتكنولوجى . وهو تقدم لم تشهده البشرية من قبل : فى كمه ، ونوعه . وبالأخص التقدم الآلى . وهو التقدم السائد الآن فى بحوث الفضاء ، والعقول الاليكترونية .

فجيل ما بعد هذه الحرب وجد نفسه فى رخاء اقتصادى ، وفى محيط من الإمكانيات العديدة التى تقدم له فى يسر : وسائل الرفاهية وإشباع الرغبات والشهوات . ولا يجد الآن فى نفسه ما يحول بينه وبين الاستمتاع بالحياة المادية ، طالما لا تنطوى هذه النفس على احترام للتقاليد ، ولمبادىء الدين والمقاييس الأخلاقية. ذلك الاحترام الذى أضعفه : الشك فى قيمة تلك التقاليد ، وقيمة المبادىء

والمقاييس ، بسبب أحوال الحرب العالمية الثانية ومصائبها وأضرارها : هذا الشك الذى ورثه من جيله السابق ، وهو جيل الحرب الذى عاشها .

فهنا انطلاق فى غير حدود . وهنا إمكانيات اقتصادية تساعد على هذا الانطلاق . وليست هنا قيود ولا حواجز نفسية ، وليست هنا كذلك عوائق أو صعوبات مادية . والطريق الآن مفتوح على مصراعيه والحياة مليئة بالمغريات وما يفتتن به الإنسان : مما تقدمه الصناعة المعاصرة لرخاء الإنسان فى معيشته .

هذا الجو النفسى والمادى هو جو الجيل الحاضر ـ جيل ما بعد الحرب ـ فى المجتمع الأوربى . وهذا الجو كما أوحى للشباب بالثورة على التقاليد والقيود التى كانت تسود المجتمع فى جيل سابق عليه ، أوحى كذلك للشابة بالثورة على هذه التقاليد والقيود . وربما التقاليد والقيود بالنسبة إلى المرأة كانت تنطوى على ما يجعلها غير متساوية مع الرجل فى أوضاع اجتماعية معينة ، أو على الأقل كانت تنطوى على نظرة فى حياة المرأة تختلف عن تلك النظرة الأخرى فى حياة الرجل: إن فى العلاقة الجنسية ، أو فى وضع العمل خارج المنزل ، أو فى مستوى الأجر على العمل .

وفى هذا الجو النفسى والمادى ـ وهو جو التحلل والرخاء ـ تحركت المرأة فى « ثورة التحرر » وفى طريق «المساواة» . ووصلت فى فترة قصيرة إلى هدفها فى المساواة مع الرجل فى مجال العمل والأجور . وخطت خطوات واسعة كذلك فى سبيل العلاقات الجنسية : وفى شئون الزواج والطلاق .. فى شئون الأمومة وإنجاب الأطفال .. فى شئون المعاشرة الجنسية فى غير علاقة زوجية تقليدية .. إلى غير ذلك مما تتناوله حياة الرجل والمرأة .

وفى بعض المجتمعات الأوربية ـ كمجتمع السويد ـ فاقت المرأة : « مستوى المساواة» مع الرجل . ونشأت عن هذا التفوق مشكلة أخرى ، هى مشكلة مساواة

الرجل بالمرأة ، وليس العكس . وأصبح العمل المنزلى ، وحضانة الأطفال من غير إختصاص المرأة وحدها . وإنما هو لصاحب الأجر الأقل من الزوجين . فالرجل إذا كان دخله من عمله خارج المنزل أقل من دخل زوجته ، تفرغت الزوجة لعمل الوظيفة الخارجية ، وتفرغ الزوج نفسه للعمل بالمنزل وحضانة الطفل .

● وثورة الزى للمرأة هى جانب من « ثورة تحرر المرأة » فى جيل مابعد الحرب العالمية الثانية . تستهدف التحلل الكامل من تقاليد المجتمعات السابقة ، ومن نظراتها إلى الحياة ، كما تستهدف تحقيق «المساواة» بالرجل : نصاً . . وروحاً :

١ — فلماذا لا تتساوى به وتقلده فى زيه : فتلبس « الجاكتة والبنطلون » ؟

٢ — ولماذا لا تتساوى به وتقلده فى تسريحة شعره : فتقص شعرها ، وفى بعض الأحيان إلى درجة أدنى من الرجل ؟

٣ — ولماذا لا تتساوى به وتلبس «القصير جداً» مينى جيب . . وتكشف عن فخذيها ، كما يلبس الرجل فى الصيف ويكشف عن فخذيه ؟

٤ — ولماذا لا تتساوى به وتلبس «البيكينى» عند الإقامة على الشواطىء وتكشف عن جسمها كله ، عدا ذلك الساتر الضئيل للعورة ، كما يفعل هو ؟ .

٥ — ولماذا لا تتساوى به وتطلب رفيقها إلى الرقص كما يطلب هو رفيقته كذلك ليراقصها ؟

٦ — ولماذا لا تتساوى به فى الصلة بالجنس الآخر فيحل لها — عرفا — ما يحل له ؟

لماذا ... ولماذا ... لا تتساوى به وقد أصبحت تؤجر على عملها خارج المنزل ، كما يؤجر هو أو أكثر ؟ كما أصبحت تتخرج فى الجامعة ، وتشغل الوظائف التى يشغلها فى مصالح الحكومة أو فى الشركات ؟ وكما أصبحت أيضاً تعيش فى

جو هذا الجيل الجديد — جيل ما بعد الحرب — وهو جيل التحلل من تقاليد الماضى ، وجيل الرخاء الاقتصادى ، والتقدم الصناعى الآلى ؟

ولا فرق بين « الأنوثة » و « الذكورة » كلتاهما صنع الطبيعة : والعلم أصبح فى قدرته تغيير هذه الطبيعة ، فيحيل الأنثى ... إلى ذكر ، والذكر ... إلى أنثى ! .

والحديث عن « الأنوثة » و « الذكورة » ونسبة العاطفة والحنان والرقة إلى الأنوثة ، ونسبة الإرادة والحزم والخشونة إلى الذكورة .. هو حديث الماضى: قصد به تخدير المرأة ، فلا تطلب حقها فى المساواة ، كما قصد به جعل الرجل مغروراً فيتشبّث بمنزلة ليست له فى واقع الأمر ، وهى منزلة القيادة أو الاستعلاء على المرأة .

إن ذلك تصور بدائى للمرأة : والرجل . فالمرأة المحاربة ليست فى حاجة إلى عاطفة أو حنان ، والرجل فى العصر الآلى ليس فى حاجة إلى مباشرة القيادة أو الاستعلاء !

... وعلى هذا النحو يسير منطق « الثورة » لتحرر المرأة فى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية :

١ — فى دائرة الزى ،

٢ — وفى دائرة الحقوق والمساومة ،

٣ — وفى دائرة التركيب العضوى والاجتماعى .

● وتشجع هذه الثورة — وكذا ثورة الجيل كله — ضد التقاليد والمقاييس الأخلاقية : نظم الحكم السياسية المعاصرة فى المجتمعات الأوربية . إذ أن هذه النظم تعيش مزدهرة فى غيبة القيم الأخلاقية والدينية ، أكثر منها فى وجودها .

فهذه النظم ترتكز على « العلمانية » أو « الإلحادية » . والعلمانية والإلحادية كلتاهما تخاصم الدين ، وما تكون عنه من تقاليد . بسبب أن الدين فى المجتمع الأوربى يكون سلطة سياسة ثانية ، وهى سلطة الكنيسة . ولذا : سلطة الكنيسة خصم لسلطة الدولة فى أى مجتمع أوربى . وفى البعد عن الدين وتقاليده ، وفى التحلل من المقاييس الأخلاقية . . تخف حدة التنازع على السلطة ، وبالتالى تصبح سلطة الدولة أقوى . ومن جهة أخرى فى غيبة الدين والمقاييس الأخلاقية : تشيع « الإنتهازية » و « الميكافيلية » و « المنفعية » و « القرصنة » . وكلها وسائل لإشباع الرغبات الشخصية عن طريق السلطة .

والمجتمعات غير الأوربية مازالت تتبع وتقلد المجتمعات الأوروبية فى اتجاهها وفى ثوراتها ، وإن اختلفت درجة التقليد أو اختلف مستواه . ولكنها على أية حال تسير فى طريق التقليد . لأن شخصيتها المستقلة لم تتبلور بعد تماماً . إذ استقلال شخصية أى مجتمع يعتمد فى الدرجة الأولى على التمسك بمقوماته التاريخية . وطالما هذه المقومات لم تكن لها السيادة فى الاعتبار بعد ، فإن استقلال شخصية المجتمع تبقى فى حيز الظهور .

وثورة «تحرر المرأة» من الثورات التى تلقى رواجاً خارج المجتمعات الأوربية . وجانب « الأزياء » فيها أكثر قبولا . لأنه يشعر المرأة فى سرعة بحريتها التى تنشدها . وهى حرية الإعلان للرجل عن تخلصها من تقاليد الماضى ومبادئه . وإن لم تتحرر فى واقع أمرها . إذ التحرر : تطور نفسى قبل أن يكون إعلاناً عن الحرية فى المظهر .

و « ثورة تحرر المرأة » إذا قلدت فيها المرأة فى مجتمع آخر — كالمجتمع الإسلامى مثلا — يصعب على المرأة المقلدة أن تفهم نظاماً آخر للأسرة ، وإن كان

ينطوى على تحرير المرأة .. وإن كان هو فى نفسه « ثورة » على المذلة ، وإهدار كرامة المرأة . لأنها مقلدة ، ولأنها تحرص فى تقليدها على أن تسير فى خطوط ما قلدت فيه ، وإن كان فيه مذلتها وإهدار كرامتها .

١ — فإذا جاء الإسلام وجعل للمرأة الحرية فى إتمام عقد الزواج كالرجل سواء بسواء ،

٢ — وإذا جاء الإسلام وجعل للرجل الطلاق ، وللمرأة الخلع فى فصم عرى الزوجية ، إن تضرر أحد الزوجين بالمعاشرة الزوجية ، دون الرجوع إلى قضاء ،

٣ — وإذا جاء الإسلام وجعل للمرأة حرية البقاء على عقيدتها : يهودية أو مسيحية — كما للرجل عقيدته الإسلامية ،

٤ — وإذا جاء الإسلام وجعل للمرأة حرية التصرف فى مالها الخاص ، كما للرجل سواء بسواء حرية التصرف فى ماله الخاص ،

٥ — وإذا جاء الإسلام وأعطى للمرأة حقوقاً مماثلة للرجال فى العلاقة الزوجية ، وإن فرق بينهما فالفرق هو فى مطالبة الرجل فى أن يكون أكثر إنسانية وأكثر تهذيباً ، وبالأخص عند الطلاق ،

٦ — وإذا جاء الإسلام وأصر على أن تكون المعاشرة الجنسية فى علاقة زوجية — أى فى علاقة قد شهر أمرها بإعلان الزواج ، وحرم العلاقة السرية التى تمتهن فيها المرأة ، فأباح تعدد الزوجات حتى يتحمل فيها الرجل مسئوليته نحو زوجه وولده مسئولية علنية كاملة ،

٧ — وإذا جاء الإسلام وأبقى على حياء المرأة — وهو جزء فى أنوثتها — وعلى كرامتها كإنسان فيطلب إلى الرجل الزوج أن يقدم لها مهراً وهو منحة وهدية ، كى يعبر عن طلبه إياها ورغبته فى الزواج بها . .

.. إذا جاء الإسلام وصنع كل ذلك فى إطار العلاقة بين المرأة والرجل فهو فى نظر المرأة المتأثرة لثورة تحرير المرأة فى أوروبا : من مخلفات الماضى ، وإن كان يحقق « المساواة » الذى هو هدف هذه الثورة ، وإن كان يحقق الكرامة الإنسانية ، التى لم تحققها هذه الثورة ، ولم تطلبها أيضاً .

كيف نطالب هذه الثورة المحافظة على كرامة المرأة وهى تدفعها إلى أن تنزل « بلحمها مكشوفاً » : مجال العرض فى الشارع ، وعلى الشاطىء ، وفى الأندية وأمكنة الاجتماع والاختلاط ؟

كيف نطالب هذه الثورة المحافظة على كرامة المرأة وهى تدفعها إلى أن تلح فى إغراء الرجل بتقلبها فى أزياء مختلفة وخروجها عن الحياء فى موقفها منه إن هى أرادته ؟ .

الإسلام يبقى على أنوثة المرأة وحنانها وعاطفتها ، كما يبقى على رجولة الرجل وإرادته ، ويحول دون أن تتحول المرأة إلى رجل ، ويتحول الرجل إلى امرأة ، وإن كانت ثورة تحرير المرأة فى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية فى المجتمع الأوربى تطالب بالمساواة الحرفية ، وإن كان التقدم العلمى فى عصرنا الحاضر قد باشر بالفعل تحويل الرجل إلى امرأة ، ويسعى إلى تحويل المرأة إلى رجل تحويلا عضوياً .

الإسلام سيظل دين الإنسان فى إنسانيته ، رغم ثورة « الجنس » لأنها ثورة من أجل الانحلال والانطلاق . والإسلام سيظل مصدر الحضارة الإنسانية التى هى حضارة الإنسان ، وليست حضارة الانطلاق .

● **الطــــلاق :**

يأتى الطلاق فى القرآن للتعبير عن نقض عرى الزوجية التى ارتبطت بعقد النكاح . ولكن قبل أن يباشره الأزواج طلب إليهم التريث فى الإقدام عليه ، وذلك فيما يوجهه من نداء فى قوله : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن

فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »(١) . . فالآية توصى — كبدأ عام — بحسن المعاشرة فى العلاقة الزوجية . وحسن المعاشرة ينطوى — فيما ينطوى — على الصبر والتحمل . وعلى محاولة الملاءمة فى هدوء وحكمة عند الخلاف فى الرأى ، أو النظرة بين الطرفين . كما توصى الأزواج بمراجعة الأمر عندما يحسون بكراهية ، أو ببغض ، أو بضيق صدر ، من زوجاتهم ، إذ تقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . ومراجعة الأمر وتحليله : قد يكشف عن عنصر هام فى الزوجة المكروهة أو المبغوضة ، يذهب بكراهيتها وببغضها ويعيد من جديد للزوج : رغبته فى الإبقاء عليها ، والحرص على مودتها . فقد تكشف مراجعة الأمر عن عنصر : الوفاء والأمانة ، أو عن عنصر حسن التدبير فى المنزل ، وحسن الرعاية للأولاد ، أو عنصر الحكمة فى الرأى والمشورة ، أو عنصر المساعدة فى العمل وحل المشاكل : إلى غير ذلك . . من الصفات التى تجعل الرجل حريصاً على زوجته . ثم طلب أيضاً قيام الأهل بالاصلاح بينهما : «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، أن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما »(٢) .

وعندما يباشر الأزواج الطلاق : جعله القرآن على مراحل ثلاث ، تستغرق كل مرحلة : ثلاثة أشهر ، أو ثلاثة قروء . فعن مراحل الطلاق يقول الله تعالى : « الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف (أى فى الطلقة الثالثة) أو تسريح بإحسان»(٣) . وعن زمن كل مرحلة يجىء قوله سبحانه : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »(٤) . . والتعبير بتعدد الطلاق هنا : « الطلاق مرتان » . . يميل إلى أن الطلاق بلفظ الثلاث لايقع إلا طلقة واحدة.. أى ليست له إلا آثار طلقة واحدة. وآثار الطلقة الواحدة : هى جواز مراجعة الزوجة مدة الثلاثة أشهر أو الثلاثة قروء . والمراحل الثلاث للطلاق وأزمنتها الثلاثة التى تبلغ فى جملتها تسعة أشهر : . قصد

(١) النســاء : ١٩
(٢) البقرة : ٢٢٩ .
(٣) النســاء ٣٥
(٤) البقرة ٢٢٨ .

منها إفساح الوقت لمراجعة الطرفين : وضع العلاقة الزوجية بينهما وإعادة تقييمها في جو هادىء ، وفى عزلة كل عن الآخر . . مما يتيح الفرصة لهما لاستخلاص النتائج السليمة لحال الاستمرار فى العشرة ، ولحال الفرقة وإنهاء تواجد الحياة المشتركة بينهما ، على السواء .

ثم لو استقر الرأى على الطلاق .. فيجب أن يكون تعبيراً عن إزالة الضرر الناتج عن سوء العشرة الزوجية، وليس وسيلة للاضرار بالزوجة فى أية صورة ما . والطلاق من أجل إزالة الضرر فقط فى العشرة الزوجية .. يستتبع من الزوج : أن يكون محسناً فى طلاقه . وإحسانه فى الطلاق يتمثل فى أمرين : فى أن يعطى زوجته المطلقة والتى دخل بها : منحة — أو متعة — تستعين بها على اجتياز الفترة التى تعقب الطلاق . وهى فترة : صعوبتها من الناحية النفسية .. قد تكون أشد . ولكن الجانب المادى من جانب الزوج الذى تعبر عنه المنحة قد يكون له أثر فى تخفيف الصعوبة النفسية . ويجيء فى هذا قوله سبحانه : «وللمطلقات متاع بالمعروف ، حقاً على المتقين(١)» . وكذلك يتمثل إحسان الزوج عند الطلاق فى أن يتنازل لزوجته التى عقد عليها ولم يدخل بها . . عن نصف المهر المستحق له : من المهر كله الذى دفعه لها . وفى ذلك يقول جل شأنه : «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم (أى لكم أيها الأزواج : الحق فى استرداد نصف المهر عندئذ) إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح (أى إلا أن يعفو أحد الطرفين فى الزيجة : الزوجة ، أو الزوج ، أو ولى الأمر لهما ، أو لأى منهما عن حقه) وأن تعفوا أقرب للتقوى (أى وإن تتنازلوا أنتم أيها الأزواج .. أقرب إلى تقوى الله . لأن فى تنازلكم عن مستحقكم من نصف المهر .. ما يكون

---

(١) البقـرة : ٢٤١ .

شبه عوض على خيبة أمل الزوجة فى زوجها) »[1] ..

• ولا ينبغى بحال أن يتخذ الطلاق وما يستتبعه من آثار .. وسيلة للإضرار بمصلحة الزوجة فى زواج جديد : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن (وهو نهاية الشهر ، أو القرء) فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف (أى فلا تمسكوهن من جديد بمراجعتهن : لا لرغبتكم فى معاشرتهن ، ولكن حرصاً منكم على فوات مصلحتهن فى زواج جديد ينتظرهن)»[2] .. ولا أن يتخذ وسيلة لإرهاقها ، والإضرار بها ، وتحصيل المشقة لها : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن : فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف (أى بعد انتهاء عدة الطلاق فالأزواج مخيرون : بين الاستمرار فى حسن العشرة الزوجية ، أو مفارقة نسائهن ، ولكن فى تهذيب وإنسانية) ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (أى ولا ينبغى أن يكون إمساككم — أيها الأزواج — لنسائكم بمراجعتكم إياهن : صادراً عن رغبة فى إلحاق ضرر بهن فى معاشرتكم لهن ، لأنكم إن فعلتم ذلك كنتم قد باشرتم عدواناً عليهن وظلمتم بذلك أنفسكم) »[3] .. ولا أن يتخذ أيضاً وسيلة لابتزاز مالها أو استرداد المهر منها : « ولا يحل لكم (والخطاب للأزواج) أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ، إلا أن يخافا : أن لا يقيما حدود الله (وذلك بالاستمرار فى سوء العشرة) فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (أى فيما أعطته الزوجة من مهرها ، إبتغاء خلاصها من سوء عشرة الزوجية . عندئذ فقط يحل للزوج أن يأخذ مالا من زوجته ، على شرط أن لا يزيد ما يأخذه عن المهر ، وإلا كان مبتزاً للمال وآكلا لأموال الناس بالباطل)»[4] .

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .
(٢) البقرة : ٢٣٢ .
(٣) البقرة : ٢٣١ .
(٤) البقرة : ٢٢٩ .

والطلاق إذن : ليس وسيلة إرهاب ، ولا تهديد ولا وعد أو وعيد ، وليس وسيلة استغلال لمال الزوجة وإلحاق الأذى والضرر بها . إنه فقط : تعبير عن نية الفرقة فى الحياة الزوجية ، وعن عزم الزوج وتصميمه على وضع حد لسوء العشرة بين الزوجين .

● **الافتداء — أو الخلع :**

● تأتى كلمة : « الافتداء » فى القرآن . . تعبيراً عن الخلاص من ضرر ، فى مقابل فدية من مال وخلافه ، مما يدخل فى اعتبار الإنسان وتقييمه :

تأتى هذه الكلمة فى التعبير عن خلاص الأسرى من أسرهم فى مقابل شىء ما . على نحو ما جاء فى قوله تعالى — فى خطابه لبنى إسرائيل — : « ثم أنتم هؤلاء : تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم »[1] . . فجاءت كلمة : « تفادوهم » هنا لتوضيح أن بنى إسرائيل انتهكوا كل الأصول التى تراعى فى كيان الأمة : « فارتكبوا شذوذاً : فى معاملة بعضهم لبعض ، فقتلوا بعضهم بعضاً ، وأخرج فريق منهم فريقاً آخر : من الديار ، وإن عاد الفريق المنفى اعتبر أسيراً وأخذت منه الفدية مقابل إطلاق سراحه وتخليصه من الأسر .

. . وتأتى فى التعبير عما يتمناه الكافرون من الخلاص : من عذاب الآخرة . . مقابل ما يملكون ، لو أنهم ملكوا ، كما يقول الله ، مصوراً حال الكافرين وما هم فيه من مذلة ومشقة : « إن الذين كفروا : لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً — ومثله معه — ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، ولهم عذاب أليم »[2] . . ويقول : « يبصرونهم : يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ : ببنيه . وصاحبته

---

(١) البقرة : ٨٥ .   (٢) المائدة : ٣٦ .

(أى زوجه) وأخيه ، وفصيلتـه التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ، ثم ينجيه »[1] ..

ويلاحظ أن المفتدى — أو من يقدم الفدية — هو فى وضع سيىء يشق على نفسه الاستمرار فيه . ومن أجل ذلك يسعى إلى الخلاص منـه ، فى مقابل ما : فالأسير فى وضع سيىء يشق على نفسه الاستمرار فيه . والكافر أو المجرم فى يوم الآخرة : فى وضع سيىء يتمنى الخلاص منه .

• وعلى هذا النحو تأتى كلمة الافتداء فى العلاقة الزوجية .. فى جانب الزوجة يقول الله تعالى : « ولا يحل لكم : أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً (أى ولا يحل للأزواج أن تسترد شيئاً ما : مما أعطته من مهور لزوجاتهم . وهذا أصل عام ، وحد من حدود الله فى شأن الأسرة) إلا أن يخـافا أن لا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ، أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (أى ولـكن فى حالة واحدة فقط ، يجوز للمرأة أن تعطى من مهرها ، ويجوز للرجل أن يأخذ منها ماتعطيه إياه . وتلك هى الحالة التى يخشى فيها كل من الزوج والزوجة .. عدم تنفيذ حدود الله فى عشرتهمـا الزوجية .. يخشيان الاستمرار فيهـا لسوء العشرة بينهما ، ولضيق الزوجة بالحياة الزوجية وتضررها بهـا تضرراً يدفعها إلى أن تتنـازل عن المهر ، بعضاً أو كلا ، فى مقابل الخلاص من هذه العشرة السيئة . فهنـا : سوء العشرة الزوجية مخالف لحدود الله فى قوله : « وعاشروهن بالمعروف » . والوجه المعروف فى العشرة الزوجية هو الوجه الإنسانى الـكريم المهذب) »[2] .

.. فالزوجة هنا متضررة ، وفى وضع تريد أن تتخلص منه ، وهو وضع يشق عليها الاستمرار فيه . ومن أجل ذلك تريد أن تعطى مقابلا لخلاصهـا من سوء العشرة : من مهرها ، إما بعضه ، أو كله .. فهى تفتدى .. أى تعطى فدية .

وفى عرف الفقهاء تسمى الزوجة المفتدية .. مختلعة ، أى طالبة : أن تخلع نفسها

---

(١) المعـارج : ١١ — ١٤ . (٢) البقـرة : ٢٢٦/٢٢٧

من عقد الزوجية . ولتخفيف الأمر على الزوجة المفتدية — أو المختلعة — كانت عدتها شهراً واحداً ، وليست ثلاثة أشهر كالمطلقة . لأنها متضررة بارتباطها بزوجها الذى جعل حياتهما المشتركة فى غاية المشقة عليها . وللغرض نفسه ـ وهو التقليل ما أمكن من آثار الزوج فى حياتها ـ كان الافتداء ، أو الخلع ، فسخاً لعقد الزواج ـ عند ابن تيمية يحكم به القاضى ، وكما وقع على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ـ دون الحاجة إلى وقوع طلاق من الزوج نفسه . وبذلك يصير الخلع فى جانب الزوجة ، كالطلاق فى جانب الرجل . وكلاهما ـ الخلع ، والطلاق ـ تعبيران عن التصميم على ترك الحياة الزوجية ، وإنهاء عقد النكاح الذى صدر باختيارهما اختياراً مطلقا ، أول الأمر .

ولا يحل للزوج إذا رأى استعداد زوجته للافتداء .. أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها من مهر . وإلا كان آكلا لأموال الناس بالباطل ، وهو سحت وعقابه عند الله : نار جهنم .

● **الظهــار :**

الظهار نوع من أنواع الفرقة فى العلاقة الزوجية . وقد كان مستعملا فى الجاهلية ـ أى على عهد الاستخفاف بإنسانية المرأة ـ كطلاق : يعفى الزوج من التزاماته الزوجية نحو زوجته ، بينما لا يعطى الزوجة : الحرية فى ترك منزل الزوجية أو الزواج بآخر . والزوج عن طريق الظهار كان يمارس أنانيته فى إبعاد الزوجة عن حقوقها ، مع ربطها ربطاً وثيقاً كرقيقة له ، دون أن تصير حرة حتى فى التزوج برجل آخر . والظهار يشبه العضل فى آثاره . وعضل النساء ـ كما جاء فى قوله تعالى: « ولا تعضلوهن » ـ هو أن يطلق الرجل امرأته طلقة غير بائنة ، ثم عندما يقرب انتهاء مدتها يراجعها . . وهكذا . ويحول بذلك دون إعادة الحرية لها لتتزوج برجل آخر .

ولفظ الظهار — هو : أن يقول الزوج لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى . . أى . أنت فى الحرمة علىّ .. كحرمة أمى علىّ ، ويلحقها بذلك بأمه فى الحرمة ، وبذلك لايقترب منها أشهراً ، وربما سنين عديدة . وهى على وضع الآن لاتعتبر فيه زوجة .. كما لاتعتبر فيه غير زوجة . وبذلك كان الظهار صورة من صور الاستبداد .. استبداد القوى بالضعيف : القوى بعضلاته . . والضعيف بجسمه ، يمارسها الرجل الأنانى .

• وقد جاء إلغاء القرآن لهذا النوع من التعبير عن الفرقة بين الزوجين : فى صورة تدل على منتهى الاهتمام من جانب الله سبحانه بتأكيد إنسانية المرأة ، وإبعاد ما كان يمارسه الأنانيّون غير المهذبين حيال النيل من كرامتها : فقد روى عن خولة بنت ثعلبة قالت : ظاهر منى أوس بن الصامت — وهو زوجها — (أى قال لها أنت علىّ كظهر أمى) فجئت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلنى فيه (أى يحاورنى ويراجعنى فى شأنه) ويقول : اتقى الله ، فإنه ابن عمك فابرح (أى لم يزل) يراجعنى فى شأنه حتى نزل القرآن . « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله (أى فى صلاتها والدعاء له بأن يخلصها مما هى فيه من وضع مؤلم غير إنسانى وغير كريم) والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم (أى الذين يحرمونهم — الآن بعد الإسلام — على أنفسهم: تحريم الأمهات) : ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً (أى إن ما كان يستعمل فى الجاهلية — أى فى العهود غير الإنسانية — من هذا النوع من التحريم : إن هو إلا قول زور ومنكر، ولا أساس له من واقع ، ويقصد به فقط إلحاق الأذى والضرر بالزوجات . وإلا فكيف تكون الزوجة أماً للزوج — وأمه هى وحدها التى ولدته — وبالتالى : كيف تنتقل حرمة الأم الأبدية على ولدها .. إلى زوجته وهى حلاله بمقتضى عقد الزوجيه ؟) وإن الله لعفو

غفور (أي لما سلف ووقع منه قبل نزول تحريمه) . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا (فيغفلون شأن ما قالوه من ظهار ويرجعون إلى الوضع الطبيعي للزوجية .. هؤلاء يلزمون — قبل التقائهم بزوجاتهم — بكفارة عظمى ، عقوبة لهم على مسلكهم الأناني ، وإتيانهم بالمنكر والزور من القول) فتحرير رقبة (أي مؤمنة) من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله (أي إن أداءكم هذه العقوبة الكبرى : يستهدف الاستقرار بكم على الوضع الجديد الذي أوحى به الله لرسوله عليه السلام وهو وضع تحريم الظهار كصورة من صور الطلاق والفرقة) وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم »(١).

وبعد أن نزلت هذه الآيات قال — رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لخولة — بعتق رقبة (أي على زوجها الأوس : عتق رقبة) قالت : لا يجد ، قال : فيصوم شهرين متتابعين ، قالت : يارسول الله إنه شيخ كبير ، مابه من صيام ، قال: فليطعم ستين مسكيناً . قالت : ماعنده من شيء يتصدق به ، قال : فأتي ساعتئذ (أي من مال الزكاة) بعرق من تمر (أي زنبيل من تمر) قالت : يارسول الله فإني سأعينه بعرق آخر ، قال : قد أحسنت . اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً وارجعي إلى ابن عمك »(٢).

وبتحريم القرآن الظهار ، وتحايلات أخرى كانت ترتبط بالطلاق : يقضي الإسلام على الصور غير الإنسانية التي كانت تمتهن — أو تستغل — فيها المرأة في العلاقة الزوجية .

---

(١) المجادلة : ١ — ٤ .

(٢) الحديث في نيل الأوطار : جـ ٦ . ص ٢٧٨ .

● الايـــلاء :

● وصورة أخرى من صور عدم التقدير لعلاقة الزوجة بزوجها .. مايعبر عنها بالإيلاء : وهو الحلف بالله من الزوج على عدم اقترابه من زوجته مدة غير معلومة .. كأن يقول لها : أنت عليّ حرام .

وهو مما نقله بعض المسلمين من جاهليتهم إلى عهد الإسلام . وقد كان يستعمل فى بداية عهدهم به ، حتى جاء قوله تعالى : « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم (أى لايحاسبكم على الأيمان التى تصدر عفواً ، من غير نية سابقة وقصد مبيت) ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم (أى ولكن مؤاخذة الله لكم تتم : عندما يكون هنالك إصرار على اليمين فى أنفسكم . لأن الله — جلت قدرته — لايريد أن يعرض اسمه فى مجال أخطاء الإنسان وكذبه) والله غفور حليم (لما مضى من أيمان قبل هذا التحذير) . للذين يؤلون من نسائهم (أى لأولئكم الأزواج الذين يحلفون على نسائهم بالحرمة) . . تربص أربعة أشهر (أى انتظار مدة أقصاها أربعة أشهر ، يخير الزوج بعدها : إما إلى عودة لزوجته ، وإما إلى خروج من عقد الزوجية . ولم يلغ القرآن فوراً : هذا الإيلاء ، كما ألغى الظهار — وكل فيه حالة تعسف . . وكل فيه مباشرة الزوج : تحريم ما لا يستطيع تحريمه — لأن الحلف بالله له وقاره واحترامه ، وله كذلك : اعتبارة . فرعاية لتضرر الزوجة حدّد أجله بمدة أربعة أشهر . ورعاية لاعتبار اليمين بالله لأنها يمين تنعقد — لم يلغ أثرها كلية . بل جعل لها أثر يمتد إلى آخر تلك المدة المحددة) فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم (وعند انتهاء مدة الأربعة أشهر : إن عاد الأزواج إلى زوجاتهم فإن الله غفور لهم على خطئهم هذا .. ورحيم بهم عندما يرفعون الضرر والأذى الذى ألحقوه بنسائهم) وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »[1] .

---

(١) البقرة : ٢٢٦/٢٢٧ .

• ويقول بعض الفقهاء ـ للشبه القائم بين الإيلاء والظهـار ـ إن فى قول الرجل لزوجته أنت علىّ حرام . . كفارة ظهار : أى عتق رقيق ، فصيام شهرين متتابعين ، فإطعـام ستين مسكيناً . ويذكر ابن القيم أن هذا الرأى صح عن ابن عباس ، وهو كذلك إحدى الروايات عن أحمد . وحجة هذا القول : أن الله تعالى : جعل التشبيه بمن تحرم عليه . . ظهاراً ، فالتصريح منه بالتحريم أولى . ويؤيده : أن الله تعالى لم يجعل المكلف : التحليل والتحريم . وإنما ذلك إلى الله تعالى . فإذا قال الزوج فى الظهار : أنت علىّ كظهر أمى . . أو قال فى الإيلاء : أنت علىّ حرام . . فقد قال المنكر من القول والزور ، وكذب على الله تعالى ، فإنه لم يجعلها عليه كظهر أمه ، ولم يجعلها عليـه حراماً ، فقد أوجب بهذا القول المنـكر أغلظ الـكفارتين ، وهى كفارة الظهار .

• وكما أن الظهار جعل غير مقبول فى الإسلام ـ بعد نزول القرآن الـكريم بآيات المجادلة ـ فـكذلك الإيلاء غير مقبول فيه أيضاً ، لقوله تعالى هنا : «ولـكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » .. فمؤاخذة الله لمن يحلف به كمبدأ عام ـ وعلى وجه أخص لمن يحلف بالله محرماً زوجته على نفسه ـ دليل على النهى عنه .

وإذ يبعد الإسلام العبث ، والضرر فى العـلاقة الزوجية . . فإنه يريدها إنسانية فى قيامها .. وإنسانية فى بقائها .. وإنسانية فى وضع نهاية لها بالطلاق .

• اليتيم

• يمتن الله على رسوله محمد صلى الله عليـه وسلم فى سورة الضحى بقوله : «ألم يجدك يتيما فآوى » . . فأطلق عليه وصف اليتيم . إذ قد عرف من سيرته عليه السلام : أنه كان صغيراً لم تتجاوز سنه ستة أشهر ، عنـدما مات أبوه وتركه فى حضانة أمه ، وفى رعاية عمه أبى طالب . واليتيم إذن هو من مات أبوه ولم يبلغ مستوى الرشد بعد فى الإنسانية . ولعدم بلوغه مستوى الرشد كان ضعيفاً ، كما كان

فى حاجة إلى رعاية غيره : إن فى حسن معاملته وتوجيهــه ، وإن فى استثمار ماله — إن كان ذا مال — والمحافظة عليه .

والضعف أمر ملحوظ فى مفهوم اليتيم . وهــذا الضعف هو : فى مستوى المسئولية ، وفى درجة الاستقلال فى التصرف ، قبل الضعف فى القوة البدنية وفى النمــاء الجسمى . ويلحق باليتيم : كل ضعيف فى مسئوليته ، وفى درجة استقلاله العقلى ، مهما كانت له من قوة البدن وفراهة الجسم . وقد يكون الضعف فى المسئولية ، أو فى درجة الاستقلال العقلى ناتجاً عن خوف أو إرهاب أو إذلال ، وليس عن قصور فى الاستطاعة البشرية ، وإمكانيات الذات نفسها .

● ولأن ضعف اليتيم ضعف إنسانى ، جاءت آية القرآن فى شأنه ، حاثة على اتخاذ موقف خاص منه . وهو موقف يتكون من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : إنكار الغلظة والجفوة معه وفى معاملته . يقول الله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين (أى يوم الجزاء فى الآخرة) ؟. فذلك الذى يدع اليتيم (أى يعامله فى غلظة وجفوة) »[1] . . فجعل القرآن من يعامل اليتيم فى غلظة : فى مستوى من ينكر الآخرة والجزاء فيها ، ولا يؤمن بأنها تقع . وهو ذلك المــادى الذى تمــكنت منه شهوات الحياة الدنيا ، وذلك الأنانى الذى لا يرى فى الوجود إلا ذاته وحدها .

والجانب الثانى: حسن معاملته ، كما جاء فى قول المولى عز وجل : « وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى »[1] .. فالإحسان المطلوب هنا للوالدين ، ولذى القربى ، واليتامى : قد يكون إحساناً معنوياً فى لطف المعاملة ، قبل أن يكون إحساناً مادياً فى العطاء القليل أو الـكثير . وليس من الإحسان إلى اليتامى : تجنب

---

(١) المــاعون : ١ ، ٢ . (٢) النســاء : ٣٦ .

مخالطتهم وعدم الاهتمام بأمرهم . لأن الإحسان ليس أمراً سلبياً . وإنما هو عمل إيجابي : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم ، خير (أى الاهتمام بإصلاح أمرهم ، خير من تجنبهم وتركهم وشأنهم) »[١] .

والجانب الثالث : المحافظة على ماله ، وحسن استثماره . على نحو ما تذكره هذه الآية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده »[٢] . فهى تحدد المباشرة المقبولة فى استثمار مال اليتيم ، بأنها المباشرة التى هى أحسن .. أى التى تدر ثمرة وربحاً أكثر ، مع قلة فى الإنفاق . أما المحافظة على رأس ماله فقد نهى القرآن عن حالتين يتصور بأية واحدة منهما هلاك رأس المال ، وضياعه : الأولى : الاقتطاع منه ظلماً وعدواناً . وقد سماه « أكلا » فى قوله : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً »[٣] . والثانية تبديل الخبيث بالطيب . أى أخذ الطيب والأجود من مال اليتيم ، ووضع الردىء والسيء من مال الوصى بدلا منه . وجاء النهى عن ذلك فى قوله : «وآتوا اليتامى أموالهم (أى كما هى ، عندما يبلغون الرشد وتسلمونها إليهم . والخطاب للأوصياء) . ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب (أى لا تأخذوا الطيب والأجود منها ، وتسلموهم الردىء والسيء من أموالكم ، بدلا منه) »[٤] .

وقد كان نصح القرآن فى قوله : « فأما اليتيم فلا تقهر (أى فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه) »[٥] .. مبدأ عاماً للحيلولة دون استغلال الضعف فيه بأى وجه من الوجوه .

وما يأمر — أو ينهى عنه — القرآن الأوصياء فى شأن اليتيم ، فإنه حق

(١) البقرة : ٢٢٠ .
(٢) الانعام : ١٥٢ .
(٣) النساء : ١٠ .
(٤) النساء : ٢ .
(٥) الضحى : ٩ .

لليتيم نفسه ، وواجب على الأوصياء مباشرته . ومن وراء تحقيق الحق وأداء الواجب : سلطة الحاكم ، ووظيفة الدولة .

والقرآن إذ ينهى عن استغلال اليتيم لضعفه ، فإنه ينهى عن كل استغلال بسبب الضعف أينما يوجد . وإذ ينصح بحسن معاملة اليتيم لضعفه ، فإنه ينصح بحسن معاملة الضعيف لأى سبب .

● المسكين :

● يأتى ذكر : « المسكين » فى آيات عديدة من آيات القرآن الكريم ، توصى بعونه وتغطية حاجته :

١ — جاء ذكره فى مصارف الزكاة فى قول الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ... »(١) ..

٢ — وجاء ذكره فى توزيع غنائم الحرب فى قوله جل شأنه : «واعلموا : أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذى القربى (أى أقربائه عليه الصلاة والسلام على عهده) واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل »(٢) ..

٣ — وجاء ذكره كذلك فى مصارف البر العام — وراء الزكاة — فيما تقصه هذه الآيات : « واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين»(٣) ... « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين »(٤) .. « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله : واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ... »(٥) .

٤ — وجاء ذكر المسكين أيضاً فى الكفارات عن الأخطاء التى ترتكب ، على

---

(١) التوبة : ٦٠ .
(٢) الأنفال : ٤١ .
(٣) النساء : ٣٦ .
(٤) النور : ١٧٧ .
(٥) البقرة : ١٧٧ .

نحو ما جاء فى كفارة الصيد فى قول المولى سبحانه : « أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياما »(١) .

وجعل القرآن ما يعطاه المسكين من كل هذه المصادر للانفاق .. حقاً له ، يجب على من يخرج الزكاة ، أو من ينفق فيما وراءها فى سبيل الخير العام ، أو من يوزع غنائم الحرب ، أو من يكفر عن خطأ باشره وتجب فيه الكفارة : أن يحققه له : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون »(٢) .

فالمسكين صاحب حق فى مال غيره . وغيره هنا عديد ومتنوع ، مما يجعل كفالة أمره فى سد حاجته .. أمراً مؤكداً . وحقه ـ كحق غيره من نظرائه ممن يتكفل بهم المجتمع المؤمن ـ لا يرتبط بهوى من يجب عليه أداؤه ، ولا برغبته . بل هو أمر ملتزم بأدائه المؤمن ، عندما يقبل الإيمان بالله ، فوق أنه هذا الحق إما : عبادة ، أو قربى الى الله . والعبادة ، أو القربى هى فوق الهوى والشهوة .

● والمسكين صاحب الحق فى مال غيره إذا أريد تحديده : من هو ؟ .. فهو ذلك الذى يقل فى إعساره ، عن وضع الفقير . أى هو ذلك الذي ليس فى حالة إعسار شديد ، كتلك الحالة التى هى للفقير . وقد وصف القرآن الكريم حالة الفقير فى قوله تعالى : «وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم ، وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً فى الأرض (أى من أجل السعى فى سبيل الرزق) يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم (من صفرة الوجه ورثاثة الحال) لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم »(٣) .. فقد وصف القرآن هنا : الفقراء بأنهم العاجزون عن الكسب ، سواء لضعف بدنى ،

---

(١) المائدة : ٩٥ .

(٢) الروم : ٣٨ .

(٣) البقرة : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

أو لحائل يحول دون سعيهم كحصار من الأعداء ضرب حولهم بسبب إيمانهم . ولأنهم عاجزون عن الكسب يبدو عليهم الإعياء ، كأمارة على النقص فى التغذية، أو فى سوء المسكن والملبس .

والفقير إذن هو صاحب أعلى درجة فى الحاجة . ومستواه الأعلى فى الحاجة بسبب عجزه المادى عن السعى فى سبيل كسب الرزق وسد حاجته . والمسكين ليس هو ذلك العاجز عجزاً مادياً عن الكسب والسعى فى سبيل الرزق . وإنما هو يسعى ويلهث فى سبيل كسب العيش ، ويسخر كل طاقاته الممكنة فى سد حاجته . ولكن مع ذلك لايستطيع أن يسدها : إما لكثرة أولاده ، أو لضعف فى مستوى دخله ، رغم كثرة حركته فى السعى . هو ذلك الذى لم تواته الظروف ليكون أكثر عدة واستعداداً للسعى فى الحياة . وطاقاته على العمل طاقات محدودة، وقدرته الذهنية قدرة محدودة ، وتصرفه فى الحياة تصرف محدود . إنه إنسان يسعى . ولكن سعيه لا يوصله إلى اتمام حاجته . إنه يؤمن بالقيم الخلقية ، ويسلك طريق تحقيقها ، ولذا لاينفق فى عبث أو لهو .

هذا العامل ، الجد فى سعيه فى الحياة ، وصاحب الحاجة إلى تغطية نفقته ، هو : المسكين ، الذى جعل له القرآن حقاً لدى الآخرين ممن يفيض دخلهم عن حاجتهم ، ويلتزم بأدائه له : بيت المال أو ما يسمى بالدولة فى نظم الحكم المعاصرة . إنه هو الذى ندد القرآن بسبب التقصير فى حقه .. بأولئك الأثرياء الأشحاء فى قوله: « .. كلا بل لاتكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حباً جماً »[1] .. وفى قوله « إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر ؟ . قالوا : لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين »[2] .. إن كفالة المسكين فى المجتمع يراها القرآن ضرورة اجتماعية ، وضرورة إنسانية ، وضرورة سياسية .

---

(١) الفجر : ١٧ — ٢٠ .
(٢) المدثر : ٣٩ — ٤٤ .

دليـــل الكتاب

(أ) الكتب التى صدرت للمؤلف

	الطبعة
١ ـ الفكر الاسلامى الحديث .. وصلته بالاستعمار الغربى	الخامسة
٢ ـ الاسلام فى حياة المسلم	الأولى
٣ ـ الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر	الأولى
٤ ـ تهافت الفكر المادى التاريخى	الأولى
٥ ـ طبقة المجتمع الأوربى وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى المعاصر	الأولى
٦ ـ الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر ـ مشكلات الأسرة والتكفل	الثانية
٧ ـ الدين والدولة ـ من توجيه القرآن الكريم	الأولى
٨ ـ خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر	الأولى
٩ ـ الفكر الاسلامى فى تطوره	الأولى
١٠ ـ راى الدين بين السائل والمجيب	الأولى
١١ ـ لجانب الالهى من التفكير الاسلامى	الخامسة
١٢ ـ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة	الأولى
١٣ ـ تفسير سورة الأعراف	الأولى
١٤ ـ تفسير سورة الجن	الأولى
١٥ ـ تفسير سورة الصافات	الأولى

(ب) الكتب التى للمؤلف تحت الطبع :

	الطبعة
١ ــ الفكر الاسلامى ــ مشكلات الحكم والتوجيه	الثانية
٢ ــ الدين والحضارة الانسانية	الثالثة
٣ ــ عالمية الثقافة فى القرن السادس الهجرى	الأولى
٤ ــ غيوم تحجب الاسلام	الأولى
٥ ــ تفسير سورة النحل	الأولى
٦ ــ تفسير سورة الانعام	الأولى
٧ ــ تفسير سورة يونس	الأولى
٨ ــ تفسير سورة الشعراء	الأولى
٩ ــ تفسير سورة المؤمنون	الأولى
١٠ ــ منهج القرآن فى تطوير المجتمع	الأولى

هــذا الكتـــاب

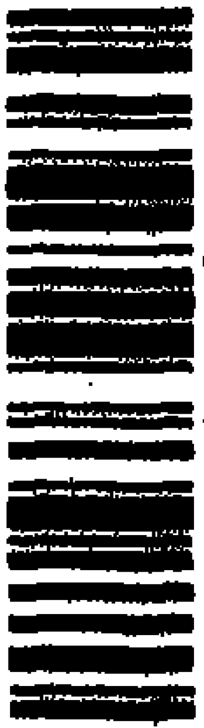
● اختلفت ((**مفاهيم القرآن**)) باختلاف العصـور والأجيال ، وتنوعت النزعات والآراء ، ويرجع هذا الى اختلاف العهود من قوة الى ضعف ، ومن تقرب الى كتاب الله الى الهروب منه ... وبفعل المتربصين من أعداء الاسلام . وبث الأفكار والنزعات الغريبة عنه التى تقوم على التشكيك فى القيم الاسلامية ، عند التلويح بقيم أخرى دخيلة . حتى التبس أمر هذه المفاهيم بكثير من الأهواء والتحريف .

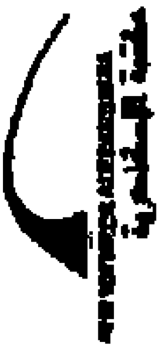
● **وهذا الكتاب** محاولة لرد المفاهيم الاسلامية الى مصدرها الرئيسى وهو **القرآن** ــ مبعداً عنها الضعف والهوان والميل والتحريف ، وما التبس عليه بفعل الزمن وبفعل المتربصين به سوءاً .

● كما انه تجلية ((**للمفهوم الاسـلامى**)) وحقيقة المعانى السـامية التى ينطوى عليها .. فى دائرة ((**العقيدة ، والالوهية ، والرسالة والرسول ، والمخلوقات ، والحيـاة الآخرة**)) .. وفى دائرة ((**سلوك الانسـان ، التقوى ، والصراط المستقيم ، وعلاقتـه بالأسرة**)) .. حتى يصـل بالانسان الى المرتبـة الكريمة التى يرضاها الله لعباده المؤمنين ، وهى مرتبة ((**الاحسان**)) .

● والمؤلف ليس غريبا على تجلية هذه المفاهيم الاسلامية الصحيحة . فان له العديد من المؤلفات التى توضح اهداف المفهوم الاسلامى .

● **ويسر مكتبة وهبة** أن تقوم بنشر هـذا الكتاب ليكون مشعلا يضئ الطريق أمام الشباب فى هذه الظروف التى تمر بها الأمة الاسـلامية الآن .





مكتبة وهبة